



مركز  
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

العلماء



عمر  
عليه السلام

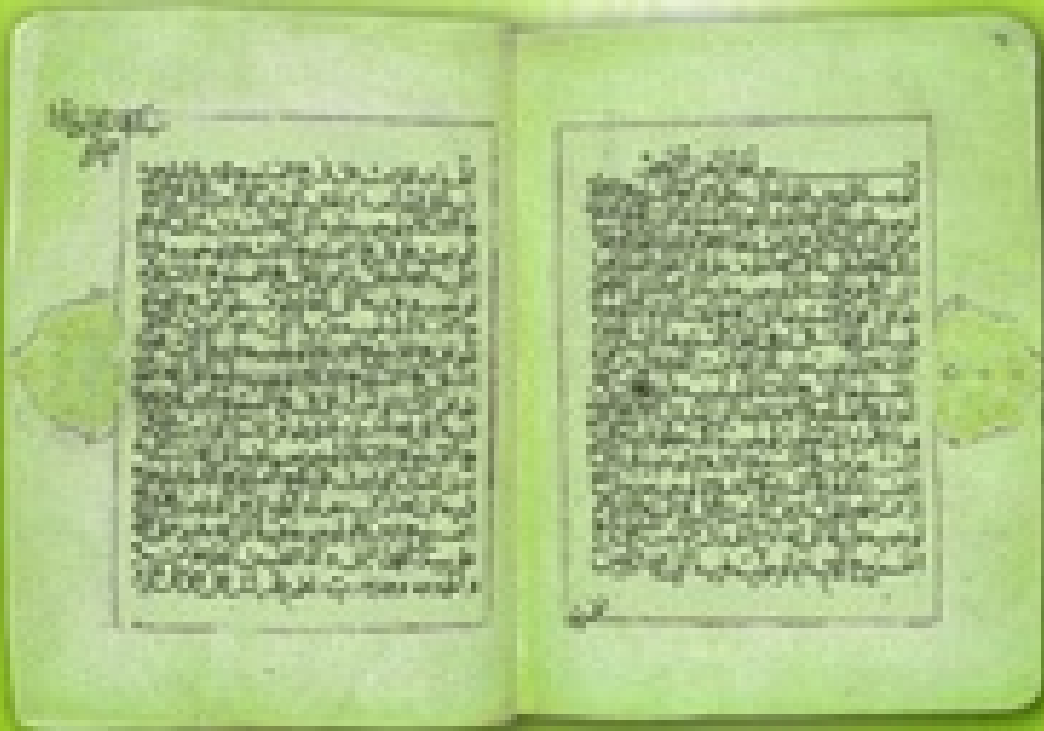
www.Ghaemiyeh.com  
www.Ghaemiyeh.org  
www.Ghaemiyeh.net  
www.Ghaemiyeh.ir

# مِيقَاتُ الْحَجِّ

مركز البحوث والدراسات الإسلامية  
بمطابقين الشريعة والتاريخية  
والتاريخية والأدبية للحج  
مصر - جازي القاهرة  
١٩٩٤ هـ - المجلد ١٥

١٥

- الحج رسول و حكم (١٦) ب
- حجة الوداع ... طيب وارتكاه ب
- رملة - ذبائح الحج، آثار التفتاح حجة البر فهد الطر ب
- توسعة الحرم دراسة علمية لدراسة بيئية بيادية ب
- لقه الحج الضرورات و الحاجات (١٧) ب
- علماء الحرم الشريف، نشر النور والزهر شعراج ب
- أبو سعيد الطبرقي ب
- أجهزة الاستشعارات لبيات الحرم الشريف على العنصر ب



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

# دو فصلنامه « میقات الحج »

کاتب:

محمدی ری شهری

نشرت فی الطباعة:

مشعر

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

## الفهرس

٥	الفهرس
٦	ميقات الحج المجلد ١٥
٦	اشارة
٦	الحج في احاديث الامام الخميني قدس سره
١١	الحج في احاديث الامام الخامنئي
١٤	مناسك الحج لصاحب المعالم
٥١	الحرمان الشريفان
٥١	الحقيقة والمجاز
٧٧	حدود الطواف ومكانه دراسة فقهيئة استدلاية مقارنة
٩٩	من فلسفة الحج
١١٢	الارث العظيم
١٤٦	منهج الرشاد لمن أراد السداد (١)
١٨١	علل الحج في كتب الشيخ الصدوق
٢٠٨	ظاهرة الحج دراسة سوسولوجية
٢٣٣	الحج في الادب العربي
٢٤٦	مهمات مشبوهة في الديار المقدسة (٦)
٢٨٤	ابو ايوب الأنصاري
٣٠٢	معجم ما كتب في الحج و الزيارة (١٠)
٣٣٤	تعريف مركز

## میقات الحج المجلد ۱۵

## اشاره

عنوان و نام پدیدآور : میقات الحج [بیابند: مجله]  
 مشخصات نشر : تهران: منظمه الحج و الزیارة، ۱۴۱۷ ق. - = ۱۳۷۵ -  
 فاصله انتشار : شش ماه یکبار

یادداشت : عربی

فهرست نویسی براساس سال ۳ شماره ۵ سال ۱۴۱۷ق.

یادداشت : این نشریه در بیروت نیز منتشر می شود

یادداشت : مدیرالمسؤول: محمد محمدی ری شهری

رئیس التحریر: علی قاضی عسکر

یادداشت : کتابنامه

ترجمه عنوان : Mighat al - haj

موضوع : حج -- نشریات ادواری

شناسه افزوده : محمدی ری شهری، محمد، ۱۳۲۵، -مدیر مسئول

Muhammadi Reyshahri, Muhammad

قاضی عسکر، سیدعلی، ۱۳۲۵، - سردیر

شناسه افزوده : سازمان حج و زیارت

رده بندی کنگره : BP۱۸۸/۸

رده بندی ... : ۲۹۷/۳۵۷۰۵

ص: ۱

الحج فی احادیث الامام الخمينی قدس سره









ص: ٥

العدد الخامس عشر

الحج في أحاديث الإمام الخميني قدس سره

«كثير من الأحكام العبادية تصدر عنها معطيات اجتماعية وسياسية، فعبادات الإسلام عادةً ثلاثم سياساته وتدابيره الاجتماعية. واجتماع الحج يؤدي- بالإضافة إلى ما له من آثار خلقية وعاطفية- إلى نتائج وآثار سياسية. استحدث الإسلام هذه الاجتماعات وندب الناس إليها، وألزمهم ببعضها حتى تعم المعرفة الدينية والعواطف الأخوية، ويتم التعرف بين الناس، وتنضج الأفكار وتنمو وتتلاقح، وتبحث المشاكل السياسية والاجتماعية وحلولها.

في الدول غير الإسلامية تنفق الملايين من ثروة البلاد وميزانيتها من أجل عقد مثل هذه الاجتماعات، وإذا انعقدت فهي في الغالب صورية شكلية تفتقر إلى عنصر الصفاء وحسن التية، والإخاء المهيمن على الناس في اجتماعاتهم الإسلامية، ولا تؤدي بالتالي إلى النتائج المثمرة التي تؤدي إليها اجتماعاتنا الإسلامية.

وضع الإسلام حوافر ودوافع باطنية تجعل الذهاب إلى الحج من أعلى أمانى الحياة، وتحمل المرء تلقائياً إلى حضور الجماعة والجمعة والعيد بكل سرور

ص: ٦

وبهجة. فما علينا إلا أن نعتبر هذه الاجتماعات فرصاً ذهبية لخدمة المبدأ والعقيدة؛ لنبين فيها العقائد والأحكام والأنظمة على رؤوس الأشهاد وفي أكبر عدد من الناس.

علينا أن نستثمر موسم الحجّ ونجني منه أطيب الثمار في الدعوة إلى الوحدة والدعوة إلى تحكيم الإسلام في الناس كافة، علينا أن نبحت مشاكلنا ونستمدّ حلولها من الإسلام. علينا أن نسعى لتحرير فلسطين وغيرها.

فالمسلمون الأوائل كانوا يجنون من جماعاتهم وجمعاتهم ومواقف حجّهم أحسن الثمار» (١).

الهوامش:

### الحجّ في احاديث الامام الفارسي

١-١ من محاضرات الإمام في منفاه بالنجف الأشرف عام ١٣٩٨ هـ.

ص: ٧

الحجّ في أحاديث الإمام الخامنئي

(مدّظله العالى)

قال الله الحكيم: إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (الانبيا: ٩٢)

يعود مرة أخرى موسم الحج، و يعود معه المشهد الاستعراضى العظيم المدهش المفعم بالحركة والنشاط فى قاعدة الوحي والنبوة. أمواج بشرية هادرة من الشعوب الاسلامية تتحرك من كل حدب و صوب؛ لتصب فى البحر الكبير، ولتجسد تعايش الأمة الواحدة تحت لواء التوحيد. مشاعر مترابطة تجمع هذه الكتل البشرية، تفصح عن آمال هذه الأمة الاسلامية العظيمة وآلامها وتطلعاتها وقدراتها. ساحه الحج تستضيف الآن أناساً من ايران و العراق، من فلسطين و لبنان، من شبه القارة و شمال أفريقيا، من تركيا و البوسنة، و من أرجاء آسيا و اوروبا. هذه الأفئدة المشتاقة تستطيع أن تتحدث عما تحمله قلوب الأمة الاسلامية، و إنما الحج من أجل هذا التقارب و التجاوب بين المسلمين من جميع أرجاء العالم.

الرباط المقدس الذى يشدّ كلّ هذه القلوب هو نفسه النداء الذى انطلق لأول مرّة من هذه الأرض، و ملأ الخافقين طولاً و عرضاً و امتدّ على كل مساحة التاريخ ..

ص: ٨

إنه نداء التوحيد والوحدة، توحيد الله ووحدة الأمة. التوحيد: رفض ألوهية الطواغيت والمستكبرين و جبايرة الثروة والقوة. الوحدة: مظهر عزّة المسلمين وقدرتهم ...

العالم الاسلامي يحسّ بهبوب نسيم الصحوة الاسلامية على وجهه المرهق الملتهب. و يرى مظاهر ذلك في كل بقاع العالم الاسلامي خاصة في ايران العزّة والجهاد، و كذلك في فلسطين و لبنان. نور الأمل يملأ قلوب الشباب في كل مكان، و طلاسّم تحكّم الغرب وإهانتة وتحقيره للشعوب قد انفضّت. وهذه الفرصة لم تتوفر مجاناً، بل بتضحية آلاف الأرواح الطاهرة على هذا الطريق. وما نستقبله من درب هو أيضاً صعب طويل، لكنه مفعم باليقين وخالٍ من أي شك و ترديد.

الشعب الفلسطيني أخذ على عاتقه اليوم السهم الأكبر من مسؤولية شقّ هذا الطريق والسير عليه. وعلى الجميع أن يعاضدوا هذا الشعب المظلوم و الشجاع والمتيقظ. الشعوب الأخرى تستطيع بمناصرتها الشعب الفلسطيني البطل؛ أن تفي بسهمها في مواصلة هذا الطريق. العدو المستكبر الذي يرى في الصحوة الاسلامية تهديداً لأطماعه و مصالحه العدوانية، عمد إلى أهم ما في يده من سلاح لمواجهة هذا المدّ المتصاعد، وهو سلاح الحرب النفسية: بثّ اليأس، الاستهانة بالهوية، استعراض العضلات، و سيشهد المستقبل ممارسة آلاف الأدوات والأساليب الاعلامية الأخرى .. كلّ ذلك من أجل بثّ اليأس في قلوب المسلمين من مستقبلهم، و بالتالي دعوتهم إلى مستقبل منسجم مع أهدافه الخبيثة. هذه الحرب الثقافية والنفسية منذ بداية عصر الاستعمار حتى الآن كانت أمضى أسلحة الغرب في فرض سيطرته على البلدان الاسلامية.

وكانت هذه السهام السامة تستهدف بالدرجة الاولى النخبات والمثقفين؛ ثم سائر الجماهير. ومواجهة هذه الدسيسة إنما يكون بالإعراض عن ثقافة الغرب المتهكّمة المفروضة.

ص: ٩

الثقافة الغربية يجب غربلتها حتى يؤخذ منها ما كان مفيداً، و يلفظ من الفكر والعمل ما كان منها مضرّاً و مخرباً و مفسداً. والحكم في هذه الغرلة الكبرى الثقافة الاسلاميه و ما يقدمه القرآن والسنة من فكر معطاء وضاء و موجه. هذا فصل أساسى من النضال الشامل الواعد الذى ينهض به علماء الدين والمثقفون والسياسيون المخلصون فى جميع أرجاء العالم. على أمل أن يستطيع حج هذا العام ترسيخ و تقوية عزم الجميع على مواصلة هذا الطريق المبارك الكريم (١).  
الهوامش:

### مناسك الحج لصاحب المعالم

١-١- من نداء سماحة آية الله الخامنئى مدّظله العالى لحجاج بيت الله الحرام، عام ١٤٢٢ هـ.

ص: ١٠

مناسك الحج لصاحب المعالم

تأليف: جمال الدين العاملي

تحقيق: هادي القيسي

ترجمة المؤلف (١)

اسمه ونسبه: الشيخ جمال الدين أبو منصور الحسن بن - الشهيد الثاني - الشيخ زين الدين بن علي بن أحمد العاملي الجبعي قدس سره. مولده ونشأته:

ولد بجُبع في السابع والعشرين من شهر رمضان سنة تسع وخمسين وتسعمائة للهجرة، وعاش مدة قصيرة مع والده - وقد وقع الخلاف في هذه المدة ولسنا في صدد تحديدها فأقلها أربع سنين وأكثرها اثنتا عشرة سنة - وكان تولى تربيته وتعليمه تلميذ والده السيد علي الصائغ، فدرس عليه وعلى السيد علي بن أبي الحسن وهو والد السيد محمّد صاحب المدارك، والسيد محمد كان زميل الشيخ المترجم له في تمام مراحل الدراسة. واستفادا من السيد الصائغ أكثر العلوم التي استفادها من الشهيد رحمه الله من معقول ومنقول وفروع واصول وغيرها، ولمّا انتقل السيد علي إلى رحمة ربّه، ورد الفاضل المولى عبد الله اليزدي تلك البلاد فقراء عليه في المنطق والمطول وغيرهما من الكتب. ثم بعد مدة هاجرا إلى العراق ودرسا على

١-١ أمل الآمل ١: ٥٧. أعيان الشيعة ٥: ٩٢. الدر المنثور ٢: ١٩٩. رياض العلماء ١: ٢٢٥. لؤلؤة البحرين: ٤٠. قصص العلماء: ٣٠٢.

ص: ١١

المولى الشيخ أحمد- المعروف بالمقدس الأردبيلي - فقال له: نحن ما يمكننا الإقامة مدّة طويلة، ونريد أن نقرأ على وجه نذكره إن رأيت ذلك صلاحاً، قال: ما هو؟

قال: نحن نطالع وكل ما نفهمه ما نحتاج معه إلى تقرير، بل نقرأ العبارة ولا نقف، وما يحتاج إلى البحث والتقرير تتكلم فيه، فأعجبه ذلك وقرأ عنده عدّة كتب، فى الفقه والاصول والمنطق والكلام وغيرها. وكان رحمه الله يكتب شرحاً على الإرشاد ويعطيها أجزاءً منه ويقول: انظروا فى عبارته وأصلحوا منها ما شئتم، فإننى أعلم أن بعض عباراته غير فصيح. «فانظر إلى حسن هذه النفس الشريفة». وكان البعض يهزأ بطريقة دراستهما، وكان الشيخ يقول: عن قريب يرجعون وتأتيكم مؤلفاتهما. وكانت إقامتهما مدّة قليلة، قيل: إنهما ستان، ولما رجعا صنّف الشيخ حسن المعالم والمنتقى، والسيد محمد المدارك، ووصل بعض ذلك إلى العراق قبل وفاة المملا أحمد الأردبيلي رحمه الله.

أقوال العلماء فيه

الحزّ العاملى فى أمل الآمل: كان عالماً فاضلاً عاملاً متبحراً محققاً ثقةً، فقيهاً وجيهاً، نبيهاً محدثاً جامعاً للفنون، أديباً شاعراً زاهداً عابداً ورعاً. جليل القدر عظيم الشأن كثير المحاسن، وحيد دهره، أعرف أهل زمانه بالفقه والحديث والرجال،... كان حسن الخط جيد الضبط، عجيب الاستحضار حافظاً للرجال والأخبار والأشعار (١)...

الأفندى فى رياض العلماء: الفقيه الجليل، والمحدث الاصولى الكامل النبيل المعروف بصاحب المعالم، ذو النفس الطاهرة والفضل الجامع والمكارم الباهرة، هو مصداق «الولد سرّ أبيه» بل هو أعلم، ومظهر المثل السائر «ومن يشابه أبه فما ظلم» كان رضى الله عنه علامة عصره، وفهامة دهره، وهو أبوه وجدّه الأعلى وجدّه الأدنى وابنه وسبطه «قدّس الله أرواحهم» كلّهم من أعظم العلماء (٢).

السيد مصطفى التفرشى فى نقد الرجال: وجه من وجوه أصحابنا، ثقة، عين،

١- ١ أمل الآمل ١: ٥٧ و ٥٩.

٢- ٢ رياض العلماء ١: ٢٢٥.



ص: ١٢

صحيح الحديث، ثبت واضح الطريقة، نقي الكلام، جيد التصانيف (١).

السيد على خان المدني في سلافة العصر: شيخ المشايخ الجلة، ورئيس المذهب والملء، الواضح الطريق والسين، الموضح الفروض والسُنن، يَم العلم الذي يفيد ويفيض، وخضم الفضل الذي لا ينضب ولا يغيض، المحقق الذي لا يراغ، والمدقق الذي راق فضله وراغ، المتفنن في جميع الفنون، والمفخر به الآباء، والبنون، قام مقام والده في تمهيد قواعد الشرائع، وشرح الصدور بتصنيفه الرائق وتأليفه الرائع، فشر للفضائل حلماً مطرزة الأكمام، وأماط عن مباسم أزهار العلوم لثام الأكمام، وشنف الأسماع بفرائد الفوائد، وعاد على الطلّاب بالصّلات والعوائد، وأما الأدب فهو روضة الأريض، ومالك زمام السجع منه والقريض، والناظم لقلائده وعقوده، والمميز عروضه من نقوده،.... (٢).

البحراني في اللؤلؤة: أما صاحب المدارك وخاله المحقق المدقق ففضلهما أشهر من أن ينكر، ولاسيما الشيخ حسن فإنه كان فاضلاً محققاً، وكان ينكر كثرة التصنيف مع عدم تحريره، ويذل جهده في تحقيق ما ألفه وتحريره وهو حقّ حقيق بالاتباع... وهو أجود تصنيفاً وأحسن تحقيقاً وتأليفاً ممن تقدّمه (٣).

أساتذته ومشايخه في الرواية (٤)

١- السيد على الصائغ.

٢- السيد على بن أبي الحسن والد السيد محمّد صاحب المدارك.

٣- الشيخ حسين بن عبد الصمد العاملى والد الشيخ البهائى.

٤- الشيخ أحمد بن سليمان العاملى النباطى. وهؤلاء الأربعة من تلاميذ الشهيد الثانى رحمه الله.

٥- مولانا الشيخ أحمد الأردبيلى. المعروف ب (المقدس الأردبيلى).

٦- مولانا الشيخ عبدالله الزيدى.

٧- ونقل أنه مجاز من والده الشهيد رحمه الله.

١- ١ نقد الرجال ١: ٢٥.

٢- ٢ سلافة العصر: ٣٠٤.

٣- ٣ لؤلؤة البحرين: ٤٤-٤٥.

٤- ٤ الأعيان ٥: ٩٦، أمل الآمل ١: ٥٨. لؤلؤة البحرين: ٤٨.

ص: ١٣

تلامذته والراوون عنه (١):

- ١- الشيخ نجيب الدين علي بن محمد بن مكّي العاملي الجبيلي.
  - ٢- الشيخ عبد اللطيف بن محيي الدين العاملي.
  - ٣- الشيخ عبد السلام بن محمّد الحرّ العاملي جدّ صاحب الوسائل لأُمّه وعمّ أبيه.
  - ٤- السيد نجم الدين بن محمد الموسوي السكيكي.
  - ٥- ولده الشيخ محمد والد الشيخ علي صاحب الدرّ المنثور.
  - ٦- ولده الشيخ عليّ.
- وفاته ومدفنه (٢):

انتقل إلى جوار ربّه في شهر محرّم الحرام سنة ١٠١١ هـ، فيكون سنّه اثنتين وخمسين سنةً وشيئاً. لم يختلف أحد في سنّه الوفاة، لكن حفيده لم يتعرّض لشهر الوفاة، مع أنّه هو الذي حدّد سنّه يوم توفّي فيكون مقارناً لما ذكره السيد الأمين والحرّ العاملي من أنّ وفاته في محرّم الحرام، ودفن في بلدة جُبع، وقبره معروف ومشهور.

مصنّفاته:

- ١- منتقى الجمان في الأحاديث الصحاح والحسان، خرج منه كتب العبادات ولم يتمّه.
- ٢- معالم الدين وملاذ المجتهدين، خرج منه مقدّمة في الاصول وبعض كتاب الطهارة ولم يتمّه.
- ٣- كتاب مناسك الحجّ وهو الذي بين أيدينا.
- ٤- الرسالة الاثنا عشرية في الطهارة والصلاة، وقال بعض: إنّها في الصلاة.
- ٥- أجوبة المسائل المدنيات الاولى والثانية والثالثة، سأله عنها السيد محمد ابن جويبر.

١- ١ الأعيان ٥: ٩٦، أمل الآمل ١: ٥٨. لؤلؤة البحرين: ٤٨.

٢- ٢ الدرّ المنثور ٢: ٢٠٣، الأعيان ٥: ٩٢، أمل الآمل ١: ٦٣.

ص: ١٤

- ٦- التحرير الطاووسى، وهو تهذيب كتاب حلّ الإشكال فى معرفة الرجال لابن طاووس.
- ٧- شرح على ألقىة الشهيد الأول. على ما وجد بخط الفاضل الهندى.
- ٨- رسالة صغيرة فى عدم جواز تقليد الميت.
- ٩- حواش على الكافى والفقيه والتهذيبين.
- ١٠- حواش على شرح اللمعة لوالده غير مدونة.
- ١١- حاشية على مختلف العلماء مبسوطه فى مجلد.
- ١٢- مشكاة القول السديد فى تحقيق معنى الاجتهاد والتقليد.
- ١٣- ديوان شعر جمعه تلميذه الشيخ نجيب الدين على بن محمد بن مكى العاملى.
- ١٤- إجازة كبيرة معروفة أجاز بها السيد نجم الدين ابن السيد محمد الحسينى العاملى، وولدى المترجم الشيخ محمد والشيخ على، فيها فوائد كثيرة وتحقيقات لا توجد فى غيرها.
- ١٥- كتاب الإجازات وهو غير الإجازة الكبيرة.
- ١٦- ترتيب مشيخة من لا يحضره الفقيه.
- ١٧- وقد نسب إليه الشيخ عبد النبى الكاظمى العاملى فى تكملة الرجال كتاب شرح اعتقادات الصدوق.

فى رحاب الكتاب

أهميته:

لقد صنّف الكثير من العلماء كتباً فى أحكام الحجّ والعمرة، ولكلّ ميزة يمتاز بها عن غيره فى المطالب العلمى، وما يمتاز به هذا الكتاب هو أنّ الشيخ المترجم بيّن بعض مبانيه الفقهيّة المهمّة فيه. وقد ذكرها فى طيّ أبحاثه ونحن نذكرها بالترتيب:

ص: ١٥

منها: ما ذكره في النية حيث قال: طال في بيانها كلام المتأخرين وخلا منه حديث أهل البيت عليهم السلام رأساً، وكذلك قدماء فقهاءهم، الذين لم يتجاوزوا المأثور عنهم فيما دونه من الأحكام الشرعية، ولم يحتاجوا إلى مضاهاة أهل الخلاف في توليد المسائل. ومنها: قال عند ذكر مواقيت الإحرام: ومن كان منزله دون هذه المواقيت إلى مكة أحرم منه. والمعروف في كلام الأصحاب شمول هذا الحكم لأهل مكة فيكون إحرامهم بالحج من منازلهم، مع أن النص الوارد بالحكم لا يتناولهم، وفي حديثين من مشهورى الصحيح ما يخالف ذلك:

أحدهما: ما روى عن عبد الرحمن بن الحجاج عن أبي عبد الله عليه السلام قلت له: إنى أريد الجوار فكيف أصنع؟ قال: إذا رأيت هلال ذى الحجة فأخرج إلى الجعرانة فأحرم منها بالحج.

الثانى: عن سالم الحنط قال: كنت مجاوراً بمكة فسألت أبا عبد الله عليه السلام من أين أحرم بالحج؟ قال: من حيث أحرم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الجعرانة.

والعجب من عدم التفات الأصحاب إلى هذين الحديثين مع انتفاء المنافى لهما من الأخبار وصحة طريقهما.

ومنها: عند ذكر الطواف: ثم يقف بإزاء الحجر الأسود مستقبلاً له جاعلاً أول جزء منه ممّا يلي الركن اليماني، محاذياً لأول كتفه الأيسر، ولو ظناً على المعروف في كلام متأخرى الأصحاب، ولا بأس بالتزام ما ذكره خروجاً من خلافهم، فأحاديث أئمتنا عليهم السلام خالية عن التعرض لهذا التحرير، ظاهرة في نفي المضايقة بهذا المقدار. ثم قال: ويراعى في آخر الشوط السابع الختم بما بدأ به، فيحاذى بأول بدنه أول جزء من الحجر على نحو ما ذكر في الابتداء. والحال هاهنا نظير ما قلنا هناك من عدم الدليل على اعتبار هذا التضييق، لكنّه المعروف في كلامهم، ولا بأس بوفاقهم، ولم يتعرض للزوم الانحراف عند فتح الحجر أصلاً ممّا ضيق به

ص: ١٦

المتأخرون بدون دليل.

ومنها: ما ذكره في أركان الحج... وأراد من الركن ما يبطل الحج بفواته عمداً لا سهواً، واستثنى منه فوات الموقفين، فجعله فيه بمعنى ما يبطل عمداً وسهواً. ولا- ضرورة إلى هذا التكلف مع أن الكلام لا- يخلو من نظر. وستعلم الحال من تحقيق الحكمين فيهما عند الانتهاء إلى محلّه. ويظهر أن الوجه قصر الاستثناء على الوقوف بالمشعر.

نسبته وتسميته:

لم يتردد أحد ممن ترجم له في نسبة الكتاب إليه، فقد تعرّض السيد الأمين في الأعيان لفقرات منه. وقال البحّاث الكبير الشيخ آقابزرگ الطهراني في الذريعة:

مناسك الحجّ: لصاحب المعالم الشيخ جمال الدين أبي منصور الحسن بن زين الدين الشهيد الثاني المتوفى ١٠١١ هـ، ابتدأ فيه بعد عدّة فصول في فضل الحجّ وثوابه وآداب السفر للحجّ بأعمال المدينة، قال بعد عدّة فصول: [فصل وحيث كان من توفيق الله سبحانه في طريقنا إلى الحجّ الابتداء بدخول مدينة سيّدنا رسول الله صلى الله عليه وآله فلا بأس بتقديم القول في فضل زيارته وبيان وظائفها، وسائر ما يستحبّ من الأعمال بالمدينة، وإن كان المتعارف بين الأصحاب تأخير الكلام في (١)].

وأما تسميته: فكلّ من عدّ مصنّفات الشيخ عدّها منها (مناسك الحج) ولم ينسب له كتاب في الحج بغير هذا الاسم سوى ما أورده الطهراني رحمه الله في الذريعة ٢٢: ٢٥٩ آخر الصحيفة حيث قال: «ورأيت نسخة كتابتها سنة ١٢٢١ وسمّاه على ظهرها (تلخيص المرام في فقه حجّ بيت الله الحرام) انتهى.

أقول: ولعلّ الوهم الذي حصل ممّا ذكر في مقدّمة الكتاب حيث قال رحمه الله:

«وبعد فهذه نبذة من الكلام في فقه الحجّ إلى بيت الله الحرام» وأنت تعلم أن هذا ليس في مقام التسمية، ثمّ إنّ هذا الكاتب على النسخة من أين أتى بالجملة الأولى

ص: ١٧

وهي تلخيص المرام، والذي يهون الخطب أن هذه التسمية لم تنقل عن أحد من أصحاب التراجم، وإنما وجدت مكتوبة على نسخة متأخرة التاريخ عن غيرها، ومع هذا فقد عملنا بالمشهور.

نسخه:

نذكر ما عثرنا عليه من النسخ:

- ١- نسخة في الخزانة الرضوية الفقرة الأولى من مجموعة رقم ١٩٧٠٣ كتبت سنة ١٠١٤ هـ، لم تفهرس إلى الآن.
  - ٢- نسخة في مكتبة آية الله السيد المرعشي النجفي قدس سره الفقرة السابعة من مجموعة ٩٨٩٩، كتبت سنة ١٠٢٧ هـ، ذكرت في فهرسها ٢٥: ١٩٤.
  - ٣- نسخة في مكتبة آية الله السيد المرعشي النجفي قدس سره الفقرة الرابعة من مجموعة رقم ٦٣٥٧ كتبت سنة ١٠٤٨ هـ، ذكرت في فهرسها ١٦: ٣٢٢.
  - ٤- نسخة في مكتبة آية الله السيد المرعشي النجفي قدس سره الفقرة الأولى من مجموعة ١٦٩١ كتبت سنة ١٣٥٩ هـ، ذكرت في فهرسها ٥: ٨٥.
  - ٥- نسخة في مكتبة الإمام الرضا عليه السلام ضمن مجموعة ١: ٩٥٩.
  - ٦- نسخة في مكتبة السيد محسن الأمين العاملي، ذكرت في الأعيان ٥: ٩٦.
  - ٧- نسخة كتبت سنة ١٢٢١ هـ ذكر الطهراني أنه رآها. انظر الذريعة ٢٢: ٢٥٩، وهي التي قلنا: إن اسمها (تلخيص المرام في فقه حج بيت الله الحرام).
  - ٨- نسخة في خزائن الميرزا محمد الطهراني ويخطه. ذكرت في الذريعة ٢٢: ٢٥٩.
  - ٩- نسخة في مكتبة السيد حسن الصدر عليها تملك صاحب المقاييس. ذكرت في الذريعة ٢٢: ٢٥٩.
- النسخ المعتمدة في التحقيق:
- ١- نسخة الأصل المحفوظة في الخزانة الرضوية ضمن مجموعة

ص: ١٨

رقم ١: ١٩٧٠٣، بعد لم تفهرس. جاء في أولها بخط السيد الصفائي: لا يخفى أن السطور المشتملة على فهرست هذه المجموعة من شريف خط نابغة زمانه واعجوبة أوانه علامة دهره وزين عصره، الشيخ الجليل والثقة النبيل، العديم النضير شيخ الإسلام والمسلمين الشيخ بهاء الملة والدنيا والدين، محمد العاملي، بهر بزمانه وعلى في أعلى جنانه، وهذه الجهة قد عدت في نفائس هذه النسخة، فيلزم أداء حقه وعدم رخص مهره حفظاً للجهات الراجعة إلى المعارف والديانة الإسلامية، ونشكر الله على هذه النعمة...

وجاء في آخرها:... في شهر ربيع الثاني من شهور سنة ١٠١٤ في حوالى نخجوان. وفي هامشها: بلغ قبلاً. كتبت بخط النسخ حسنة الخط كاملة تحتوى على ٧٢ ورقة بقياس ١٢/٥ \* ١٨/٥ سم.

٢- نسخة (م) في مكتبة آية الله السيد المرعشي النجفي قدس سره ضمن مجموعة رقم:

٧/ ٩٨٩٩، ذكرت في فهرسها ٢٥/ ١٩٤. جاء في آخرها: بلغ قبلاً والله الحمد رب العالمين. وهذا ما يشعر بمقابلتها والاعتناء بها، كتبت بخط النسخ جيدة كاملة عديمة الأخطاء تمت كتابتها سنة ١٠٢٧ هـ، تحتوى على ٥٥ ورقة، بقياس ١٦/٥ \* ١٠ سم.

٣- نسخة (ن): في مكتبة آية الله السيد المرعشي النجفي قدس سره ضمن مجموعة رقم: ٤/ ٦٣٥٧، ذكرت في فهرسها ١٦/ ٣١٩. ناقصة الأول بمقدار عدة أسطر إلى قوله: «بالبيت خرج من ذنوبه»....

جاء في آخرها: نقل هذه المناسك من نسخة لا تخلو من الصححة، فرغت من تسويده بعون الله وتأييده في أواسط شهر صفر ختم بالخير والظفر سنة الثاني والأربعين بعد الألف (١٠٤٢) من هجرة سيد المرسلين عليه وآله المعصومين ألف ألف صلاة من الله والملائكة والناس أجمعين. وأنا العبد المفتقر إلى الله الغنى الحافظ ابن محمد صابر الطبسى الفهناجي، مجموعة الوعظ، عفا الله عنهما وغفر ذنوبهما

ص: ١٩

وستر عيوبهما بحق محمد وآله، انتهى. يظهر على صفحاتها توضيحات من الصحاح للجوهري والنهاية للشيخ. وتمتاز عن باقي النسخ بجعل عناوين للفصول كما ستلاحظ، ولست أدري من المصنّف هي أم من الناسخ؟  
تحتوي النسخة على ١٠٩ أوراق، بقياس ١٩\*١٣ سم.

٤- نسخة (ص): في مكتبة آية الله السيد المرعشي النجفي قدس سره ضمن مجموعة رقم: ١ / ١٦٩١، ذكرت في فهرسها ٨٥ / ٥. في الورقة الاولى تملك السيد مصطفى الحسيني الصفائي الخوانساري.

جاء في آخرها: وحزّره الأحقر العاصي، أقلّ الخلائق حسن على في ١٤ شعبان المعظم ١٣٥٩ تحتوي النسخة على ٥٠ ورقة بقياس ٥ / ١٥\*١٢ سم.

كتبت بخط النسخ جيدة كاملة نظيفة مصحّحة لا تخلو من بعض الأغلط والنواقص.  
منهجية التحقيق:

بما أنّ النسخة الاولى هي أقرب النسخ إلى عصر المؤلّف قدس سره، وبما فيها من الميزات المذكورة آنفاً، جعلتها الأصل وعرضتها على بقيّة النسخ الاخرى مقابلةً وتصحيحاً، مع مراعاة القواعد المتعارفة لتحقيق النصوص القديمة، فكان عملي كالتالي:

١- مقابلة النسخ والإشارة إلى الاختلاف في الهامش وإن كان نادراً.

٢- استخراج الأقوال الفقهية من المصادر التي أشار إليها المصنّف، وقد ينقل بعض الأحيان من دون تسمية المصدر بل يكتفي بقوله: بعض الأصحاب، أو المتأخرين عنهم.

٣- استخراج الروايات الواردة من مصادرها الامّ.

٤- تقطيع النص إلى فقرات حسب ما تعارفت عليه قواعد التحقيق.

٥- تقويم النصّ، الذي هو عمدة التحقيق.



ص: ٢٠

وبما أن هذا الكتاب سوف ينشر ضمن مجلّة ميقات الحجّ، فلا يسع المجال لنشره دفعةً واحدة، فسوف نقدّمه للقراء الكرام على دفعات ثلاث متوالية إن شاء الله.

والحمد لله الذي وفقنا لهذا العمل المقدّس وهو إحياء أثر من آثار علمائنا الأبرار «قدّس الله أسرارهم». الذين لم يألوا جهداً في صيانة المذهب الشريف، فحرّياً بنا أن نعيد مجدهم بإحياء تراثهم واستنقاذه من أيدي الزمان الجائرة.

وحيثما قرأت عبارة لحفيد المترجم، جعلتني أتشجّع لمواصله هذا الطريق الصعب وفاءً لسلفنا الصالح حيث يقول (في الدرّ المنثور ٢: ٢٠٣): «جزى الله عنّا سوء الجزاء من حرماننا من الكتب التي كانت عندنا اجتمعت في زمن الشيخ زين الدين والشيخ حسن ووالدي رحمهم الله» وأضيف إليها كتب الشيخ محيي الدين «رحمه الله»، وقد وقع عليها الفتور غير مرّة، منها قريب ألف كتاب احترقت وأنا إذ ذاك ابن سبع سنين أو ثمان، حرقها أهل البغي، ولمّا سافرت إلى العراق كان الباقي لنا في الجبل ودمشق وغيرهما ما يقرب من ألف كتاب وأكثرها منه ما أخذه الناس ومنه ما تلف من النقل والوضع تحت الأرض، والباقي نحو مائة كتاب وصلت إليّ بعد السعي التام...» وغيره من الكلام المحرق للقلب، وهذا ما يجعلنا نحسّ بالمسؤولية أكثر فأكثر.

وأخيراً، أتقدّم بخالص شكرى إلى كلّ من ساعد وساهم وشجّع على إخراج هذا الكتاب، وأخصّ بالذكر منهم إدارة المكتبة العامّة للسيد المرعشى النجفى رحمه الله حيث وضعت تحت اختيارى النسخ الثلاثة وبكلّ لطف وعناية؛ والمجلّة التي آثرت نشره على صفحاتها كي تكون سهيمه في إحيائه. فجزى الله الجميع خير جزاء المحسنين، والحمد لله أولاً وآخراً.

ص: ٢١

نموذج من الصفحة الأولى والأخيرة من نسخة الأصل

ص: ٢٢

نموذج من صفحات نسخة (ن)



ص: ٢٤

بسم الله الرحمن الرحيم

مناسك الحج

الحمد لله الذي فرض حج البيت على من استطاع إليه سبيلاً، وأعدّ لمن أطاع أمره وحمل مشاق هذا العمل نفسه أجراً عظيماً وثواباً جزيلاً، ودعا الموسرين إلى معاودة الحج في كل خمس سنين تعظيماً لشأن البيت الشريف وتبجيلاً.

والصلاة والسلام على محمد الذي أرسله بالحق بشيراً ونذيراً، وجعله على كل خير دليلاً، وعلى آله السادة الأبرار الذين شهدت بكمالهم الآيات والآثار إجمالاً وتفصيلاً.

وبعد، فهذه نبذة من الكلام في فقه الحج إلى بيت الله الحرام، أجتب ياملانها على جناح السفر التماس جماعة من الاخوان، وجعلتها تذكرة لى عند المنتفعين بها من أهل الإيمان.

روى معاوية بن عمّار في الصحيح عن أبي عبد الله عليه السلام، عن أبيه، عن آبائه عليهم السلام: أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لقيه أعرابي، فقال: يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إنى خرجت أريد الحج ففاتني (١) وأنا رجل ممّيل (٢)، فمرنى أن أصنع فى مالى ما أبلغ به مثل أجر الحاج، قال: «فالتفت إليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال له: انظر إلى أبى قبيس، فلو أن أباً قبيس لك ذهبه حمراء أنفقتة فى سبيل الله ما بلغت ما يبلغ الحاج، ثم قال: إن الحاج إذا أخذ فى جهازه لم يرفع شيئاً ولم يضعه إلّا كتب الله له عشر حسنات، ومحا عنه عشر سيئات، ورفع له عشر درجات، فإذا ركب بعيره لم يرفع حُفّاً ولم يضعه إلّا كتب له مثل ذلك، فإذا طاف (٣) بالبيت خرج من ذنوبه، فإذا سعى بين الصفا والمروة خرج من ذنوبه، فإذا وقف بعرفات خرج من ذنوبه، فإذا وقف بالمشعر

١- ١ فى الكافى: فعاقنى أى عاقنى عائق.

٢- ٢ الميّل: الرجل الكثير المال. القاموس المحيط ٤: ٧٠ مول.

٣- ٣ من البداية إلى هنا وقع نقص فى نسخة ن.

ص: ٢٥

خرج من ذنوبه، فإذا رمى الجمار خرج من ذنوبه، قال: فعَدَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كذا وكذا موقفاً إذا وقفها الحاجّ خرج من ذنوبه (١)، ثم قال: أتى لك أن تبلغ ما يبلغ الحاج؟ قال أبو عبد الله عليه السلام: ولا تكتب عليه الذنوب أربعة أشهر، وتكتب له الحسنات إلا أن يأتي بكبيره» (٢).

وروى معاوية بن عمّار في الصحيح أيضاً عنه عليه السلام، قال: «الحاج يصدرون على ثلاثة أصناف، فصنف يُعتقون من النار، وصنف يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، وصنف يحفظ في أهله وماله، فذلك أدنى ما يرجع به الحاج» (٣).  
وروى أيضاً في الصحيح عنه عليه السلام أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الحجّ والعمرة ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد» (٤).

وروى محمد بن مسلم في الصحيح عن أحدهما عليه السلام قال: «ودّ من في القبور لو أن له حجّة واحدة بالدنيا وما فيها» (٥).  
وروى عبد الله بن سنان في الصحيح أيضاً عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «من مات في طريق مكّة ذاهباً أو جائياً أمن من الفزع الأكبر يوم القيامة» (٦).

وروى الكليني في الصحيح عن داود بن أبي يزيد عن أبي عبد الله عليه السلام قال:  
«إذا أخذ الناس مواطنهم بمنى نادى منادٍ من قبل الله عزّ وجلّ إن أردتم أن أرضى فقد رضيت» (٧).  
وروى ذريح المحاربي في الصحيح عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «من مضت له خمس حجج ولم يغد إلى ربّه وهو موسر إنّه لمحروم» (٨).

## فصل

ينبغي لمن أراد السفر إلى الحجّ أن يؤثر الخروج يوم السبت أو الثلاثاء، ويرغب عن الاثنين والخميس، وإذا افتتح سفره بالصدقة خرج أيّ يوم شاء وإن كان يوم الأربعاء. رواه حمّاد بن عثمان في الصحيح عن أبي عبد الله عليه السلام (٩).  
وروى عبدالرحمن بن الحجّاج في الصحيح أيضاً عنه عليه السلام، أنه قال: «تصدّق

١-١ ورد في هامش نسختي الأصل و ص: «ربما يستشكل تكرار الخروج من الذنوب في هذا الحديث. ورُدّبأنّه مفروض فيمن تتخلل الذنوب بين أفعاله. ويفيد حكم غيره بالمفهوم. فإنّ استحقاق الذنب يدلّ على الموافقة على استحقاق غير الذنب، وإذا كان هذا النوع من الثواب ممتنعاً في حقّ غير المذنب فله من نوع آخر ما يساويه أو يزيد عليه. منه رحمه الله.

٢-٢ الوسائل ١١: ١١٣ باب ٤٢ من أبواب وجوب الحجّ وشرائطه حديث ١.

٣-٣ الوسائل ١١: ٩٣ باب ٣٨ من أبواب وجوب الحجّ وشرائطه حديث ٢، باختلاف يسير.

٤-٤ الوسائل ١١: ١٠٦ باب ٣٨ من أبواب وجوب الحجّ وشرائطه حديث ٤٣.

٥-٥ الفقيه ٢: ٢٢٦ باب فضائل الحجّ حديث ٢٢٥٣.

٦-٦ الوسائل ١١: ١٠٠ باب ٣٨ من أبواب وجوب الحجّ وشرائطه حديث ٢٠ وص ١٠٧ حديث ٤٦.

٧-٧ الكافي ٤: ٢٦٢ / ٤٢ باب فضل الحجّ والعمرة وثوابهما.

٨-٨ الكافي ٤: ٢٧٨ / ١ باب من لم يحجّ بين خمس سنين.

٩-٩ الوسائل ١١: ٣٧٥ باب ١٥ من أبواب آداب السفر حديث ٢.



ص: ٢٦

واخرج أى يوم شئت» (١).

وروى الكليني فى الصحيح عن صباح الحذاء، قال: سمعت موسى بن جعفر عليه السلام يقول: «لو كان الرجل منكم إذا أراد السفر، قام على باب داره وتلقا وجهه الذى يتوجه له، فقرأ فاتحة الكتاب أمامه وعن يمينه وعن شماله، وآية الكرسي أمامه وعن يمينه وعن شماله، ثم قال: اللهم احفظنى واحفظ ما معى، وسلمنى وسلّم ما معى، وبلغنى وبلغ ما معى ببلاغك الحسن»، لحفظه الله وحفظ ما معه، وسلّمه وسلّم ما معه، وبلغه وبلغ ما معه (٢).

وعن على بن الحكم عن مالك بن عطية عن أبى حمزة، قال: أتيت باب على بن الحسين عليه السلام فوافقتة حين خرج من الباب، فقال: «بسم الله آمنت بالله، وتوكلت على الله. ثم قال: يا أبا حمزة إن العبد إذا خرج من منزله عرض له شيطان، فإذا قال بسم الله، قال الملكان: كُفيت، فإذا قال: آمنتُ [بالله] (٣) قالوا: هُديت. فإذا قال:

توكلتُ على الله، قالوا: وُقيت. فيتنحى الشيطان، ويقول بعضهم لبعض: كيف لنا بمن هُدى وكُفى ووُقى...» (٤).

وبالإسناد وغيره عن أبى حمزة قال: رأيت أبا عبد الله عليه السلام يحرك شفتيه حين أراد أن يخرج وهو قائم على الباب، فقلت: إنى رأيتك تحرك شفتيك حين خرجت فهل قلت شيئاً؟ قال: «نعم إن الإنسان إذا خرج من منزله قال حين يريد أن يخرج: اللهم أكبر الله أكبر ثلاثاً، بالله أخرج وبالله أدخل وعلى الله أتوكل ثلاث مرات، اللهم افتح لى فى وجهى هذا بخير واختم لى بخير، ووَقنى شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها، إن ربي على صراط مستقيم. فإنه لا يزال فى ضمان الله عزوجل حتى يردّه إلى المكان الذى كان فيه» (٥).

وروى عمر بن يزيد فى الحسن عن أبى عبد الله عليه السلام أنه قال: «من قرأ قل هو الله أحد حين يخرج من منزله عشر مرات، لم يزل فى حفظ الله عزوجل وكلاءته حتى يرجع إلى منزله» (٦).

١-١ المصدر السابق حديث ١.

٢-٢ الكافى ٤: ٢٨٣ / ١ باب القول إذا خرج الرجل من بيته، وفيه زيادة: قال: ثم قال: يا صباح أما رأيت الرجل يحفظ ولا يحفظ ما معه ويسلم ولا يسلم ما معه ويبلغ ولا يبلغ ما معه؟ قلت: بلى جعلت فداك.

٣-٣ الزيادة من الأصل والمصدر.

٤-٤ الكافى ٢: ٥٤١ / ٢ باب الدعاء إذا خرج الإنسان من منزله.

٥-٥ المصدر السابق حديث ١. باختلاف يسير.

٦-٦ الكافى ٢: ٥٤٣ / ٨ باب الدعاء إذا خرج الإنسان من منزله.



ص: ٢٧

وروى معاوية بن عمّار في الحسن أيضاً عنه عليه السلام قال: «إذا خرجت من بيتك تريد الحج والعمرة إن شاء الله فادع دعاء الفرج، وهو: لا- إله إلا الله الحليم الكريم، لا- إله إلا الله العلي العظيم، سبحان الله ربّ السماوات السبع، وربّ الأرضين السبع، وربّ العرش العظيم، والحمد لله ربّ العالمين. ثم قل: اللهم كن لي جاراً من كلّ جبار عنيد، ومن كلّ شيطان رجيم. ثم قل: بسم الله دخلت، وبسم الله خرجت، وفي سبيل الله، اللهم إنّي أقدم بين يدي نسياني وعجلتي بسم الله وما شاء الله في سفرى هذا، ذكرته أو نسيته. اللهم أنت المستعان على الامور كلّها، وأنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل. اللهم هوّن علينا سفرنا واطوّل لنا الأرض، وسيرنا فيها بطاعتك وطاعة رسولك. اللهم أصلح لنا ظهرنا وبارك لنا فيما رزقتنا وقنا عذاب النار. اللهم إنّي أعوذ بك من وعاء السفر، وكآبة المنقلب، وسوء المنظر، في الأهل والمال والولد. اللهم أنت عضدى وناصرى، بك أحلّ وبك أسير. اللهم إنّي أسألك في سفرى هذا السرور والعمل بما يرضيك عنى. اللهم اقطع عنى بعده ومشقته، واصبحنى فيه واخلفنى فى أهلى بخير، لا حول ولا قوة إلا بالله. اللهم إنى عبدك وهذا حملانك، والوجه وجهك والسفر إليك، وقد اطلعت على ما لم يطلع عليه أحد، فاجعل سفرى هذا كفارة لما قبله من ذنوبى، وكن عوناً لى عليه، واكفى وعته ومشقته، ولقنى من القول والعمل رضاك، فإنما أنا عبدك وبك ولك.

فإذا جعلت رجلك فى الركاب فقل: بسم الله الرحمان الرحيم، بسم الله والله أكبر.

فإذا استويت على راحلتك واستوى بك محملك، فقل: الحمد لله الذى هدانا للإسلام [وعلمنا القرآن]، ومنّ علينا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، سبحان الله، سبحان الذى سخّر لنا هذا وما كنّا له مقرنين، وإنا إلى ربّنا لمنقلبون، والحمد لله ربّ العالمين. اللهم أنت الحامل على الظهر، والمستعان على الأمر، اللهم بلّغنا بلاغاً إلى خير، بلاغاً

ص: ٢٨

يبلغ إلى مغفرتك ورضوانك. اللهم لا طير إلا طيرك (١) ولا خير إلا خيرك ولا حافظ غيرك (٢).

فصل

وينبغي للمسافر أن يتحرى السير في آخر الليل فإن الأرض تطوى في ذلك الوقت. رواه جميل بن دراج وحماد بن عثمان في الصحيح عن أبي عبد الله عليه السلام (٣).

وإذا وجد في طريقه ما يتشاءم به من نحو الغراب الناقع والذئب العاوى والظبي السانح فليقل: اعتصمت بك يارب من شر ما أجد في نفسي، فاعصمني من ذلك، فإنه يعصم منه. رواه سليمان الجعفرى في الصحيح عن الكاظم عليه السلام (٤).

ويستحب له أن يسبح الله كلما هبط، ويكبره إذا صعد، فقد روى معاوية بن عمارة في الصحيح عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله يفعل (٥).

وروى أبو عبيدة في الصحيح، عن أحدهما عليهما السلام أنه قال: «إذا كنت في سفر فقل: اللهم اجعل مسيرى عبداً وصمتى تفكراً وكلامى ذكراً» (٦).

وروى الصدوق رحمه الله في كتاب من لا يحضره الفقيه بطريقه الصحيح، عن محمد بن خالد البرقى، عن ابن أبي عمير، عن صفوان الجمال، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال:

«كان أبي عليه السلام يقول: ما يعبؤ بمن يؤم هذا البيت إذا لم يكن فيه ثلاث خصال: خلُق يخالقه به من صحبه، وحلم يملك به غضبه، وورع يحجزه عن محارم الله عز وجل» (٧).

وروى الكليني في الصحيح، عن علي بن الحكم، عن أبي أيوب الخزاز، عن محمد بن مسلم، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «ما يعبؤ بمن يسلك هذا الطريق إذا لم يكن فيه ثلاث خصال: ورع يحجزه عن معاصي الله تعالى، وحلم يملك به غضبه، وحسن الصحبة لمن صحبه» (٨).

وروى الصدوق في الصحيح، عن شهاب بن عبد ربه، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: قد عرفت حالى وسعة يدي وتوسيعى على إخوانى، فأصحب النفر

١- ١ في الأصل: لا ضير إلا ضيرك.

٢- ٢ الكافي ٤: ٢٨٤، باب القول إذا خرج الرجل من بيته حديث ٢ وما بين المعقوفين زيادة من المصدر.

٣- ٣ الوسائل ١١: ٣٦٤ باب ١٠ من أبواب آداب السفر حديث ١.

٤- ٤ الوسائل ١١: ٣٦٣ باب ٩ من أبواب آداب السفر حديث ١.

٥- ٥ الوسائل ١١: ٣٩١ باب ٢١ من أبواب آداب السفر حديث ١.

٦- ٦ الفقيه ٢: ٢٧٣ باب ذكر الله عز وجل والدعاء في المسير، حديث ٢٤٢٣.

٧- ٧ الفقيه ٢: ٢٧٤ باب ما يجب على المسافر من حسن الصحبة حديث ٢٤٢٦.

٨- ٨ الكافي ٤: ٢٨٦ باب الوصية حديث ٢.

ص: ٢٩

منهم في طريق مكة، فأوسع عليهم؟ قال: «لا تفعل يا شهاب، إن بسطت وبسطوا أجحفت بهم، وإن هم أمسكوا أذلتهم، فاصحب نظراءك فاصحب نظراءك» (١).

وفي الصحيح، عن محمد بن خالد البرقي، عن حماد بن عثمان، عن ابن أبي يعفور، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ما من نفقة أحب إلى الله من نفقة قصد، ويغض الإسراف إلأى حج أو عمرة» (٢).

وروى عبد الله بن سنان في الحسن، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «كان علي بن الحسين عليه السلام إذا سافر إلى الحج والعمرة، تزود من أطيب الزاد من اللوز والسكر والسويق المحمص والمحلّي» (٣).

وروى محمد بن مسلم في الحسن أيضاً، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «من خالطت فإن استطعت أن تكون يدك العليا عليه فافعل» (٤).

فصل [في زيارة النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالمدينة] (٥)

وحيث كان من توفيق الله سبحانه في طريقنا إلى الحج الابتداء بدخول مدينة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فلا بأس بتقديم القول في فضل زيارته صلى الله عليه وآله، وبيان وظائفها، وسائر ما يستحب من الأعمال في المدينة. وإن كان المتعارف بين الأصحاب تأخير الكلام في ذلك إلى انقضاء مباحث الحج.

روى عبد الرحمن بن أبي نجران في الصحيح، قال: قلت لأبي جعفر الثاني عليه السلام: جعلت فداك ما لمن زار رسول الله صلى الله عليه وآله قاصداً. فقال: «له الجنة» (٦).

وروى الكليني في الصحيح، عن الحسن بن علي الكوفي، عن علي بن مهزيار، عن حماد بن عيسى، عن محمد بن مسعود، قال: قال: رأيت أبا عبد الله عليه السلام انتهى إلى قبر النبي صلى الله عليه وآله، فوضع يده عليه وقال: «أسأل الله الذي اجتباك واختارك وهداك وهدى بك أن يصلي عليك، ثم قال: إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً» (٧).  
وروى في الحسن عن معاوية بن عمارة، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إذا دخلت

١- ١ الفقيه ٢: ٢٧٨ باب الرفقاء في السفر ووجوب حق بعضهم على بعض حديث ٢٤٤٣.

٢- ٢ الوسائل ١١: ١٤٩ باب ٥٥ من أبواب وجوب الحج وشرائطه حديث ١.

٣- ٣ الوسائل ١١: ٤٢٣ باب ٤٢ من أبواب آداب السفر حديث ٢، وفي نسخة المحمص والمحلّي.

٤- ٤ الفقيه ٢: ٢٧٥ باب ما يجب على المسافر في الطرق من حسن الصحبة حديث ٢٤٢٢٩.

٥- ٥ ما بين المعقوفين زيادة من ن.

٦- ٦ الوسائل ١١: ٣٣٢ باب ٣ من أبواب المزار وما يناسبه حديث ١.

٧- ٧ الكافي ٤: ٥٥٢ باب دخول المدينة وزيارة النبي صلى الله عليه وآله حديث ٤.

ص: ٣٠

المدينة فاعتسل قبل أن تدخلها، أو حين تدخلها، ثم تأتي قبر النبي صلى الله عليه وآله فتسلم على رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم تقوم عند الاسطوانة المقدّمة من جانب القبر الأيمن عند رأس القبر عند زاوية القبر، وأنت مستقبل القبلة ومنكبك الأيسر إلى جانب القبر، ومنكبك الأيمن ممّا يلي المنبر، فإنه موضع رأس رسول الله صلى الله عليه وآله، وتقول:

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أشهد أنك رسول الله، وأشهد أنك محمد بن عبد الله، وأشهد أنك قد بلغت رسالته ربك، ونصحت لأمتك، وجاهدت في سبيل الله، وعبدت الله حتى أتاك اليقين بالحكمة والموعظة الحسنة، وأديت الذي عليك من الحق، وأنت قد رؤفت بالمؤمنين، وغلظت على الكافرين، فبلغ الله بك أفضل شرف محل المكرمين، الحمد لله الذي استنقذنا بك من الشرك والضلالة، اللهم فاجعل صلواتك وصلوات ملائكتك المقربين، وعبادك الصالحين، وأنبيائك المرسلين، وأهل السماوات والأرضين، ومن سبح لك يارب العالمين من الأولين والآخرين، على محمد عبدك ورسولك ونبيك وأمينك على وحيك، ونجيك وحيبك وصفيك، وخاصيتك وصفوتك وخيرتك من خلقك. اللهم أعطه الدرجة والوسيلة من الجنة، وابعثه مقاماً محموداً، يغبطه به الأولون والآخرون. اللهم إنك قلت: ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً (١)

وإنى أتيت نبيك مستغفراً تائباً من ذنوبي، وإنى أتوجه بك إلى الله ربي وربك ليغفر ذنوبي. وإن كانت لك حاجة فاجعل قبر النبي صلى الله عليه وآله خلف كتفيك واستقبل القبلة وارفع يديك وسل حاجتك، فإنك أحرى أن تقضى إن شاء الله (٢).

قال: وقال أبو عبد الله عليه السلام: «إذا فرغت من الدعاء عند قبر النبي صلى الله عليه وآله فائت المنبر فامسحه بيدك وخذ برمانيته وهما السفلاوان وامسح عينيك ووجهك به، فإنه يقال: إنه شفاء للعين، وقم عنده فاحمد الله واثن عليه وسل حاجتك، فإن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: ما بين منبري وبين روضه من رياض الجنة، ومنبري على

١- ١ النساء ٤: ٦٤.

٢- ٢ الوسائل ١٤: ٣٤١ باب ٦ من أبواب المزار وما يناسبه حديث ١. باختلاف سير.

ص: ٣١

ترعه من (١) الجنّة، والترعه هي الباب الصغير. ثم تأتي مقام النبي صلى الله عليه وآله فتصلي فيه ما بدا لك، فإذا دخلت المسجد فصل على النبي صلى الله عليه وآله، وإذا خرجت فاصنع مثل ذلك، وأكثر من الصلاة في مسجد النبي صلى الله عليه وآله» (٢). وفي عدّة أخبار أن الصلاة فيه تعدل ألف صلاة في غيره، إلّا المسجد الحرام، فإنه أفضل (٣).

وروى معاوية بن عمّار في الصحيح، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إئت مقام جبرئيل عليه السلام وهو تحت الميزاب فإنه كان مقامه إذا استأذن على النبي صلى الله عليه وآله، فقل:

أسألك أي جواد، أي كريم أي قريب أي بعيد (٤) أن تردّ عليّ نعمتك» (٥).

[زيارة فاطمة عليها السلام] (٦) وروى ابن أبي نصر في الصحيح عن الرضا عليه السلام: «أنّ فاطمة عليها السلام دفنت في بيتها، فلما زادت بنو أمية في المسجد صارت في المسجد» (٧) فإذا صرت إلى قبرها عليها السلام فقل: السلام على البتولة الطاهرة، والصدّيقة المعصومة، والبرّة التقيّة، سليلة المصطفى، وحليّة المرتضى، أم الأئمة النجباء، اللهمّ إنّها خرجت من دنياها مظلومة [مغشومة]، قد ملئت [داءً و] حسرةً وكمداً وغيظاً، تشكو إليك وإلى أبيها ما فعل بها، اللهمّ انتقم لها وخذ لها بحقّها، اللهمّ صلّ على الزهراء الزكيّة، المباركة الميمونة، صلاةً تزيد في شرف محلّها عندك، وجلالة منزلتها لديك وبلغها منّي السلام حيث كانت» (٨).

ويقول أيضاً: يا ممتحنه امتحنتك [الله] الذي خلقك قبل أن يخلقك فوجدك صابرة، وزعمنا أنّا لك أولياء مصدّقون وصائرون لكلّ ما أتانا به أبوك صلى الله عليه وآله، وأتى به وصيّيه، فنسألك إن كنّا صدقناك إلّا الحقننا بتصديقنا بهما لنبشّر أنفسنا بأنّا قد طهرنا بولايتك» (٩).

[زيارة الأئمة عليهم السلام بالبيع] (١٠) وإذا توجّهت إلى زيارة الأئمة عليهم السلام بالبيع، فاجعل القبر بين يديك وقل: السلام عليكم أئمة الهدى، السلام عليكم أهل التقوى، السلام عليكم الحجّة على أهل الدنيا، السلام عليكم القوام في البرية

١-١ في المصدر: من ترع.

٢-٢ الكافي ٤: ٤٥٣ باب المنبر والروضة ومقام النبي صلى الله عليه وآله حديث ١.

٣-٣ الكافي ٤: ٥٥٥ و ٥٥٦ باب المنبر والروضة ومقام النبي صلى الله عليه وآله حديث ٨ و ١٠-١٢.

٤-٤ في المصدر: أي بعيد أسألك أن تصلي على محمّد وأهل بيته وأسألك.

٥-٥ الوسائل ١٤: ٣٤٦ باب ٨ من أبواب المزار وما يناسبه حديث ١.

٦-٦ الزيادة في هامش نسخة الأصل.

٧-٧ الوسائل ١٤: ٣٦٨ باب ١٨ من أبواب المزار وما يناسبه حديث ٣.

٨-٨ رواها المجلسي في البحار ١٠٠: ١٩٧ باب زيارة فاطمة عليها السلام وموضع قبرها حديث ١٥، وما بين المعقوفين زيادة من المصدر.

٩-٩ الوسائل ١٤: ٣٦٧ باب ١٨ من أبواب المزار وما يناسبه حديث ٢ وفي نسخة الأصل أظهرنا بدل ظهرنا.

١٠-١٠ زيادة من هامش نسخة الأصل.

ص: ٣٢

بالقسط، السلام عليكم أهل الصفة، السلام عليكم أهل النجوى، أشهد أنكم قد بلغتم ونصحتهم وصبرتم في ذات الله، وكذبتهم واسىء إليكم فغفرتهم (١)، وأشهد أنكم الأئمة الراشدون المهديون، وأن طاعتكم مفروضة، وأن قولكم الصدق، وأنكم دعوتهم فلم تجابوا وأمرتم فلم تطاعوا، وأنكم أركان الدين، ودعائم الأرض (٢)، ولم تزالوا بعين الله ينسخكم في أصلاب كل مطهر، وينقلكم من أرحام المطهرات، لم تدنسكم الجاهلية الجهلاء، ولم تشرك فيكم فتن الأهواء، طبتهم وطاب منبتكم، من بكم علينا ديان الدين، فجعلكم في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، وجعل صلواتنا عليكم رحمة لنا وكفارة لذنوبنا، إذ اختاركم لنا وطيب خلقنا بما من به علينا من ولايتكم، وكنا عنده مسمين بفضلكم، معترفين بتصديقنا إياكم، وهذا مقام من أسرف وأخطأ واستكان وأقر بما جنى ورجا بمقامه الخلاص، وأن يستنقذه بكم مستنقذ الهلكى من الردى، فكونوا لى شفعاء، فقد وفدت إليكم إذ رغب عنكم أهل الدنيا واتخذوا آيات الله هزواً، واستكبروا عنها، يا من هو قائم لا يسهو ودائم لا يلهو، ومحيط بكل شىء، لك المن بما وفقتنى وعرفتنى ما ائتمنتى عليه إذ صد عنهم عبادك وجعلوا معرفتهم، واستخفوا بحقهم، ومالوا إلى سواهم، وكانت المنية لك ومنك على مع أقوام خصصتهم بما خصصتني به، فلك الحمد إذ كنت عندك فى مقامى هذا مذكوراً مكتوباً ولا تحرمنى ما رجوت، ولا تخيننى فيما دعوت. وادعو لنفسك بما أحببت» (٣).

وروى معاوية بن عمارة فى الحسن، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «لا تدع إتيان المشاهد كلها، مسجد قباء، فإنه المسجد الذى أسس على التقوى من أول يوم، ومشربة أم إبراهيم، ومسجد الفضىخ، وقبور الشهداء، ومسجد الأحزاب، وهو مسجد الفتح، قال: وبلغنا أن النبى صلى الله عليه وآله كان إذا أتى قبور الشهداء قال: السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار. وليكن فيما تقول عند مسجد الفتح: يا صريخ المكروبين، ويا مجيب دعوة

١- ١ فى المصدر: فغفوتهم.

٢- ٢ فى المصدر: وأنكم دعائم الدين وأركان الأرض.

٣- ٣ الكافى ٤: ٥٥٩ باب زيارة البقيع.

ص: ٣٣

المضطربين اكشف همى وغمى وكربى، كما كشفت عن نبيك هممه وغممه وكربه، وكفيتها هول عدوه فى هذا المكان» (١).  
وروى معاوية أيضاً فى الحسن، قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: «إذا أردت أن تخرج من المدينة فاغتسل، ثم إئت قبر النبى صلى الله عليه وآله وبعدما تفرغ من حوائجك فودعه، واصنع مثل ما صنعت عند دخولك، وقل: اللهم لا تجعله آخر العهد من زيارة قبر نبيك، فإن توفيتنى قبل ذلك فأنى أشهد فى مماتى على ما شهدت عليه فى حياتى: أن لا إله إلا أنت وأن محمداً عبدك ورسولك» (٢).

وروى يونس بن يعقوب فى الموثق، قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن وداع قبر النبى صلى الله عليه وآله، فقال: تقول: «صلى الله عليك، السلام عليك، لا جعله الله آخر تسليمى عليك» (٣).  
وتقول فى وداع الأئمة عليهم السلام: السلام عليكم أئمة الهدى ورحمة الله وبركاته، أستودعكم وأقرأ عليكم السلام، آمنا بالله وبالرسول، وبما جئتم به، ودلتم عليه.  
اللهم اكتبنا مع الشاهدين. ثم ادع الله واسأله أن لا يجعله آخر العهد من زيارتهم» (٤).

#### فصل [فى أقسام الحج] (٥)

لابد للحاج قبل شروعه فيه من معرفة الوجوه التى يقع عليها الحج، وهو ما فرضه منها إجمالاً؛ لئتم له القصد بالقيام إلى الفرض، وهى ثلاثة: تمتع وقران وإفراد.

أما التمتع: فهو فرض من بُعد منزله عن مكة بثمانية وأربعين ميلاً.

وصفته: أن يحرم بالعمرة أولاً فى أشهر الحج من أحد المواقيت التى يأتى بيانها، فإذا قدم مكة طاف بالبيت سبعة أشواط للعمرة وصلى ركعتى الطواف، ثم سعى بين الصفا والمروة سبعة أشواط لها، ثم يقصر وقد أحل من كل شىء كان حرم عليه بالإحرام سوى الحلق. ويبقى مرتبطاً بالحج ليس له أن يخرج من مكة حتى

- ١-١ الوسائل ١٤: ٣٥٢ باب ١٢ من أبواب المزار وما يناسبه حديث ١.
- ٢-٢ الوسائل ١٤: ٣٥٨ باب ١٥ من أبواب المزار وما يناسبه حديث ١.
- ٣-٣ الوسائل ١٤: ٣٥٩ باب ١٥ من أبواب المزار وما يناسبه حديث ٢.
- ٤-٤ التهذيب ٦: ٨٠ باب ٢٨ من أبواب وداع من فى البقيع.
- ٥-٥ ما بين المعقوفين زيادة من ن.

ص: ٣٤

يأتي به على تفصيل مقزّر في محلّه.

فإذا كان يوم الترويه أحرّم بالحجّ من مكّة، وتوجّه إلى عرفه فوقف بها في يومها بعد زوال الشمس إلى غروبها، ثمّ يفيض إلى المشعر فيبيت به بقيّة ليله النحر، ويقف به بعد طلوع الفجر من يوم النحر، ثمّ يفيض إلى منى فيرمى بها ذلك اليوم جمرة العقبة، ثمّ يذبح الهدى، ثمّ يحلق أو يقصر، ويأتي من يومه أو بعده إلى مكّة فيطوف بالبيت سبعة أشواط للحجّ ويصلّي ركعتيه، ويسعى بين الصفا والمروة سبعا، ثمّ يطوف طوافاً آخر وهو طواف النساء ويصلّي ركعتيه، ثمّ يعود إلى منى فيبيت بها ليلالي التشريق، ويرمي بها الجمرات الثلاث في أيامها على ما سيجيء تفصيله.

وأما القران والإفراد: فإنّهما فرضٌ حاضري مكّة ومن كان بعد منزله عنها لا يبلغ ثمانية وأربعين ميلاً، ويشتركان في معظم الكيفيّة، وهي: الإحرام بالحجّ أوّلًا في أشهره من أحد المواقيت، والإتيان بجميع أفعالها التي عددها في حجّ التمتع إلّا الهدى فإنّه ليس بواجب على المفرد مطلقاً، وأما القارن فتعرف حكمه فيه.

ثمّ يخرج إلى الجعرانة أو الحديبية أو التنعيم، فيحرم بعمره مفردةً ويطوف لها ويسعى، ثمّ يطوف لها أيضاً طواف النساء. ويمتاز أحدهما عن الآخر بأنّ القارن يسوق في إحرامه بالحجّ هدياً، فيجب عليه بالسّياق ذبحه بمنى وإن كان تبرّعاً، وإنّما يستحقّ (١) السّياق الموجب للذبح المقتضى لصيرورة الحجّ قراناً بإشعار الهدى أو تقليده، سواء عقد إحرامه بأحدهما أو بالتليّة. ومن حجّ تطوّعاً فهو بالخيار بين الأنواع الثلاثة وأفضلها التمتع.

[في أركان الحجّ] (٢).

واعلم أنّ بعض الأصحاب (٣) حصر الأركان من أفعال الحجّ والعمرة في ثلاثة عشر، نيّة الإحرام بالعمرة، وإحرامها، والتليّة لها، والطواف، والسعي،

١- ١ في الأصل: يتحقّق.

٢- ٢ ما بين المعقوفين زيادة من ن.

٣- ٣ وهو الشهيد في الدروس ١: ٣٢٨.



ص: ٣٥

ومثلها للحج، والوقوف بعرفات، وبالمشعر، والترتيب.

وأراد من الركن ما يبطل الحج بفواته عمداً لا سهواً، واستثنى منه فوات الموقفين، فجعله فيه بمعنى ما يبطل عمداً وسهواً.

ولا ضرورة إلى هذا التكلف مع أن الكلام في الوقوف لا يخلو من نظر.

وستعلم الحال من تحقيق الحكمين فيهما عند الانتهاء إلى محلّه. ويظهر أن الوجه قصر الاستثناء على الوقوف بالمشعر.

#### فصل [في حقيقة التّيه] (١)

ولابدّ للحاج أيضاً من معرفته حقيقة التّيه التي يتوقّف عليها وقوع العبادة على وجهها المطلوب للشارع، فقد طال في بيانها كلام المتأخّرين وخلي منه حديث أهل البيت عليهم السلام رأساً، وكذلك قدماء فقهاءهم، الذين لم يتجاوزوا المأثور عنهم فيما دونوه من الأحكام الشرعية، ولم يحتاجوا إلى مضاهاة أهل الخلاف في توليد المسائل وشدة الرغبة في إكثار الاستنباط. والتنافي بين المسلكين في خصوص هذا الموضوع ظاهر، ولكنّ التحقيق في وجه الجمع بينهما أنّ المقتضى للسكوت عنها سهولة الأمر وبعده انفكاك أفعال العقلاء عن القصد إليها، وخلوّ عبادات المكلفين عن إرادة الخروج بها من عهدة التكليف إذا كانت واجبة، أو عن قصد الموافقة لإرادة الله سبحانه، والتعرض لثوابه إذا كانت مندوبة، ولا وجه لاعتبار الزيادة عن هذا المقدار في تّيه كلّ من الواجب والندب، غاية ما هناك أنّ في المعنى الذي ذكرناه إجمالاً يمكن أن يفضّل إلى اعتبارات متعدّدة وجهات متغايرة تكثّر في الصورة وتطول على قلّة طائل ومحصول.

والداعي للمتأخّرين إلى ما سلكوه وأطنبوا فيه من تحرير المعنى وتفصيله إلى (٢) القيود المعروفة المؤداه بالعبارات المشهورة، هو ملاحظة حال العوام ومن يتعسر عليه فهم المراد بدون ذلك وهو غرض هين، لكنّه يصلح عذراً.

وعلى كلّ حال فالذي يجب تحصيله في باب التّيه لأفعال الحجّ وغيرها: هو

١-١ ما بين المعقوفين زيادة من ن.

٢-٢ في ن: أن بدل إلى.

ص: ٣٦

تشخيص (١) الفعل في الذهن، وتمييزه (٢) بوجه ما، ثم القصد إلى طاعة الله سبحانه به إن كان واجباً، وموافقة إرادته إن كان ندباً. ومن أراد التجاوز عن هذا المقدار ورغب في تعاطي ما يجده في كلام من يحسن به الظن من الأصحاب فلا حرج، لكن بشرط عدم اعتقاد توظيفه وأن المطلوب لا يحصل بدونه، فإنه جهل فظيع وتشريع شنيع. وإن كان ولا بد لبعض الأفهام من الاستعانة باللفظ فينبغي الاقتصار على القليل منه، كالعبارات التي لخصها الوالد قدس سره في آخر الأمر (٣).

ونحن نورد هنا نيات (٤) أفعال حج التمتع جملة على نهج إيراد أفعاله في الفصل السابق. فنقول: صورة نية الإحرام بعمرة التمتع: أحرم بالعمرة المتمتع بها إلى الحج طاعة لله أو موافقة لإرادته على حسب الوجوب أو الندب. وينبغي أن يعلم أن الغرض من التمتع بها إلى الحج انضمامها إليه واتصالها به، فيراد من التمتع الانتفاع، وتجعل إلى بمعنى مع.

وذكر جماعة من الأصحاب: أن معنى الكلام التي يتلذذ بالتحلل منها إلى حين الإحرام بالحج. وأراه (٥) بعيداً. وإن احتيج إلى نية التلبية، فصورتها: التي طاعة لله أو موافقة لأمر الله.

ونية طواف العمرة: أطوف طواف عمرة التمتع طاعة لله.

ونية ركعته: أصلي ركعتي طواف العمرة طاعة لله.

ونية السعي: أسعى سعي عمرة التمتع طاعة لله.

ونية التقصير: اقصر طاعة لله.

ونية الإحرام بالحج: أحرم بحج التمتع طاعة لله، والتلبية كما في العمرة.

ونية الوقوفين والمبيت بالمزدلفة: أقف بعرفة إلى الغروب طاعة لله. أبيت بالمزدلفة طاعة لله، أقف بالمشعر طاعة لله.

١- ١ في م: تخصيص بدل تشخيص.

٢- ٢ في م و ن: وتمييزه.

٣- ٣ وهى: نيات الحج والعمرة رسالة صغيرة مطبوعة في نشرة ميقات الحج العدد ٢ ص ٨٠.

٤- ٤ في الأصل بيان بدل نيات.

٥- ٥ في م: «وأراد».

ص: ٣٧

وتيات منى يوم النحر: أرمى هذه الجمره بسبع حصيات طاعه لله. أذبح هذا الهدى طاعه لله. والأكل منه والتصدق والإهداء: آكل من هذا الهدى أو أتصدق أو أهدى طاعه لله. أحلق رأسى طاعه لله، وإن اقتصر على التقصير فكالعمرة. وتيات بقيه مناسك مكه: أطوف طواف حج التمتع طاعه لله، أصلى ركعتى طواف حج التمتع طاعه لله، أسعى سعى حج التمتع طاعه لله، أطوف طواف النساء فى حج التمتع طاعه لله، أصلى ركعتى طواف النساء طاعه لله. وتيات ما يبقى من المناسك بمنى: أبيت هذه الليله بمنى طاعه لله. أرمى هذه الجمره بسبع حصيات طاعه لله. والإشارة فى الموضعين بهذه إلى كل ليله من الليالى الثلاث بخصوصها وإلى كل جمره من الثلاث بانفرادها. فالعبارة فى الجميع وإن اتحدت فإن المعنى باعتبار الإشارة يتعدّد.

## فصل [فى المواقيت] (١)

يستحب لمن أراد الحج أن يوفر شعر رأسه إذا رأى هلال ذى القعدة، وأن يتهيأ للإحرام إذا انتهى إلى أحد المواقيت التى وقتها رسول الله صلى الله عليه وآله.

وهى خمسة، ذو الحليفة وهو مسجد الشجرة، والجحفة، والعقيق، وقرن المنازل، ويلملم؛ ومن لم يمر طريقه بأحدها يتحرى المحاذى له ويحرم منه. ومن كان منزله دون هذه المواقيت إلى مكه أحرم منه.

والمعروف فى كلام الأصحاب شمول هذا الحكم لأهل مكه فىكون إحرامهم بالحج من منازلهم، مع أن النص الوارد بالحكم لا يتناولهم. وفى حديثين من مشهورى الصحيح ما يخالف ذلك.

أحدهما: عن عبد الرحمن بن الحجاج، عن أبى عبد الله عليه السلام، قال: قلت له: إني أريد الجوار فكيف أصنع؟ فقال: إذا رأيت هلال ذى الحجة فاخرج إلى الجعرانة فاحرم منها بالحج - وفى جملة الحديث وهو طويل أنه عليه السلام قال: «إن سفيان فقيهكم أتاني فقال: ما يحملك على أن تأمر أصحابك يأتون الجعرانة فيحرمون

ص: ٣٨

منها؟ فقلت له: هو وقت من مواقيت رسول الله صلى الله عليه وآله - وساق الكلام إلى أن حكى سفيان أنه قال: - أما علمت أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله أحرما من المسجد؟

فقال عليه السلام: إن أولئك كانوا متمتعين، في أعناقهم الدماء، وإن هؤلاء قطنوا بمكة فصاروا كأنهم من أهل مكة، وأهل مكة لا متعة لهم فأحببت أن يخرجوا من مكة إلى بعض المواقيت، ثم قال عليه السلام: فقال لي - يعني سفيان - وأنا أخبره أنها وقت من مواقيت رسول الله صلى الله عليه وآله - يعني الجعرانة: - يا أبا عبد الله فإني أرى لك أن لا تفعل. فضحكت وقلت: ولكنني أرى لهم أن يفعلوا» (١).

والحديث الثاني عن صفوان بن يحيى بن أبي الفضل سالم الحنّاط، قال: كنت مجاوراً بمكة، فسألت أبا عبد الله عليه السلام من أين أحرّم بالحجّ؟ فقال: «من حيث أحرّم رسول الله صلى الله عليه وآله من الجعرانة» (٢).

والعجب من عدم التفات الأصحاب إلى هذين الحديثين مع انتفاء المنافي لهما من الأخبار وصحة طريقيهما عند جمهور المتأخرين، وما رأيت من تعرّض لهما بوجه سوى الشهيد في الدروس (٣)، فإنه أشار إلى مضمون الأول ساكتاً عليه، وبعض المتأخرين عنه، فقال بعد التنبيه عليه: إنه غير معروف، والاحتياط في ذلك مطلوب، وليس بمتعسر.

[في الإحرام] (٤)

إذا تقرّر هذا، فلنعد إلى إتمام الكلام في التهيؤ للإحرام، والغرض منه الاستطابة بأنواعها المعهودة شرعاً، من تقليم الأظفار وأخذ الشارب، وشفّ الإبط، وحلق العانة، والإطلاء، والاستياك، والاختسال، ثم يلبس الرجل ثوبى الإحرام يأتزر بأحدهما ويرتدى بالآخر بأن يغطى منه منكبيه أو يتوشح فيقتصر على أحدهما، ويعتبر فيهما أن يكونا من جنس ما يصحّ فيه الصلاة اختياراً. ولا بأس بالزيادة عليهما، ومن لا رداء يجعل على عاتقه عمامة. ويستحب كون الثوبين من القطن الأبيض.

١- ١ الوسائل ١١: ٢٦٧ باب ٩ من أبواب أقسام الحجّ حديث ٥.

٢- ٢ الوسائل ١١: ٢٦٧ باب ٩ من أبواب أقسام الحجّ حديث ٦.

٣- ٣ الدروس ١: ٤٨٤.

٤- ٤ ما بين المعقوفين زيادة من ن.

ص: ٣٩

ويكره أن يحرم في الثوب الوسخ والمعلم مع القدرة على غيره، وأن يغسل الثوب الذي يحرم فيه حتى يحل إلا أن يصيبه نجاسة فيغسله. ولا بأس بتغيير المحرم ثيابه ولكن إذا دخل مكة لبس ثوبى إحرامه اللذين أحرم فيهما. ويكره بيعهما.

ولمن حج على طريق المدينة أن يتجهز منها بجميع ما ذكرنا ثم يأتي مسجد الشجرة. وإن نام بعد الغسل أو لبس ما لا يلبسه المحرم أو أكل ما لا- يأكله أعاد الغسل. ويجزيه غسل اليوم لليلة، وغسل الليلة لليوم، ولا بأس أن يدهن قبل الغسل وبعده بأي دهن شاء إذا لم يكن فيه مسك ولا عنبر ولا زعفران ولا ورس.

وليكن فراغه من ذلك كله عند زوال الشمس فإنه أفضل، ولا ينشئ الإحرام إلا في دبر صلاة مكتوبة أو نافله، فإن اتفق في وقت فريضة أحرم بعد التسليم منها، وإلا صلى ركعتين نافله وأحرم بعدهما، فإذا انفتل من الصلاة حمد الله عز وجل وأثنى عليه، وصلى على النبي صلى الله عليه وآله ثم يقول: اللهم إني أسألك أن تجعلني ممن استجاب لك، وآمن بوعدك، وأتبع أمرك، فإني عبدك وفي قبضتك، لا أوقى إلا ما وقيت، ولا آخذ إلا ما أعطيت، وقد ذكرت الحج، فأسألك أن تعزم لي عليه على كتابك وسنة نبيك صلى الله عليه وآله، وتقويني على ما ضعفت عنه، وتتسلم مني مناسكي في يسر منك وعافيه، واجعلني من وفدك الذين رضيت وارتضيت وسميت وكتبت، اللهم إني خرجت من شقة بعيدة، وأنفقت مالي ابتغاء مرضاتك، اللهم فتمم لي حجتى وعمرتى، اللهم إني أريد التمتع بالعمرة إلى الحج على كتابك وسنة نبيك صلى الله عليه وآله، فإن عرض لي عارض يحبسني فحلني حيث حبستني بقدرك الذى قدرت على، اللهم إن لم تكن حجة وعمرة، أحرم لك شعري وبشرى ولحمى ودمى وعظامى ومخى وعصبى من النساء والثياب والطيب، ابتغى بذلك وجهك والدار الآخرة. ثم قم فامش هنيئاً فإذا استوت بك الأرض ماشياً كنت أو راكباً فلب. روى ذلك معاوية بن عمارة فى الصحيح عن أبى عبد الله عليه السلام (١).

وروى نحوه جماعة كثيرة، منهم منصور بن حازم، وعبد الله بن سنان،

ص: ٤٠

ومعاوية بن وهب، وعبيدالله الحلبي، وعبد الرحمن بن الحجاج والكل في الصحيح (١).  
 وروى هشام بن الحكم في الصحيح أيضاً عنه عليه السلام في الإحرام من العقيق أنه قال: «إذا صليت قلت ما يقول المحرم في دبر صلاتك، وإن شئت لثبت في موضعك.  
 والفضل أن تمشى قليلاً ثم تلب» (٢) فاعتبار المقارنة بين نيّة الإحرام والتلبّيه بنحو مقارنته تكبيره الإحرام بتيّة الصلاة كما يوجد في كلام جمع من الأصحاب (٣) خلاف ما تظاهرت (٤) به الأخبار عن أهل البيت عليهم السلام (٥).  
 فصل [في التلبّيه] (٦)

والأولى في صورة التلبّيه أن تقول: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك لبيك بتمتع بعمره إلى الحج. روى ذلك معاوية بن وهب في الصحيح عن أبي عبد الله عليه السلام (٧).  
 ورواه بدون التلبّيه الأخيرة عبد الله بن سنان في الصحيح أيضاً عنه عليه السلام (٨).  
 وروى معاوية بن عمّار في الصحيح عنه عليه السلام أنه قال: التلبّيه أن تقول: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك [لبيك] لبيك ذا المعارج لبيك، لبيك داعياً إلى دار السلام لبيك، لبيك غفار الذنوب لبيك، لبيك أهل التلبّيه لبيك، لبيك ذا الجلال والإكرام لبيك، لبيك تبتدي والمعاد إليك لبيك، لبيك تستغني ويفتقر إليك لبيك، لبيك مرهوباً ومرغوباً إليك لبيك، لبيك إله الحقّ لبيك، لبيك ذا النعماء والفضل الحسن الجميل لبيك، لبيك كشاف الكرب العظام لبيك، لبيك عبدك وابن عبدك لبيك، لبيك يا كريم لبيك. تقول هذا في دبر كلّ صلاة مكتوبة أو نافلة، وحين تنهض بك بعيرك، وإذا علوت شرفاً أو هبطت وادياً، أو لقيت راكباً، أو استيقظت من منامك وبالأسحار. وأكثر ما استطعت واجهر بها، وإن تركت بعض التلبّيه فلا يضرك، غير أن إتمامها أفضل.  
 واعلم أنه لا بدّ لك من التلبّيات الأربع التي كنّ أول الكلام، وهي الفريضة،

- 
- ١- ١ التهذيب ٥: ٨٤ باب صفة الإحرام حديث ٨٥-٨٧؛ والفقهاء ٢: ٣٢٠ باب عقد الإحرام وشروطه حديث ٢٥٦٤.
  - ٢- ٢ الفقيه ٢: ٣٢١ باب عقد الإحرام وشروطه ونقضه والصلاة له حديث ٢٥٦٥.
  - ٣- ٣ منهم ابن إدريس في السرائر ١: ٥٣٦، والشهيدان في اللمعة والروضة، انظر الزبدة الفقهية ٣: ٣٤٤، والمحقق الكركي في جامع المقاصد ٣: ١٦٧.
  - ٤- ٤ في هامش ن: «ما تظافرت».
  - ٥- ٥ كما في الروايات الآنفه الذكر وغيرها.
  - ٦- ٦ ما بين المعقوفين زيادة من ن.
  - ٧- ٧ الوسائل ١٢: ٣٨٢ باب ٤٠ من أبواب الإحرام حديث ١.
  - ٨- ٨ الكافي ٤: ٢٤٩ باب حجّ النبي صلى الله عليه وآله حديث ٧.

ص: ٤١

وهو التوحيد، وبها لبي المرسلون، وأكثر من ذى المعارج فإن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يُكثر منها. وأول من (١) لبي بها إبراهيم عليه السلام، قال: إن الله يدعوكم أن تحجوا بيته فأجابوه بالتلبية فلم يبق أحد أخذ ميثاقه بالموافاة في ظهر رجل ولا بطن امرأة إلا أجاب بالتلبية» (٢).

روى الكليني في الصحيح عن ابن فضال عن رجال شتى عن أبي جعفر عليه السلام، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من لبي في إحرامه سبعين مرة إيماناً واحتساباً أشهد الله ألف ألف ملك براءة من النار وبراءة من النفاق» (٣).  
وفي خبر مرسل أن أبا عبد الله عليه السلام روى وهو محرم قد كشف عن ظهره حتى أبداه للشمس وهو يقول: «لبيك في المذنين لبيك» (٤).

الهوامش:

١- ١ في الأصل: ما.

٢- ٢ الوسائل ١٢: ٣٨٢ باب ٤٠ من أبواب الإحرام حديث ٢. وما ورد بين المعقوفين من المصدر.

٣- ٣ الكافي ٤: ٣٣٧ باب التلبية حديث ٨. الوسائل ١٢: ٣٨٦ باب ٤١ من أبواب الإحرام حديث ١.

٤- ٤ الوسائل ١٢: ٣٨٦ باب ٤٠ من أبواب الإحرام حديث ٩.









ص: ٤٥

الحرمان الشريفان في كتاب «الحقيقة والمجاز»

## الحرمان الشريفان

الحرمان الشريفان

في كتاب

## الحقيقة والمجاز

«الحقيقة والمجاز»

تأليف: عبد الغنى النابلسي ت ١١٤٣ هـ. ق محمد علي المقدادى

لا شك في أن السفر قد تولد ونشأ من حين وجود البشر، فقد سافر الإنسان ورحل منذ أن خلق؛ لمقاصد وأغراض شتى، منها الزيارة... وكتابة الرحلة من الأعمال التي قام بها الكثير من العلماء وغيرهم، وصارت ذخيرة طائلة وتراثاً عظيماً للشعوب والمجتمعات، ولأجل ذلك قام الادباء والمثقفون بنشر وتحقيق العديد من الرحلات، وازدهر أدبها في العصور القديمة والأخيرة. وبلاد الحجاز خاصة مكة المكرمة والمدينة المنورة أصبحتا مركزين تجاريين من قديم الدهر ولوقوعهما في طريق التجارة، ثم بعد أن جاء الإسلام ونزل القرآن الكريم في هذين الحرمين الشريفين. وصارت مكة المكرمة مركزاً للبعثة المحمدية وقبله لكل المسلمين في أرجاء الأرض، وبعد أن هاجر منها الرسول صلى الله عليه وآله إلى المدينة الطيبة وتوفي فيها، تميزت بلاد الحجاز عن غيرها بوجود هذين المعلمين البارزين للزيارة وأداء الفريضة. فقد تشرف المسلمون بزيارة الحرمين الشريفين لأداء

ص: ٤٦

النسك وزيارة الرسول الأمين صلى الله عليه وآله، فكثرت الرحلات السنوية وغير السنوية إليهما. لقد كتب أهل الثقافة والعلم من العرب والعجم؛ حول هذين المركزين وعن السفر إليهما وفضيلته وآدابه وفوائده أكثر من كتابتهم عن سائر البلاد الأخرى، مما جعل الرحلة الحجازية أكبر ثروة في عالم الثقافة والمعرفة وأدب الرحلات. وقد بذل الأستاذ حمد الجاسر كل جهوده لتعريف كتب الرحالة العرب، وقام بكتابة مقالات عديدة في مجلته (مجلة العرب)، إلا أنها كانت أقل مما كتبه المسلمون غير العرب، فقد كتبوا رحلات كثيرة بشتى لغاتهم، فإحزاباً لو يُنشأ مركز إسلامي لترجمتها؛ لكي يستفيد منها الباحثون والذين يحبون أن يعلموا كيف كانت تتم هذه الرحلات، وكيف تؤدي المناسك و... من صدر الإسلام إلى زماننا هذا.

الحقيقة والمجاز

وكان من جملة الكتب التي دوّنت حول الرحلة الحجازية، هذا الكتاب المسمى بـ «الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز» لمؤلفه العالم الأديب، الحنفى المذهب، الشيخ عبد الغنى بن إسماعيل النابلسى (١٠٥٠ إلى ١١٤٣ هـ. ق). وقد قام بنشر هذا الكتاب وتحقيقه مركز تحقيق التراث بجمهورية مصر العربية سنة ١٩٨٦ م على طريقة أفسيت.

إنّ الشيخ تشرف لزيارة الحرمين الشريفين ثلاث مرّات، والرحلة التي صدر لها هذا الكتاب لم تكن رحلته الوحيدة، فإنّ له رحلتين أخريين.

اولاهما في سنة ١١٠٠ هـ. ق، وثانيتها في سنة ١١٠١ هـ. ق. أمّا الرحلة الأخيرة فهي صارت رحلة كبرى للمؤلف، وقد قام بتأليف يومياتها

ص: ٤٧

سنة ١١٠٥ هـ. ق؛ وفرغ من تدوينها سنة ١١١٠ هـ. ق.

هذا الكتاب يحتوى على ثلاثة أقسام:

١- السفر إلى البلاد الشامية، من الصفحة ١ إلى الصفحة ١٦٩.

٢- السفر إلى مصر، من الصفحة ١٧٠ إلى الصفحة ٢٩٣.

٣- السفر إلى الديار المقدسة والأقطار الحجازية من الصفحة ٢٩٤ إلى الصفحة ٤٩١.

وهذا القسم الأخير قد حظى بأكثر صفحات الكتاب، ونحن اقتصرنا على القسم الأخير لما فيه من الأهمية، واقتصرنا أيضاً على ما كتب حول الأماكن والآثار؛ وبعض العقائد التي كانت سائدة في ذلك الزمان، فالكتاب وإن كان مملوءاً بالأشعار والحكايات الغريبة وتعريف الكتب الفقهية والتاريخية واللقاءات الكثيرة وغيرها، ويوجد فيه اشتباهات أيضاً، إلا أن التعريف بكل هذا يحتاج إلى مجال أوسع من هذا المقال.

إنّ النابلسي قد بيّن غرضه من هذه الرحلة في الصفحة ٣ و ٤ من كتابه، وقال:

«لقد كنتُ فيما تقدّم من الزمان، مع جملة من الأصحاب والإخوان، والتبرّك بنفحات مجالسهم وهاتيك الحضرات، ويكون ختم ذلك بالحجّ الشريف، وزيارة النبيّ صلى الله عليه وسلم في ذلك البلد المنيف، إلى أن هياّ الله تعالى لنا الأسباب، وقطع عنا العوائق، وفتح علينا هذا الباب... وكان ذلك في أواخر فصل الصيف، في شهر آب، فكنا نتمتع بمن نزل عليهم نزول الضيف... لا نأتى إلى قرية إلّا ويقوم لنا أهلها بما يجب من الإكرام، ولا ندخل إلى بلدة إلّا بغاية المهابة والاحتشام... نجتمع بأهل الصلاح والدين... ونزور الأولياء، ونتبرّك بقبور السادة الأصفياء ونتباحث مع العلماء... وقضينا فريضة الحجّ، مع كمال العجّ والشجّ، ثمّ رجعنا إلى

ص: ٤٨

بلادنا دمشق الشام... فأردنا أن نثبت ذلك في هذا الكتاب؛ ليكون مذكراً لنا بنعم الله تعالى علينا وعلى بقيته الأصحاب، وإن في ذلك لعبرة لأولى الألباب، وقصدنا التحدث بنعم الله تعالى بين الأحباب».

بدأ المؤلف رحلته يوم الخميس، غرة المحرم ١١٠٥ هـ. ق، وانتهت في الخامس من شهر صفر ١١٠٦ هـ. ق. ورافقه ابنه وبعض أصحابه، فاستغرقت رحلته ٣٨٨ يوماً، قضى منها ٩٩ يوماً في الطريق، من دمشق إلى حدود مصر الشرقية، ثم قضى في مصر ٨٣ يوماً، ثم قضى ٥٤ يوماً في الطريق من مصر إلى الحجاز، ثم قضى ١٠٩ أيام في البلاد الحجازية، ثم قضى ٤٣ يوماً في طريق عودته من الحجاز إلى الشام، فهو تشرف لزيارة المدينة المنورة مرتين، مرة قبل الحج ومرة بعده.

\*\*\*







ص: ٥١

بسم الله الرحمن الرحيم

وقوع الحرب بين أعراب البادية وأمير الحجاز

وحين وصل الشيخ النابلسى إلى ينبع البحر، أخبروه أنه قد وقعت الحرب بين أعراب البادية- قبيلة حرب- وبين أمير الحجاز، فخرج الشيخ من ينبع البحر حتى وصل إلى ينبع النخل، وهى قرية كبيرة ذات نخل كثير ومياه غزيرة، وهى المنزل الرابع والعشرون من منازل الحاج، وبقي على الحاج إلى مكة ستة منازل:

١- منزل بدر ٢- منزل القاع ٣- منزل رابغ ٤- منزل قديد ٥- منزل عسفان ٦- منزل وادى فاطمة. ولقى الشيخ شريف الحجاز قرب ينبع النخل.

قال المؤلف- الصفحة ٣١٧:- «ثم إننا سألنا عن السير إلى المدينة المنورة فأخبرونا أن العرب الذين هم عرب حرب، حاصل بينهم وبين أمير الحجاز سعد ابن زيد منازعة وحرب، وأنهم واقفون فى وادى الصفراء، يمنعون كل من سار إلى المدينة، وقد ظهرت منهم للزائرين خصلة قبيحة كمينه، وأن لا محيص إلا بالسفر إلى جوار سعد بن زيد الهاشمى أمير الحجاز، فإنه يقدر إنفاذنا إلى تلك الجهة والجواز، وأما على غير هذا الوجه المذكور، فإنه لا يمكن أصلاً كما قال الشاعر المشهور:

أيا دارها بالخيف إن مزارها قريب ولكن دون ذلك أهوال

فلما رأينا الأمر كذلك وتحققنا صعوبة هذه المسالك، طلبنا من نكترى معه خمسة من الجمال ونسير إلى جهة سعد بن زيد، لنبلغ به غاية الآمال... ثم ركبنا وسرنا فوصلنا وقت العصر إلى ينبع النخل على ماء جارى فى وجه الأرض؛ عذب زلال، فشربنا وسقينا الدواب...، ثم ركبنا وسرنا قليلاً بين ذاك النخيل، وإذا بخيام

ص: ٥٢

شريف الحجاز سعد بن زيد وعظيم ذلك الرحيل، فدخلنا عليه في رفيع ذلك المضرب الجليل، وشريف ذلك المخيم الجميل، فتلقنا بالقبول والاحترام، وأقبلنا عليه بلطائف التحية والسلام، وجلسنا معه حصّة من الزمان، نتحدث في وقايح هذا العصر والأوان، ثم أمر لنا بخيمة واسعة... ثم إننا طلبنا من حضرة الشريف المحترم أن يرسلنا إلى المدينة المنورة، فقال لنا: لو أرسلنا معكم مائة فارس أو أكثر لا يمكن ذلك في هذه الأوقات المكدرّة، فإننا في محاربة هذه القبائل من عرب حرب، وعندنا هذه العربان المستكثرة، فاصبروا أيّاماً حتى نذهب نحن وتذهبون معنا في عافية وسلامة...» (١).

شوق لزيارة الحبيب

صار المؤلّف متعباً من طول الوقوف في الطريق، وأنشد بعض الأشعار شوقاً لزيارة المدينة المنورة.

قال المؤلّف - الصفحة ٣٢١ -: «... يوم الأحد الحادى والعشرون ومائتان وهو اليوم الخامس عشر من شعبان، وقد زاد بنا الشوق إلى زيارة الحبيب، وكثر الحنين إليه والنحيب:

وأكثر ما يكون الشوق يوماً إذا دنت الديار من الديار

ولله درّ ابن أبى جابر المغربى حيث قال:

إذا بلغ المرء أرض الحجاز فقد نال أفضل ما أمّ له

وإن زار قبر نبيّ الهدى فقد أكمل الله ما أمّله

وقد حال بيننا وبين زيارته والسفر إليه مع قرب المزار، قبيلة حرب المتفرقة الأفخاذ في هاتيك الأقطار، فقلنا في ذلك من نوع الأشعار: ألا يا رسول الإله الذى لداء الجفا زورة منه طب

ص: ٥٣

إلى كم وقد قرب الملتقى وما صار وصل ولا زال حجب

لئن كان بينى وبينك حرب (١) فما كان بينى وبينك حرب

وهذا المكان الذى نحن نازلون فيه مع حضرة الشريف حفظه الله تعالى الذى هو ينبع النخل وما حوله من القرى، يسميه أهل الحرمين بالشام، فعمل ذلك لكثرة مائه وفواكهه، فأشبهه بلاد الشام؛ أو لغير ذلك، فإذا أرادوا الذهاب إليه قالوا: نريد أن نذهب إلى الشام، كما سمعنا ذلك منهم...» (٢).

جبل رضى

قال المؤلف: «... اليوم السادس عشر من شعبان، ولم نزل فى ذلك المكان، وكنا نازلين تحت جبل يسمى جبل رضى... وذكر السهمودى فى تاريخ المدينة تلخيص الوفا قال: رضى بالفتح كسكرى جبل على يوم من ينبع وأربعة أيام من المدينة... وتزعم الكيسانية أن محمد بن الحنفية مقيم به حتى يرزق، انتهى.

قلت: وهو محمد بن علي (٣) بن عبد المطلب، أبو القاسم، ويقال عبدالله الهاشمى المدنى المعروف بابن الحنفية، وهى خولة بنت جعفر من سبى اليمامة. وقال الزبير ابن بكار: وتسميه الشيعة المهدي...» (٤).

أقول: هذه فلتة ظاهرة من المؤلف ومن ابن بكار؛ لأن الشيعة هم الإمامية وهم غير معتقدين أصلاً بإمامة محمد بن الحنفية وليس هو المراد بالمهدي عندهم، بل المهدي عند الإمامية هو: الإمام الحجة المهدي بن الحسن العسكري بن علي الهادي بن محمد الجواد بن علي الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام.

إنهاء الحرب بين الشريف وحرب

لقد نقل النابلسي قصة إنهاء الحرب بين شريف الحجاز وقبيلة حرب، وذلك

١-١ أراد المؤلف من الحرب فى المصرع الأول، قبيلة حرب.

٢-٢ الصفحة: ٣٢١ من الكتاب.

٣-٣ الصحيح هو محمد بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب.

٤-٤ الحقيقة والمجاز: ٣٢٢.

ص: ٥٤

بسبب حضور نحو سبع وثلاثين قبيلة من قبائل المنطقة، وأنفقوا على غزوهم ضد «حرب» ولكن كل المشاكل رفعت بموت شيخ قبيلة حرب.

قال المؤلف: «... وكان الشريف يرسل لنا في كل ليلة من يحرسنا بلا طلب منا، فيمكث الاثنان والثلاثة من عييده حول خيمتنا إلى طلوع الصباح، حذراً علينا من همج الأعراب الذين معه، فضلاً عن أعدائه القباج... إلى أن أصبحنا في يوم الجمعة، السادس والعشرين ومائتين، وهو اليوم العشرون من شعبان، فأتى الخبر لحضرة الشريف أن شيخ قبيلة حرب واسمه «مُضَيان» - بضم الميم وفتح الضاد المعجمة وفتح الياء المثناة التحتية مشددة بعدها ألف ونون - قد مات بداء البطن، فاستبشر الجميع، بخذلان العدو الفطيع، فلما أصبحنا في يوم السبت... زاد اشتياقنا إلى المدينة والبقيع...» (١).

زيارة قبر الحسن المثني ابن الإمام الحسن المجتبي عليه السلام قرب الجابريه

قال المؤلف: «... فأرسل إلينا الشريف بكره النهار، فركبنا وركب معنا واحد من جماعتنا وركب هو بنحو مائة فارس وابنه الشريف سعيد حفظه الله تعالى كذلك ركب بفرسان وقال لي: نذهب إلى زيارة الإمام حسن المثني ابن الإمام حسن ابن الإمام علي بن أبي طالب رضى الله عنهم، فسرنا نحو ساعة وإذا مكان هناك في داخله بيت وفي ذلك البيت قبر، عليه جلاله ومهابه فوقفنا وقرأنا الفاتحة ودعونا الله تعالى راجين من كرمه وفضله حصول الإجابة، وقلنا في ذلك من النظام بحسب ما اقتضاه الإلهام:

زرنا الإمام المثني والقلب فيه تهني فإنه الحسن ابن السبط الإمام المكني

بالسيد الحسن ابن الزهراء حساً ومعنى بنت الرسول إمام الأنام إنساً وجناً...» (٢)

١-١ المصدر نفسه: ٣٢٤.

٢-٢ المصدر نفسه: ٣٢٤-٣٢٥.

ص: ٥٥

إحراق سعد بن زيد قرية سويقة ونخيلها

سويقة قرية من قرى ينبع النخل. قال المؤلف: «... هي المشهورة الآن عندهم بسويق منازل بنى إبراهيم... وقد وجدناها الآن خالية ليس بها أحد، وقد رحل أهلها وخرجوا على الشريف سعد بن زيد؛ لأنهم حالفوا قبائل «حرب» فذهبوا معهم يساعدونهم على قتاله، وهذه القرية فيها ماء جارٍ ونخل كثير...

فجلسنا على حافة ذلك الماء وشربنا القهوة مع الشريف سعد وولده وبقية من كان من فرسانهما، وقد أمر الشريف بحرق بيوت القرية، وإننا لنرى النار تتأخج في جدرانها التي هي من أخشاب النخل اليابس، والهواء يزيد لها تأججاً وتهيأ، وقد أمر بقطع النخل، فيصعد العبد الأسود إلى أعلى النخلة ويقطع جمارها وعراجينها، فتسقط العراجين إلى الأرض، كل عرجون فيه البسر الأخضر... ثم قمنا من ذلك المكان وركبنا وسرنا نحن ومن كنا معهم جميعاً حتى أفلنا على قرية الجابرية - نسبة إلى جابر - وهي بالقرب من قبر الإمام المثنى الذي ذكرناه فيما مر، فخرج أهل القرية يلعبون بالأسلحة لملاقاة الشريف،...» (١).

زيارة قبر الحسن المثلث

قال المؤلف: «... اليوم السادس والعشرون من شعبان، فعزنا على السير إلى المدينة المنورة... وأرسل - الشريف سعد - معنا فارساً من فرسانه، فذهب بنا على حسب طلق عنانه، بمكتوب منه إلى ولده الشريف مساعد... فركبنا وسرنا بعد الدعاء له وتوديعه... فمررنا على قرية سويقة المذكورة فيما تقدم، ثم سرنا قليلاً فوصلنا إلى قرية سويق وقت الظهر، وكأنا القريتان [سويقة وسويق] كانتا في الزمان المتقدم بلدة واحدة، وأسوارها المتهمة الآثار بذلك شاهدة، وهي الآن مسكن الأشراف من بنى إبراهيم وهم من ذرية الحسين ابن الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه الكريم، ووجدنا الشريف مساعد هناك... ونزلنا عنده هناك في بيت من بيوت القرية المذكورة... وفي تلك القرية بساتين كثيرة من النخيل

ص: ٥٦

والفواكه والموز ونهر كبير تتشعب منه سواقي جارئة، وأخبرونا أن هناك قبر الإمام الحسن المثلث، وهو الحسن المثلث ابن الحسن المثنى ابن الحسن الأول وهو سبط النبي صلى الله عليه و سلم ابن فاطمة الزهراء زوج علي رضي الله عنهم، فقرأنا الفاتحة ودعونا الله تعالى، ثم بينما نحن جالسون هناك وإذا برجل من العرب جاء من الشريف سعد بن زيد بمكتوب إلى ابنه مساعد فقرأه وقال لنا: قد عين الشريف أبي معكم هذا البدوي من عرب جُهينة، واسمه زُوَيْشِد- بصيغة التصغير- يأخذكم إلى المدينة، ففرحنا بذلك غاية الفرح، وزال عنا ما كان عندنا من التعب والترح...» (١).

المدينة المنورة

إنّ الشيخ النابلسي دخل المدينة المنورة في اليوم الثالث من شهر رمضان المبارك، بعد أن ذهب الثلثان من ليلته، وقد أغلق باب سور المدينة وكان يفتح كل يوم عند أذان الفجر، وصام هو وابنه ومن معه لهذا اليوم الثالث، بعد أن أكلوا السحور خارج سور المدينة المنورة.

وقد نقل الشيخ النابلسي في كتابه عن بعض الشعراء قطعاً في مدح الرسول الأمين صلى الله عليه وآله:

يا شفيع العصاة أنت رجائي كيف يخشى الرجاء عندك خييه

وإذا كنتَ حاضراً بفؤادي غيبة الجسم عنك ليست بغييه

ليس بالعيش في البلاد انتفاع أطيّب العيش ما يكون بطييه (٢)

\*\*\*

زيارة قبر النبي صلى الله عليه وآله ومحاربه

قال المؤلف: «... فقامت أنا وابني وآخر من جماعتي ودخلنا إلى المدينة، وأبقينا بقيّة جماعتنا عند الباب، لحراسة الأسباب والدواب، ثمّ توجهنا فقلت لمن

١-١ المصدر نفسه: ٣٢٨.

٢-٢ المصدر نفسه: ٣٣٢.

ص: ٥٧

معنا: خذنا على باب السلام، لندخل منه بسلام، فاشتبه عليه الحال، وكان سبق له الزيارة قبل هذه السنة بأعوام وأحوال، فأدخلنا من باب الرحمة، حتى دخلنا إلى الحرم الشريف، فوجدنا الجماعة في صلاة الصبح والرحمة، فقلت له: خذنا إلى شباك النبي صلى الله عليه و آله لنبدأ بالزيارة، ووصلنا إلى مرادنا... وصلينا بقرب محراب النبي صلى الله عليه و آله في الروضة الشريفه صلاة الصبح مع الإمام... ولنا في ذلك العهد من النظام بحسب ما اقتضاه المقام:

ليت شعري في يقظتي أم منامي إنني داخل بباب السلام

وعلى أحمد النبي صلواتي وعلى أحمد النبي سلامي...

كنت أرجو زيارةً منه حتى حقق الله بُعيتي ومرامي...

وترى الناس في الشبابيك شتى حول طه الرسول والشوق نامي

بين باكٍ وخاشعٍ بجواه يتشكى وقائم باصطلام...

والقناديل أوقدت وشموع مشرقات في قبضة الخدام...» (١)

بيت الإمام جعفر الصادق عليه السلام

إنّ الشيخ النابلسي ذهب إلى بيت شيخ الحرم يوسف آغا الطواشي، وكان في بيت شيخ الحرم محراب، وكان يشتهر هذا البيت، ب «بيت الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام».

قال المؤلف: «... ثم أخذ بيدي يوسف آغا... وذهبنا إلى داره شرقي الحرم الشريف، خارج باب النساء، وأنزلنا مع جماعتنا في داخل داره في مكان يقال: إنّه بيت جعفر الصادق، وفيه محراب، ونحن صائمون في ذلك اليوم من شهر رمضان...

وصلينا الظهر والعصر والمغرب والعشاء والتراويح في الروضة الشريفه، وزرنا حضرة النبي صلى الله عليه و سلم، ورجعنا إلى منزلنا، ولله درّ الإمام أبي العباس أحمد المقرئ عند زيارته الحضرة النبوية حيث قال:

ص: ٥٨

إليك أفرّ من زللى فرار الخائف الخجل  
 وكان مزار قبرك بال - مدينة منتهى أملى...  
 فتهديني إلى رشدى وتمنعنى من الزلل  
 وتحملنى على سنن يؤمنى من الوجل  
 فأنت دليل من عميت عليه مسالك السبل  
 وإنك شافع برّ ومؤلنا من الوهل  
 وإنك خير مبعث وإنك خاتم الرسل...  
 و أَلْحَقْنِي بِجَنَاتٍ لَدَىٰ دَرَجَاتِهَا الْأُولَىٰ...» (١).

ثم نقل المؤلف مائة اسم للمدينة المنورة وقال: «وللمدينة أسماء كثيرة، وكثرة الأسماء تدلّ على شرف المسمى» وذكر تلك الأسماء في الشعر وذكر أيضاً سور المدينة وسكتها الطويلتين المشتملتين على حوانيت وبيوت وقصور وأسواق، ونقل أسماء الأزقة وقال: «إنها كثيرة يتشعب بعضها من بعض، منها الأزقة الضيقة جداً، ومنها الواسعة كالمعتاد...» (٢). ثم ذكر أبواب الحرم النبوي الشريف الأربعة، أعمدته ومناراته وآداب وكيفية صعود المؤذن إلى المنارة للأذان و...

قال المؤلف: «وفي حائط الحرم الشرقي شباك مطلّ على الطريق قبالة الحجرة الشريفة، تمرّ الحجاج عليه بجمالهم ودوابهم بقصد التبرّك وزيارة النبي صلى الله عليه وسلم، وعموم البركة للإبل والدواب، فأبواب الحرم النبوي الأربعة؛ بابان يفتحان على الغرب، باب السلام وباب الرحمة، وبابان يفتحان على الشرق، باب البقيع وباب النساء، وطول الحرم النبوي الشريف من الحائط القبلي إلى الحائط الشمالي، اثنان وسبعون ذراعاً، كلّ ذراع ثلاثة أشبار، ومن الحائط القبلي إلى آخر المسقوف منه، اثنان وعشرون ذراعاً، ومن أول غير المسقوف إلى الحائط الشمالي ثمانية وأربعون

١-١ المصدر نفسه: ٣٣٥-٣٣٦.

٢-٢ المصدر نفسه: ٣٤٣.



ص: ٥٩

ذراعاً، وعرضه من المشرق إلى المغرب ستّة وثلاثون ذراعاً.

وجملته العواميد التي في الحرم الشريف، مائتان وواحد وتسعون عموداً، فالعواميد التي داخل المسقوف من الحرم مائة وثلاثون عموداً، وعواميد الرواق الغربي الذي في صحن الحرم أربعة وأربعون عموداً، وعواميد الرواق الشمالي ستّة وخمسون عموداً في أربعة صفوف. وفي صحن الحرم الشريف قبة كبيرة يحيط بها جدران أربعة، وبابها يفتح إلى الشرق لوضع الشمع والزيت، وبقرها مكان فيه نخلتان أو ثلاث نخلات، وبئر ماءه لطيف فيه بعض ملوحة.

وللحرم الشريف النبوي خمس منارات عاليات مرتفعات في الهواء يتراسل فيها المؤذنون في وقت السحر، وفي الأوقات الخمسة بالأذان والصلوات على النبي صلى الله عليه وسلم، فإذا دخل وقت الصلاة يأتي رئيس المؤذنين إلى شبّاك النبي صلى الله عليه وسلم ويسلم عليه ويقرأ الفاتحة، ويصلي على النبي صلى الله عليه وسلم بأعلى صوته، ويفتح باب المنارة التي عند الحجرة الشريفة، ويدخل وحده بالأدب، ويقفل الباب من الداخل ثم يصعد ويتدى هو بالأذان، وبقية المنارات الأربع إذا سمع المؤذنون صوته بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم عند الشبّاك صعدوا إليها، فإذا أذن أذنوا، وتسمى تلك المنارة «الرئيسية» فإذا فرغوا من الأذان يتدى الرئيس بالصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم وآله فيتبعه الثاني ثم الثالث، ثم الرابع، ثم يتدى الرئيس فيتبعه الباقون كذلك، واحد بعد واحد، على ثلاث أو أربع مرّات، ثم يختم الرئيس فيختمون بعده بالترتيب، فيكون ذلك على نحو ساعة .. وهذا الوضع في الأوقات الخمسة كذلك» (١).

أئمة الحرم النبوي الشريف وخطبائه

قال المؤلف: «وللحرم الشريف خمسة عشر إماماً، منهم الحنفيتون، ومنهم الشافعيون، وله أحد وعشرون خطيباً، منهم اثنا عشر خطيباً حنفيتون، وثمانية خطباء شافعيون، خطيب واحد مالكي، فالأئمة يصلون بالنوبة في كل يوم إمام

ص: ٦٠

واحد من الحنفية وإمام من الشافعية، فيبتدون من الظهر إلى الصبح، والإمام الشافعي يصلّي أولاً، ثم الإمام الحنفى إلّفى المغرب، فيتقدّم الإمام الحنفى لكراهة تأخير المغرب عنده. ويصلّي الإمام الحنفى يوماً فى محراب النبى صلى الله عليه وآله الذى فى الروضة الشريفة، فيصلّي الإمام الشافعى فى ذلك اليوم فى المحراب الذى خلف المنبر (محراب السلطان سليمان)، ثم فى ثانى يوم يصلّي الإمام الشافعى كذلك ويصلّي الحنفى مثل ما صلّى هو أول يوم» (١).

بقيع الغرقد

قال المؤلف: «ثم إننا ذهبنا إلى زيارة تربة البقيع وما فيها من قبور الصالحين... وهذه التربة واسعة مشتملة على مشاهد شريفة لجماعة من الصحابة وغيرهم. قال السهمودى: وفى مدارك عياض عن عياض عن مالك: أنه مات بالمدينة من الصحابة نحو عشرة آلاف وهناك من سادات أهل البيت والتابعين ما لا يحصى، غير أن غالبهم لا يعرف قبره ولا جهته، لاجتناب السلف البناء والكتابة على القبور مع طول الزمان، فمما عرف من ذلك مشهد إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وآله، وهناك قبر عثمان بن مظعون رضى الله عنه، روى عن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن أبيه، لَمّا توفى إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وآله أمر أن يدفن عند عثمان بن مظعون، فرغب الناس فى البقيع وقطعوا الشجر واختارت كل قبيلة ناحية... ومشهد العباس بن عبد المطلب، والحسن بن على، ومن معه من آل البيت. وذكر ابن النجار: أن مع الحسن فى قبره ابن أخيه زين العابدين، ومحمّد الباقر بن زين العابدين وجعفر الصادق بن محمّد الباقر ومعهم أيضاً فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله بقرب المحراب، وقدّمنا أن قبرها -الكلام للنايلسى- فى بيتها بقرب الحجرة الشريفة وهو المشهور والله أعلم. وهذان المشهدان متقاربان فى أول البقيع، وعلى كل واحد منهما بئان وأبواب تقفل وتفتح للزيارة، ولمشهد العباس قبة شامخة وله بابان: باب شمالي وباب غربى، ومشهد زوجات النبى صلى الله عليه وآله وفيه أربعة قبور ظاهرة، ولا يعلم تحقيق

ص: ٦١

من فيها منهنّ وعليه قبة لها باب يفتح للزيارة وهو بالقرب من المشهدين المذكورين... فوقفنا عند تلك المشاهد وقرأنا الفاتحة، ودعونا الله تعالى، ودخلنا إلى بعضها وجلسنا فيها متبركين بأنوار تلك الأرواح الطاهرة والأسرار الظاهرة، ومشينا من أول البقيع إلى آخره والتمسنا البركات ودعونا الله تعالى بأنواع الدعوات وفضائل هذه المقبرة بقيع الفرقد كثيرة كثيرة» (١).

أقول: بما أن للشيخ النابلسي حظاً وافراً في الشعر، فقد نظم أشعاراً عند كل موقف وعند زيارة قبر من قبور الصالحين، أو شخص جليل سواء أكان حياً أم ميتاً. فقد أنشد شعراً عندما زار البقيع وقبور الأئمة المدفونين فيه:

قد نعمنا بقبة العباس وبآل البيت الشريف الراسي  
يالها في البقيع من أفق نور ضاء بين القبور كالنبراس!..  
والإمام المفضل الحسن السبط وأخوه مطهر الأرجاس  
وعليّ نجل الحسين وزين العابدين الذي به إيناسي  
وابنه الباقر الذي بقر العلم بكشف عن أصله ومساس  
وكذا الصادق ابنه جعفر الصدوق ومن طاب في أجل غراس  
نورهم ساطع بها وهداهم جلّ للاقتداء والافتباس  
صلوات الإله منه عليهم كل حين مع السلام المواسي.. (٢)  
حلقات التدريس

إنّ الشيخ النابلسي - بعد أن طلب منه بعض طلاب المدينة المنورة أن يدرّس هناك - بدأ بالتدريس وذلك بعد أن قرّر أن لا يدرّس في المدينة إجلالاً لنبيّ الله الأكرم صلى الله عليه وآله. قال المؤلف: «... وكنت لما دخلت المدينة على شكل المذهول الطائش العقل من حين دخولي إليها، لا أتكلّم في شيء من العلوم، ولا أبحث مع أحد في منطوق

١-١ المصدر نفسه: ٣٥١.

٢-٢ المصدر نفسه: ٣٥٥.

ص: ٦٢

ولا مفهوم، هيبه من الحضرة المحمديه وإجلالاً، وحقارة لنفسى وإذلالاً... حتى وردت علينا جماعات ممن فى المدينة المنورة يقرؤون علينا فى منزلنا، فكنا نبقى فى الدير إلى وقت الظهر...» (١).

التبرك بشعر النبى صلى الله عليه وآله

قال المؤلف: «... وكان رجل من علماء الهند اسمه غلام محمّد وكنيته أبو محمّد يقرأ علينا... الفتوحات المكيه للشيخ الأكبر محبى الدين بن العربى... وكان يخبرنى أن فى قطر الهند عند اناس متعددين فى بلاد متعدده شعرات من شعر النبى صلى الله عليه وآله... وأخبرنى عن رجل من الصالحين فى الهند أنه يخرج ذلك فى كل سنة مره يوم التاسع من شهر ربيع الأول ويجتمع عنده ناس كثيرين... وقد نقل بعض المؤرخين - والكلام لازال للنايلسى - بأن الملك العادل نور الدين الشهيد كان عنده فى خزائنه شعرات من شعر النبى صلى الله عليه وآله وإنه لمّا مات أوصى أن توضع فى عينيه وأنها الآن موضوعة فى عينيه معه فى قبره، وقالوا: ينبغى لمن يزوره أن يقصد التبرك بذلك أيضاً، وهو الآن مدفون عندنا فى دمشق الشام، فى مدرسته التى بناها للعلماء والطلبه، وعليه قبه رفيعه البناء...» (٢).

زيارة الحجره الشريفه من الداخل

قال المؤلف: «ذهبنا إلى الحرم الشريف فصلينا الظهر بعد زيارة النبى صلى الله عليه وآله ثم صلينا العصر على عادتنا واجتمعنا بشيخ الحرم، فقال لنا ابتداءً: تريدون أن تدخلوا إلى داخل الحجره الشريفه؟ فقلنا له: إن أراد الله تعالى كان ذلك، وكيف لنا بذلك؟ فقال: إن أردتم فى هذه الليله وقت المغرب، وإن أردتم فى وقت الصباح فقلنا له: وقت المغرب أقرب. فأرسل إلى الطواشيء يأمرهم بإدخالنا، فشددنا فوق القبا من الصوف الأحمر الذى كنا نلبسه شاله من صوف على هيئة الخدام، وفتح باب الحجره الذى هو باب فاطمه رضى الله عنها، ودخل قدامنا طواشى من الخدام، ووراءنا طواشى اخر،

١-١ المصدر نفسه: ٣٦٧-٣٦٨.

٢-٢ المصدر نفسه: ٣٦٨.

ص: ٤٣

وأعطونا شعلة من الحديد في رأسها شعلة من نار، والطواشي معه إناء من الفخار لوضع المشعلة فيه حتى جئنا في داخل الحجره... ورفعت يدي وقرأت الفاتحة ودعوت الله تعالى...» (١).

تمور المدينة

بما أن للشيخ النابلسي وقتاً خاصاً للبحث والتحقيق فقد جمع مطالب جميلة عن تمور المدينة وأسمائها المختلفة وقال: «... والتمر في المدينة أنواع كثيرة وهو من أحسن التمر، ومنه نوع يسمى الحلوى، كل واحدة مثل الخيارة الصغيرة، يقطر العسل منها،... انتهى ما وجدناه، فجملته مائة وثلاثة عشر نوعاً...» (٢).

زيارة مسجد قبا

تشرّف المؤلف بزيارة مسجد قبا في يوم الاثنين السادس من شهر شوال، وقد نقل مطالب مفيدة من كتب الحديث والتاريخ حول قبا ومسجده، ونقل أيضاً من تلك المصادر مساحة المسجد وتجديد عمارته على مَرَّ العصور ثم يقول: «...»

وهو الآن عتق بنيانه فهو محتاج إلى التجديد والعمارة، فنسأل الله تعالى أن يبسر ذلك على يد أهل الخير...» (٣).

محراب الكشف

قال المؤلف: «... وفي ذلك المسجد [مسجد قبا] محراب ومنبر عظيم وفي آخر الحائط القبلي محراب آخر يسمى محراب الكشف؛ لأن النبي صلى الله عليه وآله كشف له هناك عن مكة وعن الكعبة، وهناك محراب آخر يقال: إن الآية الشريفة نزلت هناك وهي قوله تعالى: لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ...» (٤).

الآية، وهذه الآية مكتوبة على المحراب وبالقرب منه محراب آخر يقال له: مبرك الناقه... وهي آثار حسنة في مسجد مبارك، فينبغي التبرك بها على كل حال، فصلينا في كل محراب ركعتين» (٥).

١-١ المصدر نفسه: ٣٤٨.

٢-٢ المصدر نفسه: ٣٧٠-٣٧١.

٣-٣ المصدر نفسه: ٣٨٩.

٤-٤ سورة التوبة: ١٠٨.

٥-٥ الحقيقة والمجاز: ٣٩٠.

ص: ٦٤

مسجد علي بن أبي طالب، ومسجد السيدة فاطمة، ومسجد الشمس

ومما يجدر ذكره أن النابلسي ذكر كلاماً حول هذه المساجد الثلاثة بأنها كانت قريبة لمسجد قبا وكانت عامرة أيضاً، وإليك نصّه:  
 «... ثم خرجنا من ذلك المسجد [يعني مسجد قبا] ومشينا قليلاً، فدخلنا إلى مسجد الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو مسجد صغير فصلينا فيه ركعتين ودعونا الله تعالى، ثم خرجنا فمشينا قليلاً إلى مسجد السيدة فاطمة رضي الله عنها، فصلينا فيه ركعتين ودعونا الله تعالى، ثم خرجنا ومشينا قليلاً إلى مسجد يقال له مسجد الشمس... فدخلنا ذلك المسجد وصلينا فيه ركعتين ودعونا الله تعالى...» (١).

زيارة حمزة رضي الله عنه بأحد

قال المؤلف: «... مزار سيد الشهداء حمزة رضي الله عنه، وهو في ذيل جبل احد، وحوله في الخارج قبور شهداء أحد، وكانت قصبة أريد هناك مع المشركين، فدخلنا إلى مزاره الممتلى بالهيبة والجلال، وعليه قبة عظيمة، وحوله مسجد شريف فيه محراب، وله منارة لطيفة عالية، وقبره كبير عظيم، وعليه دابر من الخشب في غربي المسجد، وله شبكة من الحديد... وقفنا هناك بقرب قبر السيد حمزة رضي الله عنه وقرأنا الفاتحة ودعونا الله تعالى...» (٢).

حفل المولد لحمزة سيد الشهداء

قال المؤلف: «... وخرجنا [من مزار حمزة] وقرأنا الفاتحة لبقية الشهداء، شهداء أحد، ودعونا الله تعالى عند قبورهم، ورأينا تلك المصاطب (٣) المعمرة هناك لأكابر أهل المدينة المنورة، وعلمائها وأعيانها، كل واحد منهم له مصطبة معلومة، يجتمعون هناك في كل سنة في شهر رجب، يمكث الناس فيه من أول الشهر إلى ثاني عشر يوم منه، ويعملون المولد للسيد حمزة رضي الله عنه، وتخرج إليه البياعون بأنواع المآكل وغيرها، ويصير الموسم كأيام منى في مكة، ويأتي إلى هذا المولد اناس من مكة ومن الطائف ومن اليمن ومن العرب وغيرهم» (٤).

١-١ المصدر نفسه: ٣٩٠-٣٩١.

٢-٢ المصدر نفسه: ٣٩٥.

٣-٣ المصاطب جمع مصطبة، هي مجتمع الناس، وهي أرض شبه الدكان، يجلس عليها ويتقى بها الهوام بالليل. مجمع البحرين ٢: ٦٠٧.

٤-٤ الحقيقة والمجاز: ٤٠١.

ص: ٦٥

قبر هارون بن عمران

قال المؤلف: «... وقد رأينا في رأس جبل أُحُد قَبْرَهُ، فأخبرونا أنّ فيها قبر هارون بن عمران عليهما السلام، وقد ذكر السهمودي في تاريخ المدينة في أوائل الفصل الأوّل من الباب الثالث عن ابن شَبَّه بسند لا بأس به... أقبل موسى وهارون عليهما السلام حاجين فَمَرَا بالمدينة فخافا من يهود فخرجا مستخفين فنزلاً أُحُداً فغشى هارون الموت، فقام موسى عليه السلام فحفر له لحداً، ثم قال: يا أخى إنك تموت، فقام هارون عليه السلام فدخل في لحده فقبض فحشى عليه موسى عليه السلام التراب؛ انتهى، فوقفنا قبالة ذلك وقرأنا الفاتحة ودعونا الله تعالى ثم ذهبنا إلى مسجد القبلتين...» (١).

زيارة مسجد القبلتين

قال المؤلف: «... دخلنا إليه [مسجد القبلتين] متبركين به، ورأينا في داخله محراباً إلى جهة القبلة وفي خارجه محراباً آخر إلى جهة بيت المقدس، وهو مسجد قديم رثّ البنيان، بعضه متهدّم... فدخلنا إلى داخله وصلينا ركعتين إلى محرابه الذي نحو الكعبة ودعونا الله تعالى، وقد بلغنا أنّ بعض الجهّال من الحجّاج يصلّي ركعتين إلى المحراب الذي نحو بيت المقدس بقصد التبرّك بالقبلة الاولى، بأمر الجهّال من المزورين، وهو فعل حرام لا يجوز، بل المعتمد لذلك يخشى عليه الكفر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم» (٢).

زيارة المساجد الخمسة

قال المؤلف: «ثم ذهبنا مع الاخوان إلى زيارة المساجد الخمسة بين هاتيك الجبال فابتدأنا بالصعود إلى مسجد الفتح الذي هو أعلى الجميع... ثم نزلنا إلى المسجد الذي في أسفل الجبل، المعروف بمسجد أبي بكر... ثم دخلنا إلى مسجد سلمان الفارسي... ثم ذهبنا إلى مسجد النبيّ صلى الله عليه وآله الذي بات فيه ليلة الأحزاب، وهو مسجد واسع ليس له سقف، فدخلنا إليه ودعونا الله تعالى فيه، وهو مكان يقال له شعب بنى حرام... وهو الذي الآن يسمّى مسجد النبيّ صلى الله عليه وآله؛ لأنه صلّي فيه، وتحولهم

١-١ المصدر نفسه: ٤٠١.

٢-٢ المصدر نفسه: ٤٠١-٤٠٢.

ص: ٤٤

إلى هذا الشعب كان يأذنه صلى الله عليه و سلم، ويقرب من ذلك مغارة النبي صلى الله عليه و آله وهو كهف سلع وهو كهف بنى حرام، مكان يقصد للتبرك به» (١).

أقول: لم يذكر المؤلف المسجد الخامس بل ذكر أربعة منها فقط وهى: مسجد الفتح، ومسجد أبى بكر، ومسجد سلمان الفارسى، ومسجد النبى، ويحتمل أن المراد من الخامس من تلك المساجد هو مسجد القبلتين.

ولا يخفى أن المساجد الموجودة الآن فى هذه المنطقة المختصة لحرب الأحزاب، هى كالتالى:

١- مسجد الفتح ٢- مسجد سلمان الفارسى ٣- مسجد أبى بكر ٤- مسجد فاطمة، وهذا المسجد صغير جداً ليس له سقف، وقد سدوا بابه بالجدار الاسمتى سنة ١٤٢٠ الهجرية، وقد ذكرت هذا المطلب حتى يبقى كشاهد فى زاوية من زوايا التاريخ؛ لأنه يخاف هدمه وتخريره. ٥- مسجد الإمام على بن أبى طالب.

زيارة مسجد النبى (مسجد غمامة)

قال المؤلف: «ثم بعد صلاة العصر فى الحرم النبوى وزيارة النبى صلى الله عليه و آله ذهبنا مع الإخوان إلى خارج الباب المصرى وزرنا مسجد النبى صلى الله عليه و آله فى خارج المدينة وعليه قبة وفيه جلاله ومهابه وزرنا بالقرب منه مسجد أبى بكر ومسجد الإمام على وتبركنا بتلك الآثار، وتملينا بهاتيك الأنوار...» (٢).

أقول: يبدو أن المراد من المسجد فى قوله: مسجد النبى، هو مسجد غمامة وأراد من المسجد معنى اسم المكان فقط. أى المحل الذى سجد فيه رسول الله صلى الله عليه و آله، وليس المراد منه المسجد النبوى الشريف، ومسجد غمامة معروف الآن وهو بقرب مسجد الإمام على عليه السلام ومسجد أبى بكر وتقام فيه صلاة الجماعة.

ولا يخفى أن الباب المصرى كان فى غرب المسجد النبوى الشريف ومن أراد أن يذهب إلى مسجد غمامة... كان يخرج من الباب المصرى الذى كان ملاصقاً

١- المصدر نفسه: ٤٠٢.

٢- المصدر نفسه: ٤٠٨.



ص: ٤٧

بسور المدينة المنورة، ولم يكن آنذاك باب في الناحية الغربية من المدينة المنورة سوى الباب المصري.  
قبر محمد بن عبدالله المحض

خرج الشيخ النابلسي ذات يوم إلى ضيافة صديق له كان بيته خارج الباب الشامي - كان الباب الشامي شمال المسجد النبوي الشريف وقبال جبل أحد- وكان هناك قبر محمد بن عبدالله المحض بن الحسن المشي ابن الإمام الحسن المجتبي سلام الله عليه.  
قال المؤلف: «... وكان في مقابلة المكان الذي نحن فيه، مدفن الإمام الزكي محمد بن عبدالله المحض بن الحسن المشي ابن الإمام الحسن السبط ابن الإمام علي المرتضى رضي الله عنهم وعليه قبة ذات هيبة وتلالى...» (١).  
مكتبة الحرم النبوي الشريف

زار الشيخ النابلسي خزانة الكتب الموجودة في مكتبة الحرم النبوي الشريف في يوم الثلاثاء، الخامس من شهر ذي القعدة الحرام، فوجد كتباً كثيرة في علوم شتى منها: الجامع الكبير في الحديث للسيوطي في خمسة مجلدات كبار. ومنها:  
تاريخ دمشق لابن عساكر في خمسمائة وسبعين مجلداً، ونقل هذه العبارة من الجزء الأخير من تاريخ دمشق:  
«... تم الجزء السبعون والخمسمائة، وهو آخر الأجزاء جميعها، وهذا آخر ما تيسر من هذا الكتاب، والله الموفق فيه للرشاد والصواب...» (٢).

ثم استعار النابلسي كل أجزاء هذا الكتاب من خزانة الكتب وقال:

«... فاستعرت هذه الأجزاء كلها وجئت بها إلى منزلي وطالعت فيها ونقلتها منها ما أردت، ثم أرجعتها إلى محلها من خزانة الكتب المذكورة» (٣).

ليلة الكينس

قال المؤلف: «... وكانت هذه الليلة [السابعة عشرة من شهر ذي القعدة

١-١ المصدر نفسه: ٤١٥.

٢-٢ المصدر نفسه: ٤٢٥.

٣-٣ المصدر نفسه: ٤٢٦.

ص: ٤٨

الحرام] تسمى عند أهل المدينة ليلة الكنيس؛ لأن في صبيحتها يكنسون الحرم الشريف، ورأينا بعض الناس من عادتهم أن من عليه ديناً منهم، يجمع شيئاً من حبّ القمح بمقدار ما عليه من الدين، ويضعه في خرقة بيضاء ويعقدها ويرميها من داخل الحجرة الشريفه من الشباك المكرّم، ويقولون: إن ذلك سبب لقضاء ما عليهم من الدين ببركة النبي صلى الله عليه وآله...

ثم من عادة أهل المدينة في مثل هذا اليوم [اليوم السابع عشر] أنهم بعد فراغهم من كنس الحرم الشريف، يخرجون إلى خارج المدينة، ويذهبون إلى حدائق النخيل، يتنزّهون وينسبطون في المآكل والمشارب، ويحصل لهم الانسراح والصفاء... فيجتمعون في مكان يقال له القرين؛ بصيغة التصغير، وهو قريب من المدينة على نحو نصف ساعة، ويقون هناك إلى العشي، ثم يعودون كذلك بالذكر والنشيد، وتخرج النساء والرجال والأولاد لأجل الفرحة عليهم، ويصير يوماً عظيماً. وقد خرجنا نحن وجماعتنا إلى بستان هناك قريب من بئر بضاعة، يسمى بالفيروزية وبقينا إلى آخر النهار...» (١).

زيارة قبر الإمام جعفر بن محمد الصادق

قال المؤلف: «... ذهبنا مع بعض الأصحاب إلى جهة بئر بصة من جهة البقيع، وهو في داخل بستان فيه نخيل، وهناك بركة ماء واسعة بجانب ذلك [تللك] البئر... ثم عدنا إلى الحرم الشريف فزرنا في الطريق قبر سيدنا جعفر الصادق رضي الله عنه، في مكان عظيم بقبة مستقلة، وقرأنا الفاتحة ودعونا الله تعالى، وصلينا المغرب والعشاء في الحرم الشريف وزرنا النبي صلى الله عليه وسلم» (٢).

إلى الميقات

خرج الشيخ النابلسي من المدينة المنورة يوم الأربعاء، وهو اليوم السابع والعشرون من ذي القعدة الحرام، متوجّهاً إلى مكة المكرمة لأداء مناسك الحج.

وبما أن في مزاجه ضعفاً وأنّ الوقت غير قابل للتحمل، فلم يحرم من ميقات ذي

١-١ المصدر نفسه: ٤٣١.

٢-٢ المصدر نفسه: ٤٣٥.

ص: ٦٩

الحليفة؛ لأنه أبعد المواقيت عن مكة المشرفة، فهو لأجل كل ذلك راجع الكتب المختصة بفقهاء الحنفية، وبدأ أيضاً بكتابه رساله حول الترخيص بالإحرام من رابغ.

وبعد أن أحرم مرافقه من ميقات ذى الحليفة، سار إلى منزل الشهداء الذى يسمى منزل التجار وليس منزلاً للحجاج، ثم سار إلى قرية الغزاة، ثم إلى قرية الجديده، ثم وادى الصفراء، وهى مشتملة على نحو ست أو سبع قرى؛ يمنه الذهاب إلى مكة ويسرته... ثم إلى بدر.

قال المؤلف: «... وبدر هذه كثيرة الماء يجرى فيها الماء على وجه الأرض، غير البركة التى يستقى منها الحجاج... وهناك محلّ الشهداء الذين استشهدوا فى غزوة بدر مع النبى صلى الله عليه و سلم، وهناك جامع الغمامة، وهو جامع عظيم مبارك، فمكثنا فى ذلك المنزل مع الحجاج...» (١).

ثم سار النابلسى مع القافلة حتى نزل فى منزل القاع، وليس فيه ماء وهو بزيه واسعة سهله الجوانب، لا انخفاض ولا ارتفاع، ثم وصل إلى قرية المستورة، ثم سار نحو ساعتين حتى وصل منطقه رابغ.

قال المؤلف: «ذهبنا فاغتسلنا فى تلك البركة الواسعة، وكان الماء فى نصفها وهى غير نابعة، والناس ينزلون فيها للاغتسال، ثم أحرمنا بالعمرة من ذلك الميقات (٢) بقصد التمتع».

ثم قال: «... ثم مررنا بمكان فيه من الرمل الكثير... يسمى ذلك المكان بالرمل الدفين... فقطعناه مع الحجاج بجهد جهيد وتعب ما عليه من مزيد...» (٣).

١-١ المصدر نفسه: ٤٣٨.

٢-٢ لم نجد فى رحلته هذه إشارة إلى ميقات الجحفة، بل المذكور فيما كتبه هو: «ثم أحرمنا بالعمرة من ذلك الميقات...». وكتب أيضاً فى الصفحة ٤٣٧: «وعملنا رساله فى الترخيص بالإحرام من رابغ...»، فعلى ذلك لا يعلم من هذين النصين أن المؤلف هل أحرم من الجحفة- نفس الميقات- أو أحرم من المحاذة، ولا يخفى أنه هل منزل رابغ كان محاذياً للميقات أم لا؟ فهذا أول الكلام!، ولا بد للحصول على كل ذلك إلى الدقة والبحث والمراجعة.

٣-٣ المصدر نفسه: ٤٣٩.

ص: ٧٠

منازل الحجيج في الطريق إلى مكة سنة ١١٠٥ الهجرية

مىقات ذى الحليفة (المدينة المنورة) - منزل الشهداء - قرية الغزاة - قرية الجديدة - وادى الصفراء - بدر - منزل القاع - قرية المستورة - رابع - الجحفة - منزل القديد (بالتصغير) قرية من قرى مكة المشرفة - عقبه السكر - خليص (بالتصغير) قرية من قرى مكة المشرفة - مُدْرَج عُشْفَان وهو كثير الأوعار من الرمل والأحجار، وادى بين جبلين، فيه العلوّ والهبوط، والارتفاع والسقوط، والاستقامة والإعوجاج، بحيث يضرب به المثل بين الحجاج، يقولون للمعوج غير المستقيم: من كل شيء يهان، كأنه مُدْرَج عُشْفَان - عُشْفَان، وهو قرية من قرى مكة المشرفة - وادى فاطمة، ويقال: إنما سمي بذلك؛ لأنه وقف للسيدة فاطمة - سلام الله عليها، وفيه ماء غزير، ونخل كثير، وبساتين مؤتلفة، وفواكه مختلفة - التنعيم (١).

مكة المكرمة

قال المؤلف: «... ذهبنا جهة مكة المشرفة... حتى دخلنا قبل جميع الحجاج... وكان ذلك اليوم؛ يوم الجمعة، وهو اليوم السادس من ذى الحجة، فتفرقت الحجاج في مكة... وحين شاهدنا الكعبة تذكرنا بشعر محمد بن محمد البدرى الأندلسى الغرناطى: مولاي بالباب ذو فاقة وهذا محط خطايا الامم فجد لى بعفوك عن زلتى فجدود الكريم بقدر الكرم...» (٢).

لقد ذكر الشيخ النابلسى مطالب حول مكة المكرمة من وجه تسميتها وأسمائها وجبالها وتجديد بناء الكعبة على مرّ العصور، واستفاد من المصادر الخاصة بهذا المورد؛ كالأحكام السلطانية للماوردى، وأخبار مكة للأزرقى، والإعلام بأعلام بيت الله الحرام و...

١-١ المصدر نفسه: ٤٣٩ - ٤٤٠.

٢-٢ المصدر نفسه: ٤٤١.

ص: ٧١

وللأسف الشديد أنه لم يحك ما رأى بعينه في الحرم المكي الشريف وما جاوره من الأماكن والآثار؛ لنستفيد منه ونعرف ما فيها أيضاً، بل المؤلف اكتفى بنقل ما جاء في المصادر الموجودة في أيدينا، والحق أنه ذكر أشياء كثيرة من المشاهد والآثار التي لا يمكن التعرف عليها بسهولة ولم يذكر في سائر الكتب مثلها.  
الهوامش:

**حدود الطواف ومكانه دراسة فقهية استدلالية مقارنة**



ص: ٧٣

حدود الطواف ومكانه دراسةً فقهيةً استدلاليةً مقارنةً

حيدر حبّ الله

وقع بحث فقهي بين المسلمين في المدى الذي لا بدّ أن يحتفظ به الطائف بالكعبة الشريفة حين طوافه، أو بتعبير آخر في مكان الطواف المحدّد في الشريعة الإسلامية، ففي الوقت الذي كان البحث على المستوى السنّي ينصبّ على مسألة الطواف داخل المسجد في قبال الطواف خارجه، كان البحث الفقهي في الدائرة الشيعية يتركز في نطاقٍ أضيق ألا وهو اشتراط كون الطواف بين الركن - أي بين البيت - ومقام إبراهيم عليه السلام؛ ومن هنا يمكن القول بأنّ المسألة المبحوثة في الفقه الشيعي فيما يتعلّق بمكان وحدود الطواف ليس لها أثرٌ - كشرطيّة - في الوسط الفقهي السنّي على ما سوف يظهر إن شاء الله تعالى، وأنّ المسألتين المبحوثتين في الفقهين تقع إحداهما داخل الأخرى تقريباً.

التأريخ الفقهي للمسألة

ووفق ما تقدّم من الضروري تقديم إطلالة تاريخية حول هذه المسألة على مستوى الفقه الإسلامي عامةً؛ الشيعي والسنّي.

ص: ٧٤

أ- المسألة على ضوء الفقه الشيعي

ذهب مشهور الفقهاء من الإمامية (١) إلى ضرورة كون الطواف الواجب بين البيت ومقام إبراهيم عليه السلام، بل ادعى بعض الفقهاء الإجماع عليه كما في غنية النزوع (٢)، وإن كانت عبارة الفيض الكاشاني تفيد عدم جزمه إن لم نقل جزمه بعدم انعقاد إجماع؛ لأنه عتبر «بل كاد يكون إجماعاً» (٣)، بل في جامع المدارك أن مضمون خبر ابن مسلم الآتي متفق عليه بين المسلمين علماً وعملاً ولعل كلامه شامل للحكم هنا (٤).

وفي قبال هذا الرأي المشهور (٥) أو الأشهر على حدّ تعبير صاحب الحقائق (٦) هناك قولان آخران هما:

القول الأول: ما ذهب إليه ابن الجنيد كما نقل عنه العلامة في المختلف (٧)، وهو منسوب أيضاً إلى الشيخ الصدوق (٨)، والظاهر أن السبب في نسبة هذا القول إليه مع أنه لم يذكره في المقنع والهداية هو نقله خبر الحلبي الآتي الذي استفيد من قبل البعض دلالة على هذا التفصيل في الفقه (٩)، وفقاً لما تعهّد به في أول الكتاب من عدم إيراده إلّما يراه حجّةً بينه وبين ربّه، وسيأتي أن الخبر غير دالّ، ومعه فيحتمل أن الصدوق قد فهم منه ما سوف نفهمه منه لاحقاً، وهذا كافٍ في عدم الجزم بنسبة هذا القول إليه.

وعلى أيّة حال فهذا القول يظهر شيء من الميل إليه أيضاً عند الحرّ العاملي والعلامة الحلّي ٠ وغيرهم (١٠)، وهو سقوط هذه الشرطية وجواز الطواف خارج المقام عند الضرورة، ولعلّ صاحب هذا القول قد اعتمد على صحیحة الحلبي الآتية كما تشير إليه بعض الكلمات، وإن كانت الصحیحة لا تفيد هذا القول كما سنلاحظ لاحقاً إن شاء الله تعالى.

والذي يبدو في إطار الفرق بين هذا الرأي وما ذهب إليه المشهور؛ هو أن وقوع الطواف بين هذين الحدّين يمثّل شرطاً لصحّة الطواف بصورةٍ دائمةٍ بحيث إنه

١- ١ ذهب إلى هذا القول كلّ من الشيخ الطوسي في المبسوط ١: ٣٥٦-٣٥٧، والنهاية: ٢٣٧، وابن حمزة في الوسيلة: ١٧٢، وابن زهرة الحلبي في غنية النزوع: ١٧٢، والحلّي في السرائر ١: ٥٧٢، وابن البرّاج في المهذب ١: ٢٣٣، وإن لم يذكر هذا الشرط في «جواهر الفقه»، وابن مجد الحلبي في إشارة السبقي: ١٣١، والشهيد الأول في الدروس ١: ٣٩٤، واللمعة: ٧٠، والشهيد الثاني في المسالك ٢: ٣٣٤، والروضة ٢: ٢٤٩، والمحقّق الحلّي في الشرائع ١: ١٩٩، والمختصر النافع: ٩٣، والعلامة الحلّي في المختلف ٤: ٢٠٠ وإن نسب إليه فيه غيره، والقواعد ١: ٤٢٦، وإرشاد الأذهان ١: ٣٢٤، وتحرير الأحكام ١: ٥٨١، وقطب الدين البيهقي في إصباح الشيعة بمصباح الشريعة: ١٥٥، والفيض الكاشاني في مفاتيح الشرائع ١: ٣٦٩ حيث يظهر منه الميل إليه فيه، والشيخ النجفي في جواهر الكلام ١٩: ٢٩٥-٢٩٩، والمحقّق النراقي في المستند ١٢: ٧٥-٧٦، والمحدّث البحراني في الحقائق ١٦: ١١٠ لكنّه في آخر بحثه جعل المسألة في غاية الإشكال ومال إلى الاحتياط ص: ١١٤، والسيد الطباطبائي في الرياض ٦: ٥٣٦-٥٣٧، والفاضل الهندي في كشف اللثام ٥: ٤٢٠، والمحقّق الأردبيلي في مجمع الفائدة والبرهان ٧: ٨٥-٨٧، والمحقّق الكرّكي في جامع المقاصد ٣: ١٩٣، وابن سعيد الحلّي في الجامع للشرائع: ١٩٧، والمحقّق العراقي في شرح تبصرة المتعلّمين ٤: ١١٥، والشيخ الأراكي في مناسك الحجّ: ١٢٤، والسيد الخوانساري في ظاهر جامع المدارك ٢: ٤٩٤-٤٩٥، والإمام الخميني في تحرير الوسيلة ١: ٣٩٧ والسيد السبزواري في مناسك الحجّ: ٩٦ وإن كان له رأي آخر سيأتي.

هذا واحتاط السيد الكلّبايگاني وجوباً في مناسك الحجّ: ١١١، وإن تغير رأيه أخيراً كما أن الشيخ الطوسي في الخلاف ٢: ٣٢٤-٣٢٥ ذكر عدم جواز الطواف بالسقاية وزمزم، ونسب للشافعي الجواز، واستدلّ الطوسي لرأيه بالقطع بالجواز دون ذلك وغيره غير مقطوع



- به فلاحتياط يقتضى عدمه.
- ٢-٢ غنية النزوع: ١٧٢.
- ٣-٣ مفاتيح الشرائع ١: ٣٦٩.
- ٤-٤ جامع المدارك ٢: ٤٩٥.
- ٥-٥ نصّ على شهرة هذا القول النراقي في المستند ١٢: ٧٥، والسيد العاملي في المدارك ٨: ١٣١، والطباطبائي في الرياض ٦: ٥٣٦، والسيد الخوئي في مناسك الحجّ: ١٤٥ مسألة ٣٠٣، والشهيد في الدروس ١: ٣٩٤، والخراساني في كفاية الأحكام: ٦٦، والعراقي في شرح التبصرة ٤: ١١٣.
- هذا وقال الأكثر كما في الحدائق ١٦: ١١١، والمعروف من مذهب الأصحاب كما في ذخيرة المعاد: ٦٢٨، ولا خلاف معتدّ به أجده كما في الجواهر ١٩: ٢٩٥، وممّا لا خلاف فيه بين الأصحاب كما في مجمع الفائدة والبرهان ٧: ٨٥ وغيرهم.
- ٦-٦ الحدائق الناضرة ١٦: ١١٠.
- ٧-٧ كتاب مجموعة فتاوى ابن الجنيد: ١٣٦ نظمه الإشتهااردى.
- ٨-٨ نسبه إليه في مفاتيح الشرائع ١؛ ٣٦٩.
- ٩-٩ الفقيه ٢: ٢٤٧ باب ١٣٢ من الحجّ. ط دار التعارف ١٩٩٠ م.
- ١٠-١٠ يظهر منه الميل إليه في منتهى المطلب ٢: ٤٩١، وتذكرة الفقهاء ٨: ٩٣، وهو ظاهر عنوان الحرّ العاملي في الوسائل ج ١٣ كتاب الحجّ- أبواب الطواف باب ٢٨، والشيخ الأنصارى في رسالة مناسك الحجّ: ٢٠٥-٢٠٧، وقد وافقه فيه حسب الظاهر كلّ من الميرزا محمّد حسن الشيرازى والآخوند الخراسانى والسيد كاظم اليزدى والشيخ عبد الكريم الحائرى والميرزا محمد حسن أحمدى يزدى، وقد شرط الشيخ الأنصارى اتصال الطائف بالبقية لو تجاوز مع الضرورة.

ص: ٧٥

حتى لو عجز عنه الإنسان فإن الشرطية تبقى على حالها؛ لعدم شمول أدلة الاضطرار ونحوه لها ما دامت لا تمثل تكليفاً شرعياً بقدر ما تمثل حكماً وضعياً يوجب انتقال الوظيفة في حال عدم توفره للعجز إلى الاستتابة، وهذا بخلاف المنقول عن ابن الجنيد فإن الشرطية بنفسها مقيدة بمورد القدرة دون العجز والاضطرار.

القول الثاني: عدم اعتبار هذا الشرط سواءً عند الاختيار والقدرة أو حال العجز والاضطرار، وإنما العبرة بصدق الطواف بالكعبة المشرفة عرفاً على الطائف، فلو كان بعيداً جداً بحيث لم يصدق عليه أنه يطوف بالبيت إلبعنايةً وتكلفٍ لم يصح.

وقد ذهب إلى هذا الرأي السيد الخوئي (١) والسيد السبزواري في مهذب الأحكام (٢) وغيرهما (٣)، فيما اعتبر في «كفاية الأحكام» أن العدول عن مقتضاه مشكلٌ فيما القول بالشرطية أحوط (٤)، واستحسنه التراقي في المستند لولا الإجماعات والشهوات (٥) و..، كما أن جملةً من الفقهاء لم يذكروا هذه الشرطية في أبحاثهم في الحج كالسيد المرتضى في الناصريات وجمل العلم والعمل والانتصار، وكذلك سائر في المراسم العلوية، وأبو الصلاح الحلبي في الكافي، والصدوق في كتابيه الفقهيين المقنع والهداية، والشهيد الصدر في مناسك الحج وغيرهم، وقد يفهم من بعضهم بقرينة السياق أنه لا يرى هذا الشرط. كما أن السيد الكلبي كان احتياطاً وجوباً في هذا الشرط في مناسكه مما قد يوحي بعدم ثبوته عنده علمياً وقد أفتى آخر عمره بصحة الطواف خارج الحد بشرط اتصال الطائفين (٦).

وبهذه الصورة يتضح - زائداً عن أن المسألة ذات مدرَكٍ واضح سنذكره لاحقاً - يضعف من حجية الإجماع هنا - أن لا حجية لدعوى الإجماع في المقام بعد ملاحظة ما تقدم، وعليه فما ذكره في الغنية من الاستدلال بالإجماع (٧) ونحوه غيره غير دقيق، كما أن ما ذكره البعض من مناقشة لهذا الإجماع بأن المقدار المنعقد عليه هو صحة الطواف بين الركن والمقام لا بطلانه في الزائد عن المقام (٨) ... وما ذكره

١- ١ مناسك الحج: ١٤٥ وجعل رعاية الاحتياط مع التمكن أولى، والمعتمد ٤: ٣٤٢.

٢- ٢ مهذب الأحكام ١٤: ٦١-٦٢.

٣- ٣ ففي الكفاية: ٦٦ إن العدول عنه مشكلٌ والقول به أحوط، ونحوه الذخيرة: ٦٢٨، وفي مدارك الأحكام ٨: ١٣١ أنه غير بعيد والمشهور أولى، وذهب إليه أيضاً السيد الروحاني في مناسكه: ١٢٥.

٤- ٤ ن. م.

٥- ٥ مستند الشيعة ١٢: ٧٦.

٦- ٦ مناسك الحج: ١١١. وانظر آراء المراجع في الحج: ٢٣٨.

٧- ٧ غنية النزوع: ١٧٢.

٨- ٨ رسالة مناسك الحج للشيخ الأنصاري - تعليقه الميرزا محمد حسن أحمدى يزدي: ٢٢٠.

ص: ٧٦

هذا البعض غير واضح، فإنه على تقدير تحقق الإجماع هنا من الواضح بملاحظة كلمات الفقهاء أن بطلان الطواف في الخارج عن المقام كان مصرحاً به عندهم على حدّ تصريحهم بصحة الطواف الواقع بينهما، والتفكيك بين الأمرين إن تمّ فإنما يتمّ في مقدارٍ ضئيلٍ جداً من العبارات الفقهية، الأمر الذي لا يضرّ بقوة الإجماع، لا سيما وأنّ التفكيك ظهر بدلالةٍ سلبيةٍ سكوتيةٍ ولم يصرّح به لديهم.

وعلى أيّة حال فالإجماع من الناحية الصغرى غير محرّز، لا سيما وأنّ أمثال السيد المرتضى وسلار وأبي الصلاح والصدوق من المتقدّمين لم يذكروا مثل هذا الشرط في أحكام الطواف وواجباته.

كما ظهر أيضاً أنّ القول بلزوم كون الطواف داخل المسجد الحرام هو مقتضى الشرطية المتقدّمة، وعدم تصريح فقهاء الشيعة بشرط كهذا؛ لعله كان من ناحية التسالم عليه ووضوحه عندهم.

ب- المسألة على ضوء الفقه السنّي

وأما على مستوى فقه المذاهب السنّي فقد:

١- ذكر عبد الرحمن الجزيري في (الفقه على المذاهب الأربعة). أنّ الحنابلة والمالكية جعلت من سنن الطواف القرب من البيت، فيما خصّصت الشافعية هذه السنّة بالرجال (١).

٢- كما شرح الدكتور وهبة الزحيلي موقف المذاهب الأربعة في المسألة حيث ذكر:

أ- أنّ من شروط الطواف عند الحنفية هو الالتزام بالمكان المحدّد له وهو «أن يقع حول البيت في المسجد؛ لقوله تعالى: وليطوّفوا بالبيت العتيق، والطواف بالبيت هو الطواف حوله، فيجوز الطواف في المسجد الحرام قريباً من البيت أو بعيداً عنه بشرط أن يكون في المسجد» (٢).

ب- أما عند المالكية فيشترط في الطواف «أن يكون بداخل المسجد» (٣).

١- ١ راجع الكتاب السابق ١: ٨٥٩-٨٦٠.

٢- ٢ الدكتور وهبة الزحيلي، الفقه الإسلامي وأدلّته، الطبعة الثالثة، دار الفكر، ١٩٨٩ م، ٣: ١٥٣.

٣- ٣ م، ن: ١٥٦.

ص: ٧٧

- ج- وتقول الشافعية: «إنَّ الطواف داخل المسجد، للاتباع، فلا يصحَّ حوله بالإجماع، ويصحَّ داخل المسجد وإنَّ وسَّع» (١).
- د- وهذا هو موقف الحنابلة حين يشترطون أن يكون الطواف «داخل المسجد لا يخرج عنه» (٢).
- هذا وقد أشار الزحيلي إلى أنَّه يُستحبُّ القرب من البيت للذِّكْر (٣).
- ٣- وموقف الشافعية كُله صرَّح به الإمام الشافعي نفسه في كتاب «الأم» بقوله: «والمسجد كُله موضعٌ للطواف» (٤)، «وإنَّ خرج من المسجد فطاف من ورائه لم يعتدَّ بشيءٍ من طوافه خارجاً من المسجد، لأنَّه في غير موضع الطواف...» (٥).
- ٤- وقد صرَّح الإمام الغزالي في الوسيط بأنَّ الرابع من واجبات الطواف هو «أنَّ يطوف داخل المسجد، فلو طاف خارج المسجد لم يجز، ولو وسَّع المسجد يجوز الطواف في أقصى المسجد؛ لأنَّ القرب مستحبُّ لا واجب» (٦).
- ٥- وفي حاشية ابن عابدين قال: «واعلم أنَّ مكان الطواف داخل المسجد ولو وراء زمزم لا- خارجه لصيرورته طائفاً بالمسجد لا بالبيت...» (٧).
- ٦- أمَّا ابن حزم الأندلسي فقد أشار في «المحلِّي» إلى شرطٍ أزيد لم يذكره فقهاء السنَّة المعروفون إذ قال: «لا يجوز التباعد عن البيت عند الطواف إلَّا في الزحام؛ لأنَّ التباعد عنه عملٌ بخلاف فعل رسول الله صلى الله عليه وآله، وعبثٌ لا معنى له فلا يجوز» (٨).
- ومن هنا يتَّضح الفارق الذي أشرنا إليه في مطلع البحث من اختلاف مركز الاهتمام بين الشيعة والسنَّة وإنَّ اتَّفَقوا جميعاً على أنَّ الطواف بالبيت لا بدَّ أن يكون داخل المسجد لا خارجه.
- وعلى أيِّ حال فسوف نبحث هنا كُلاً من الشرطيَّة المتقدِّمة عند الشيعة، وشرطيَّة كون الطواف داخل المسجد ضمن محورين من الحديث هما:

١- ١ م، ن: ١٥٩.

٢- ٢ م، ن: ١٦٠.

٣- ٣ م، ن: ١٦٨.

٤- ٤ الإمام الشافعي، موسوعة الإمام الشافعي، كتاب الأم، الطبعة الأولى، دار إحياء التراث العربي، ٢٠٠٠ م، ٣: ٢٥ و ٢٦.

٥- ٥ م، ن: ٢٧، وراجع أيضاً: ٢٩.

٦- ٦ الإمام الغزالي، الوسيط في المذهب، الطبعة الأولى، ١٩٩٧ م، دار السلام للطباعة، ٢: ٦٤٥.

٧- ٧ ابن عابدين، ردِّ المحتار على الدرِّ المختار المعروف بحاشية ابن عابدين، الطبعة الأولى، دار إحياء التراث العربي، ٣: ٤٥١.

٨- ٨ ابن حزم الأندلسي، المحلِّي، طبعة دار الجيل والآفاق الجديدة، بيروت، ٧: ١٨١.

ص: ٧٨

المحور الأول: شرطية الطواف بين البيت ومقام إبراهيم عليه السلام  
أدلة القول بالشرطية:

وقد ذكر الفقهاء (رض) جملة وجوه لإثبات هذه الشرطية المطروحة في الفقه الشيعي - كما تقدم - أبرزها - مع التغاضي عن الإجماع الذي تقدم الحديث عنه - أمور هي:

الوجه الأول: ما ذكره في الغنية (١) من أن الطواف بين البيت والمقام هو طريقة الاحتياط، ونحن نحتاج إلى اليقين ببراءة الذمة، الأمر الذي لا يحصل إلا بإيقاع الطواف في هذا الإطار المحدد.

وهذا الوجه قد تعرض - وفق الدراسات الأصولية الأخيرة - لانتقادات، فإن جريان أصالة الاشتغال إنما يكون في مورد الشك في المكلف به لا في التكليف الشامل لأصل الحكم ولقيده وشرطه، وبالتالي فالقضية تابعة لمدى دلالة النصوص، وهل هي بحيث تفسح في المجال لسريان الشك إلى مرحلة المكلف به أم أن الشك على ضوء ما تنتجه إنما هو في دائرة التكليف والتي هي مجرى البراءة؟ وسوف يظهر أنه وبقطع النظر عن الروايات الواردة في خصوص المقام فإن الأدلة العامة في باب الطواف شاملة للطواف خارج المقام أيضاً، وبالتالي فهناك دليل لفظي يبرر ذلك فلا تصل النوبة إلى مرحلة الأصل العملي.

الوجه الثاني: رواية محمد بن مسلم قال: «سألته عن حدّ الطواف بالبيت الذي من خرج عنه [منه] لم يكن طائفاً؟ قال: كان الناس على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله يطوفون بالبيت والمقام، وأنتم اليوم تطوفون ما بين المقام والبيت، فكان الحدّ موضع المقام اليوم فمن جازه فليس بطائف، والحدّ قبل اليوم واليوم واحد قدر ما بين المقام وبين البيت من نواحي البيت كلّها، فمن طاف فتباعه من نواحيه أبعد من مقدار ذلك كان طائفاً بغير البيت بمنزلة من طاف بالمسجد؛ لأنه طاف في غير حدّ ولا طواف له» (٢).

١-١ الغنية: ١٧٢.

٢-٢ الوسائل ج ١٣ كتاب الحج، أبواب الطواف باب ٢٨ ح ١.

ص: ٧٩

وتقريب الاستدلال بالرواية أن ظاهرها كون الطواف ما بين البيت وحيث هو المقام اليوم المسمى فيها بالحدّ واجباً لا مفرّ منه، كلّ ما في الأمر أن المقام كان في زمن رسول الله صلى الله عليه وآله بقرب البيت حيث هو مقرّه الواقعي؛ لأنّ كلمة- مقام- مأخوذة لغه من موضع قدم القائم- كما ذكره في الجواهر- فكأنّ إبراهيم عليه السلام كان يقوم عليه لبناء البيت أو لغير ذلك، وفي الأيام اللاحقة لعهد الرسالة- وعلى حدّ بعض النصوص كما سيأتي أنّه حصل في زمن عمر بن الخطّاب- تمّ جعله في موضعه الحالي حيث كان عليه قبل الإسلام وفق بعض النصوص الأخرى كما سلاحظ.

وكيف كان فالرواية دالّة على الشرطيّة معتضدةً بعمل المشهور.

وقد يناقش في الرواية:

أولاً: أنّها ضعيفة من الناحية السندیّة وذلك من جهتين:

١- جهالة ياسين الضرير الوارد في سندها ومعه فلا يعتمد عليها (١).

٢- الإضرار فإنّ محمّد بن مسلم لم يذكر اسم الشخص الذي روى عنه هذا الخبر، ومعه فلا يحرز أنّه الإمام عليه السلام فتسقط الرواية عن الاعتبار.

غير أنّه قد يرمّم هذا الخلل السندی بأمور هي:

أ- إنّ الشيخ الطوسي في الفهرست له سننٌ صحيح إلى جميع كتب وروايات حريز بن عبد الله السجستاني (٢) والذي هو راوي هذا الحديث عن محمّد بن مسلم، ووفقاً لنظريّة التعويض يمكن استبدال السند الذي يسبق حريزاً في هذه الرواية والذي اشتمل على ياسين الضرير بسند الشيخ الطوسي إلى حريز فتتمّ الرواية، وقد أشار إلى هذا الأمر الميرزا الأحمدى في تعليقه على رسالة المناسك (٣).

ب- إنّ الإضرار من أجلّاء ومشاهير الأصحاب يورث الوثوق برجوع الضمير إلى الإمام عليه السلام؛ لأنّ الغالبية الساحقة من روايات أمثال محمّد بن مسلم إنّما هي عنه عليه السلام، ووفقاً لذلك فإنّ احتمال أن تكون هذه الرواية المضمرة عن غير

١- ١ يراجع معجم رجال الحديث للسيد الخوئي ٢٠: ١١، وقد صرح بضعف سند الحديث جملة من الفقهاء كالسيد الخوئي في المعتمد وغيره، راجع المصادر المتقدّمة.

٢- ٢ والسند هو «أخبرنا بجميع كتبه ورواياته الشيخ أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان المفيد رحمه الله تعالى عن جعفر بن محمد بن قولويه عن أبي القاسم جعفر بن محمد العلوي الموسوي عن ابن نهيك عن ابن أبي عمير عن حماد عن حريز. وأخبرنا عدّة من أصحابنا عن محمد بن علي بن الحسين عن أبيه عن سعد بن عبد الله وعبد الله بن جعفر ومحمد بن يحيى وأحمد بن إدريس وعلي بن موسى بن جعفر كلّهم عن أحمد بن محمد بن الحسين بن سعيد وعلي بن حديد وعبد الرحمن بن أبي نجران عن حماد بن عيسى الجهني عن حريز. وأخبرنا الحسين بن عبيد الله عن أبي محمد الحسن بن حمزة العلوي عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن حماد عن حريز. راجع الفهرست ص ١١٨ باب الواحد رقم [٢٤٩]- ١- ط مؤسسة نشر الفقاهة ١٤١٧ هـ. ٣٤.

٣- ٣ مصدر سابق: ٢١٠.

ص: ٨٠

الإمام عليه السلام مع ندرة لو لم نقل انعدام رواياته عن غيره عليه السلام هو احتمال منعدم عملياً طبقاً لحساب الاحتمالات الرياضى، وهذا ما يجعلنا نحصل الوثوق بكون المضمرة منقولة عن الإمام عليه السلام.

نعم، على تقدير العثور على مقدارٍ مهمٍّ من روايات الراوى المباشر عن غير الإمام عليه السلام فإنّ هذا يرفع من احتمال كون المضمرة عن غيره أيضاً وبالتالى يفقدنا الوثوق المذكور، وهذا يعنى أنّ الأخذ بالرواية المضمرة لا- يرتبط- كما ذكر جمع من المحققين- بجلالة ومقام الراوى بقدر ما يرتبط بحجم رواياته إلى جانب المقدار الذى أحرزنا أنّه رواه عن غير الإمام عليه السلام، لا سيّما بملاحظة أنّ الرواة- كما كبار المحدثين لاحقاً كان يهّمهم العثور على أكبر قدر ممكن من روايات أهل البيت عليهم السلام سواء كان ذلك عن طريق المباشرة أو عن طريق راوٍ آخر لا سيّما إذا كان هو الآخر جليلاً ومتقدماً.

كما أنّ افتراض (١) أنّ طبيعة الإضمار تتطلّب أن يكون صاحب الضمير معروفاً وبارزاً حتى يصحّ الإضمار حسبما تقتضيه أدبيات اللغة العربية، هو الآخر افتراضٌ يتجاهل الفارق التدوينى الذى حصل بين مرحلة الرواة الأوائل وبين مرحلة الكتب والمجاميع الحديثية، التى اتّسمت كما هو معروف بالتقطيع، وفرز تلك الأحاديث المتلاحقة ووضع كلّ واحدٍ منها فى باب، وهذا يعنى أنّ من الممكن جداً- ونفس قوّة الاحتمال كافية هنا- أن يكون الإضمار قد حصل نتيجة ذكر المسؤول فى الرواية أو الروايات السابقة بحسب ترتيب الراوى المتقدّم، وبالتالى فلا نرى ما يوجب حصر تفسير ظاهرة الإضمار بمعروفيّة صاحب الضمير.

ج- إنّ الرواية منجبرة بعمل المشهور كما أشار إليه فى الرياض (٢) وجامع المدارك (٣) ومستند الشيعة (٤) والجواهر (٥)، فإنّه لا يتوفّر هنا غير هذه الرواية مدرّكاً للحكم لاسيّما بعد ورود النصّ الصحيح السند بما يدلّ على عكسها وهو خبر الحلبي الآتى، فإنّ قولهم بما تقتضيه رواية ياسين الضرير وتركهم لمضمون رواية

١-١ وقد ذكر هذا القول الاستاذ الشيخ باقر الإيروانى فى «دروس تمهيدية فى القواعد الرجالية» ص ٢١٢-٢١٣، مع أنّه ذكر عقيب ذلك وتحت عنوان منشأ الإضمار: أنّ طبيعة الكتب السابقة- كما ذكرناه فى المتن- تقتضى رجوع الضمير إلى مذكور فى أوّل الكلام وليس إلّا الإمام عليه السلام وناقشه باحتمال غيره، والجمع بين أطراف كلامه حفظه الله قد يواجه بعض المشاكل.

٢-٢ مصدر سابق: ٥٣٦.

٣-٣ مصدر سابق: ٤٩٥.

٤-٤ مصدر سابق: ٧٥.

٥-٥ مصدر سابق: ٢٩٦.

ص: ٨١

الحلبى بالرغم من الصحّة السندية للرواية الثانية وضعف الاولى، يمثّل شاهداً مهماً لتبرير تجاهل الضعف السندى الفنى بجهالة ياسين الضيرى وبالتالي ارتقاء هذا الخبر إلى مستوى الصحّة، إذ كيف اعتمدوا عليه وتركوا بسببه خبراً صحيحاً مع عدم اعتقادهم بصحّته؟!.. غير أنّ هذا الترميم قابل للمناقشة بما حاصله:

أ- إنّ المقدار المتّضح لنا من موقف الفقهاء المتقدّمين والمقارنين لزمن الشيخ الطوسى، والذين يؤثّر موقفهم أحياناً فى الحكم على نصّ أو حديث، ليس مقداراً قابلاً للاعتماد عليه فى جبر خيرٍ ضعيفٍ؛ لأنّ هؤلاء الفقهاء هم الشيخ الطوسى وابن حمزة وابن زهرة وابن البرّاج وابن مجد، فى حين يقف فى قبّالهم ممّن لم يذكر هذا الشرط أصلاً فى واجبات الطواف كلّ من السيد المرتضى وسلار وأبى الصلاح والصدوق، بل ما نقل عن ابن الجنيد أيضاً، بل جملة فقهاء من تلك الحقبة لم يظهر موقفهم من أمثال الشيخ المفيد (وهو لم يتعرّض لهذا الشرط فى بحث الطواف فى كتابه المقنعة) والصدوق الأوّل وابن أبى عقيل والجعفى والرضى وابن حمزة الجعفرى والمفيد الثانى ولد الطوسى وغيرهم، هذا فضلاً عن عشرات أو مئات العلماء من الطبقة الثانية فى تلك الفترة الزمنية.. ووفقاً لذلك كيف نقول: بأن شهرةً قد انعقدت وأثّرت فى تصحيح سند وصدور روايةٍ ضعيفةٍ؟!!

وهنا من الضرورى الإشارة إلى نقطة كبرى تجرى فى مثل ما نحن فيه وهى ما هو المحقّق الموضوعى للمشهور؟ بمعنى أنّ الشهرة التى يجرى الاعتماد عليها اليوم وقبل اليوم أيضاً هى شهرةٌ لم تضع فى حساباتها سوى حوالى خمسين فقيهاً (1) من فقهاء الإمامية على امتداد حوالى اثنى عشر أو أحد عشر قرناً من الزمن، وتجاهلت الكثير من المجتهدين الذين صنّفوا العديد من الكتب والرسائل والذين يُعثر فى مؤلّفاتهم على كثير من الآراء الأخرى، بل إنّ المادّة التى اعتمد عليها المدّعون للشهرة هى أيضاً مادّة محدودة نسبياً يلاحظها المتتبع من خلال ملاحظة

١-١ وحتى هذا الرقم ممّا مبالغ فيه جداً لمن تتبّع الكتب الفقهية.



ص: ٨٢

المصادر التي تداولها هذا الفقيه أو ذاك، فكتاب مفتاح الكرامة للسيد العاملي رحمه الله والذي يصنّف كجهد موسوعي هامّ على مستوى الفقه الشيعي لم يعتمد أكثر من ثلاثين كتاباً مع قطع النظر عن الكتب التي اعتمد عليها في مواضع قليلة... في تقديري فإنّ جهداً موسوعياً للفقه الشيعي يراعى مساحةً أكبر في الاستقصاء يمكنه أن يبدّل كثيراً من الرؤية الموجودة اليوم. وعلى كلّ حال فهذا موضوع طويل ومستقلّ يكتفى له بهذه الإشارة.

ب- إنه من غير الواضح ما هي مبررات التصحيح السندي عند المتقدمين في موردنا، فلعلّهم صحّحوا خبر ياسين الضرير لقرائن لو توفّرت لنا لم نفتنح بإفادتها صحّة الخبر.

كما أنّه ليس من الضروري أن يكون اعتمادهم على هذا الخبر قد نشأ من وثاقه الراوي عندهم حتّى يلزم بذلك من يلتزم بحجّية خبر الثقة دون الموثوق.

ج- إنه من المحتمل أنّهم أخذوا بخبر ياسين الضرير بملاك الرشد في خلافهم، فلاح لنا أنّهم تجاهلوا صحّية الحلبي بلا مبرر ممّا ضاعف عندنا من القيمة الاحتمالية لصحّة خبر ياسين. كما يحتمل أنّهم رجّحوا خبر ياسين لاشتماله على قصّة نقل المقام المؤيّد برواياتٍ أخرى عن أهل البيت عليهم السلام...

ثانياً: أنّ الرواية معارضة بخبر صحيح السند وهو ما رواه محمّد بن علي الحلبي، قال: «سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الطواف خلف المقام قال: ما أحبّ ذلك وما أرى به بأساً فلا تفعله إلّا أن لا تجد منه بدءاً» (١).

فإنّ هذه الرواية ظاهرة في كراهة تجاوز المقام في الطواف على أبعد تقدير وأنّ هذه الكراهة ساقطة في مورد الاضطرار، ولعلّ ابن الجنيد قد اعتمد عليها في الحكم بالتفصيل بين حالتى الضرورة وعدمها، لكنّ ظاهرها غير ذلك، بل هو سقوط الكراهة حال الاضطرار لا الشرطية؛ فإنّ صيغته النهي عن الفعل وإن وردت في كلام الإمام عليه السلام بقوله «فلا تفعله» إلّا أنّ صدر الرواية المصرّح بنفي

ص: ٨٣

البأس عن الطواف خارج المقام مع إبرازه عليه السلام عدم محبته لهذا الفعل الظاهر من سياقه الترفع وأفضلية الاجتناب يمثل قرينة مساعدة وجيدة على عدم إرادة الحرمة من النهي المذكور فيها.

وبناءً على ذلك كله فإذا قبلنا بما يصحح سند الرواية الأولى من التعويض أو الانجبار... حصلت المعارضة بين الروایتين، وبالتالي نحتاج إلى ما يحلّ التعارض في المقام، وأما إذا لم نقبل بتصحيح الرواية الأولى فتكون الرواية الثانية هي المحكّمة وبالتالي يلتزم بعدم الشرطية.

غير أن الرواية الثانية في حدّ نفسها قد سجّلت عليها ملاحظات - لا بدّ من تجاوزها للوصول إلى مرحلة استحكام التعارض - أبرزها: الملاحظة الأولى: ما ذكره المقدّس الأردبيلي رحمه الله من توقّفه في شأن أبان الوارد في الرواية بعد أن استظهر أنّه أبان بن عثمان حيث ذهب إلى عدم الأخذ بمفرداته (١).

غير أن هذه الملاحظة غير واضحة، فأبان بن عثمان من أصحاب الإجماع بنصّ الكشي، وهو ثقة على أكثر من مبنى رجالي؛ فقد ورد في كامل الزيارات وتفسير القمي وهو من كثيري الرواية، وروى عنه الأجلّاء أمثال ابن أبي عمير والحسن بن علي بن فضال والحسن بن محبوب وحمّاد وهشام بن سالم والوشاء ويونس وغيرهم، ولم يرد ما يقدر فيه سوى اتّهامه بأنّه كان ناووسياً واقفاً على الصادق عليه السلام وأخرى بأنّه فطحي، والاختلاف المذهبي لا يضرب بالوثاق والأخذ بالرواية كما قرّر، نعم هناك رواية واحدة عن إبراهيم بن أبي البلاد تقدح فيه رواها الكشي، لكنّها لا تقف إزاء دعوى كونه من أصحاب الإجماع، فتوقّف الأردبيلي فيه غير واضح (٢).

الملاحظة الثانية: ما ذكره الميرزا الأحمدى من أنّ الرواية مبتلاة بالتناقض الداخلي بين أجزائها، إذ كيف يمكن التوفيق بين نفى الحبّ الظاهر في الحرمة ونفى

١-١ مجمع الفائدة والبرهان ٧: ٨٦-٨٧.

٢-٢ يراجع في حال أبان بن عثمان معجم رجال الحديث ١: ١٥٧-١٦٤.

ص: ٨٤

البأس الظاهر في الجواز لاسيما مع ضمّ النهي الآخر أيضاً (١).

غير أن التقريب للاستدلال بالرواية يرفع هذه الملاحظة إذ نفى الحبّ غير ظاهر في الحرمة، لا سيما بعد إسناده إلى شخص الإمام عليه السلام ولم يقل: إنه غير محبوب لله مثلاً، ومن الممكن أن يعبر عن الأمر المكروه بأنه غير محبوب لا أقلّ أن صيغته كهذه تعدّ صيغةً طبعيةً لتأثير قرينه أخرى فيها، وأما التنافي بين نفى البأس والنهي فإنّ العرف يفهم منه المرجوحيةً لاسيما وأنّ دلالة النهي على الحرمة من حيث المبدأ هي دلالة ظهورية، وأما صيغة نفى البأس فإنّها تعدّ ذات دلالة نصّية وصريحة فتكون صالحة للقرينية على المراد من النهي.

وبعبارة أخرى لو القيت هذه الجملة على العرف لم يجد فيها أيّ تناقض فنحن نقول: «لا أحبّ هذا الفعل لكنّه لا بأس به» كما نقول «لا مشكلة في هذا الفعل لكن لا تقم به» ونقصد مرجوحية هذا الفعل. ولعلّ هذا هو مراد المستشكل نفسه هنا من أنّها دالّة بمجموعها على الكراهة (٢).

الملاحظة الثالثة: ما ذكره الأحمدي أيضاً تفرّيعاً على ما ورد في الملاحظة المتقدّمة من أنّ نفى الحبّ في الرواية يفيد الحرمة، أمّا نفى البأس فهو لا يتعرّض للناحية التكليفيّة، وإنّما غرضه الآثار والمتطلّبات الناجمة عن الفعل على تقديره من قبيل الكفّارة ونحوها لا سيما وأنّ الحجج ملية بذلك، ومعه فتكون الرواية من أدلّة الشرطية لا معارضة لها (٣).

غير أنّ هذا الوجه لا يمثّل سوى مجرّد احتمال لا يصل إلى حدّ الظهور ولا توجد قرينه مؤيّد له، ومجرّد أنّ تعبير نفى البأس ورد أحياناً نادرةً للدلالة على ذلك، لا يعني أنّ المراد هنا هو ذلك أيضاً ما دمنا لا نشعر بتناقض داخلي في الرواية يفرض علينا مثل هذا التفسير كما تقدّم.

ووفقاً لما تقدّم يتبين أنّ الرواية الثانية تامّة دلالةً وسنداً، وبالتالي وطبقاً لتصحيح الرواية الأولى فنحن بحاجة إلى ما يحلّ هذه المناقاة كما تقدّم بإبراز جمع

١- ١ مصدر سابق: ٢١٩.

٢- ٢ م. ن.

٣- ٣ مصدر سابق: ٢١٦.

ص: ٨٥

عرفى بينهما أو ترجيح واحدةٍ على الأخرى، أو غير ذلك على تقدير استقرار التعارض. وحاصل ما يذكر فى هذا المجال المحاولات التالية:

المحاولة الأولى: أن يجمع بينهما بحمل الأولى على صورة عدم الضرورة فيما تحمل الثانية على صورة الضرورة كما أشار إليه الشيخ الأحمدى (١) كاحتمال، وذلك أن خير محمد بن مسلم الميث للشرطية لم يرد فيه ذكر اسم الإمام عليه السلام فنحمله على أنه الباقر عليه السلام حيث عاصره ابن مسلم، وفى تلك الفترة لم يكن هناك ازدحام شديد، وأما خير الحلبي فهو عن الصادق عليه السلام وفى تلك الفترة كان هناك تزايد يؤدى إلى ازدحام المطاف بالطائفتين، بل إنه يمكن الأخذ بهذه المحاولة للجمع حتى على تقدير أن محمد بن مسلم متقدم زماناً عن الحلبي فيما الحلبي متأخر حيث روى عن الإمام الكاظم عليه السلام، وهذا يعنى أن ابن مسلم قد روى الرواية أو سمعها فى الفترات الأولى من حياة الإمام الصادق عليه السلام فيما سمع الحلبي الرواية الثانية فى الفترات الأخيرة، وحيث إن الفترة الأولى لم يكن فيها ازدحام بخلاف الثانية، فإن الروايتين لا تتعارضان.

وهذه المحاولة من حيث الخلفية التى انطلقت منها جيدة، لكنها غير صحيحة ظاهراً؛ لأنها تفتقر إلى إبراز إثبات تاريخي يفيد أن فترة خمسين سنة تقريباً قد ظهر فيها تزايد سكاني أو تحسن اقتصادي ملحوظ أو نحو ذلك، أدى إلى تغير أحوال الطواف وظهور ازدحام شديد لم يكن من قبل موجوداً إلانادراً، وما لم تثبت ذلك يصبح هذا الجمع تبرعياً، خصوصاً وأن الفترة ليست طويلة وأن الامم الأخرى كانت قد دخلت فى الإسلام قبل ذلك بعشرات السنين، وشخصياً ليس لدى رؤية واضحة فى حدود تتبعى حول هذا الموضوع تاريخياً فلا أجزم بالعدم لكنى أستبعده، وعدم الدليل عليه بحكم الدليل على العدم عملياً تقريباً.

وتجدر الإشارة إلى أنه وبناءً على هذا القول يصبح الموقف الشرعى فى

ص: ٨٦

المسألة هو التفصيل بين صورة الازدحام الشديد وعدمه؛ فتكون النتيجة عين المنقول عن ابن الجنيد أو قريبه منه. المحاولة الثانية: ما يفهم من كلمات المحقق آغا ضياء الدين العراقي من أنّ الخبر الثاني - خبر الحلبي - مطروح، وذلك للأخذ بخبر ابن مسلم نظراً لاشتهاره حيث لم يقل أحد بمضمون صحيحة الحلبي (١).

غير أنّ هذه المحاولة قابلة للنظر؛ إذ لو اريد الشهرة الروائية فهي غير واضحة، فلكلّ من الروايتين طريق واحد، وقد ورد أمثال أبان والحلي والصفار وأيوب بن نوح ومحمد بن أبي عمير وصفوان بن يحيى وغيرهم، وهؤلاء أهمّ في عالم الرواية لو لوحظ مجموعهم وقبول أمثال محمد بن يحيى وابن عيسى ومحمد بن عيسى وحريز وابن مسلم، ولا أقلّ من أنّ هذه المقايضة ترفع احتمال الشهرة، كما ترفع احتمال أن يكون خبر الحلبي شاذاً ونادراً حيث أورده الصدوق فيما أورد الآخر الكليني ونقله عنه الطوسي، وأمّا لو اريد الشهرة الفتوائية المؤثرة على الخبر ضعفاً وتوهيناً كما هو الظاهر من كلام العراقي، فقد تقدّم معنى ما يفيد أنّ مثل هذه الشهرة غير واضحة في المقام حتّى لو سلّمت الكبرى.

وعليه فالتعارض بين الروايتين ثابتٌ وتامٌ، فلا محيص ظاهراً عن سقوطهما والرجوع إلى الأدلّة العامّة في باب الطواف، والتي أخذت عنوان الطواف بالبيت بمعناه العرفي الصادق على الطواف داخل مقام إبراهيم عليه السلام وخارجه.

والمتحصل: أنّ هذه الشرطية لم يظهر دليل حجّة عليها ومقتضى الأصل عدمها، والاقتراب قدر الإمكان من البيت أفضل، لا سيّما وأنّ هناك جملة مستحبات عند جدران الكعبة تقتضي الاقتراب شبه الدائم منها كمستحبات الحجر الأسود والمستجار وغيرهما.

المحور الثاني: الطواف داخل المسجد الحرام

وهو ما يظهر التسالم عليه بين الشيعة إذا بنينا على انعقاد الإجماع على

ص: ٨٧

الشرطية المتقدمة، بل إن بعضاً من الذين ذهبوا إلى نفي الشرطية قد صرّحوا بلزوم إيقاع الطواف داخل المسجد كما تقدّم فلا نعيد، أمّا على مستوى الفقه السنّي فقد تقدّم أيضاً التصريح بذلك بشكلٍ واضحٍ وإن لم يذهب هذا الفقه إلى الشرطية المتقدمة عند الفقه الشيعي.

وعلى أيّ حالٍ فإنّ أهمّ ما يمكن ذكره كأدلةٍ لهذا الشرط أمور هي:

الوجه الأول: ما تقدّم ذكره عن ابن عابدين من أنّ الطواف خارج المسجد غير جائز؛ لأنّه طوافٌ بالمسجد لا بالبيت، وهذا معناه عدم تحقّق الطواف الواجب الذي هو الطواف بالبيت (١).

إلّا أنّه يمكن المناقشة بأنّ كون الطواف في هذه الصورة كائناً بالمسجد لا يلغى في حدّ ذاته كونه حاصلًا بالنسبة إلى البيت أيضاً ما لم يمنع العرف عنه، ويمكن تصوّر عدم المنع العرفي في حالة هدم المسجد كلياً والطواف في فلاة، فإنّ العرف في هذه الحالة وإن كان يقبل كون هذا الطواف طوافاً بأرض البيت إلّا أنّه لا يمنع من صدق عنوان الطواف بالبيت عليه، لا سيّما لو بنينا على البيت القديم لا التوسعة الحاصلة عبر الأيام، وهذا معناه أنّ الملاك في تحديد عنوان الطواف بالشىء هو العرف، وحكم العرف قابلٌ للتغيّر هنا بتغيّر الحالات الطارئة.

والذي يبدو أنّ ابن عابدين كان ينظر إلى الموقف العرفي في الحالات الطبيعيّة، ولعلّه لو قدّمت له صورة أخرى غير الحالة المتعارفة لقبّل بها.

الوجه الثاني: ما ذكره الدكتور وهب الزحيلي عن الشافعية من التمسك بدليل الاتباع والتأسي، وهو ما يمكن استنتاجه من كلمات ابن حزم الأندلسي من أنّ البعد - وهو يشمل ما نحن فيه - عملٌ بخلاف فعل رسول الله صلى الله عليه وآله وبالتالي فهو غير جائز، وقد تقدّم كلماتهما آنفاً.

إلّا أنّ هذا الوجه قابلٌ للتأمل وذلك:

أولاً: أنّ الاقتراب من البيت هو مقتضى الأداء الطبيعي للطواف بالبيت

ص: ٨٨

المأمور به شرعاً؛ ولهذا فإن قيام المعصوم عليه السلام به لا يدل على خصوصيةً ديتيةً؛ وذلك لأن الفعل الذى توجد له مبررات طبيعية واضحة، يكون احتمال نشوئه من دوافع دينية بعيداً، أو لا أقل لا يصل إلى حد الاطمئنان والتأكد كما هو مبحوث في دراسات علم اصول الفقه، وهذا يعنى أن ما نحن فيه لا يوجد ما يؤكد بالمعنى المطروح فى الاستدلال.

ثانياً: أن الاقتراب من البيت من أهم المستحبات المعروفة بين المسلمين جميعاً، وهذا من شأنه أن يفسر لنا السبب فى تركيز الرسول صلى الله عليه وآله على الاقتراب من البيت، وبالتالي فلا يكشف لنا - وبدرجة واضحة - عن حكم وجوبى فى كون الطواف داخل المسجد؛ لأنه لا يتحدث عن عنوان كهذا، وبعبارة أخرى أن استحباب الاقتراب من البيت يكون استحباباً مؤكداً ويمكنه أن يفسر لنا السيرة التى كان يجرى عليها الرسول صلى الله عليه وآله، وبالتالي فلا يكون تفسير هذه السيرة مختصاً بالوجوب حتى يكون التأسي تأسيًا بامرٍ واجبٍ كما هو المدعى.

الوجه الثالث: ما أشار له ابن حزم أيضاً من العبثية فى الابتعاد عن البيت كما تقدم (١). وهذا الوجه يمكن الملاحظة عليه:

أولاً: أن الابتعاد عن البيت قد يكون لرغبة فى إطالة الطواف بغيةً المزيد من الفعل المحبوب لديه تعالى، أو لرغبة فى الإكثار من الذكر الممدوح حال الطواف، وهذا - وغيره - مبررٌ كافٍ لرفع العبثية المفترضة هنا.

ثانياً: أن كبرى حرمة الفعل العبثى غير ثابتة، ولا دليل عليها. نعم، الاجتناب عن الأعمال العبثية هو الفعل العقلانى، إلا أن الإلزام به - ودائماً أمرٌ لا دليل عليه شرعاً.

الوجه الرابع: رواية ياسين الضرير المتقدمة، فهى صريحة فى تشبيه الإمام عليه السلام الطواف خارج مقام إبراهيم عليه السلام بالطواف خارج المسجد، وكأنها بذلك

ص: ٨٩

تشير إلى مفروغية عدم جواز الطواف خارج المسجد: نظراً لجعلها إياه في مقام المشبه به الأجلى عادةً في وجه الشبه - الذي هو عدم الجواز هنا - من المشبه، وهذا معناه عدم أجزاء الطواف خارج المسجد الحرام.

لكن يجاب عنه:

أولاً: أن الرواية لم تذكر الطواف خارج المسجد، وإنما قالت «بمنزلة من طاف بالمسجد» أي أنها تشير إلى صورة أن يطوف الإنسان بالمسجد الظاهرة في وجود المسجد، وقد قلنا سابقاً: إنَّ العرف يحكم في هذه الصورة بعدم صدق الطواف بالبيت فيها، الأمر الذي يوجب البطلان.

ثانياً: أنه من غير الواضح كون تشبيه الإمام عليه السلام الطواف خارج المقام بالطواف خارج البيت على نحو الإشارة إلى كبرى شرعية في المشبه به، فلعله إشارة إلى الارتكاز العرفي بعدم صحته مثل هذا الطواف؛ نظراً لعدم صدق الطواف بالبيت عليه لا تعبدًا بحرمة هذا الطواف حتى لو صدق عليه أنه طواف بالبيت عرفاً، وهذا معناه أن الرواية لا تؤكد مقوله أزيد من مرجعية العرف هنا حتى تكون مفيدة لمطلب زائد على الأدلة العامة في الطواف.

هذا وقد يستدل لإثبات المسألة بما تقدم في المحور الأول وقد عرفت المناقشة فيه.

والمتحصل أن الشريعة الإسلامية قد أمرت بالطواف بالبيت العتيق، وتحديد مصداق الطواف أمرٌ راجعٌ إلى العرف العام، وهو لا يحكم بشيء اسمه جغرافياً الطواف، وإنما يرى أن القضية متحرّكة، والمهم على كل الأحوال صدق الطواف عرفاً كما ركز عليه السيد أبو القاسم الخوئي رحمه الله تعالى (١).

تنبيهات

وفي نهاية هذا البحث لا بأس بذكر تنبيهات مختصرة:

التنبيه الأول: بناءً على ثبوت الشرطية المتقدمة، فظاهر ما رواه ياسين



ص: ٩٠

الضرب ثبوتها من تمام الجهات لقوله عليه السلام «من نواحي البيت كلها» فلا- يكفي وقوعه كذلك من طرف المقام دون بقيته الأطراف.

وأما على الرأي الآخر التافى لهذه الشرطية، فلا- بأس أوقع الطواف كله من تمام النواحي بين البيت والمقام أو خارجه أو في بعض النواحي في تمام الأشواط أو في بعضها أو في أحدها، ما لم يخل بالصدق العرفي للطواف كما تقدم.

التنبيه الثاني: أن المراد بالمقام هو نفس الصخرة أو العمود من الصخر الذي كان إبراهيم عليه السلام يصعد عليه عند بناء البيت، أو الذي صعد عليه عند أذانه للناس ودعوتهم للحج أو غير ذلك كما ذكرته بعض الروايات.

وتشير المصادر المتعددة أنه توجد عليه آثار القدمين الشريفين لإبراهيم الخليل عليه السلام، وأن ذلك كان من دلائل نبوته أو كرامته له عليه السلام كما قد يقال.

ومن هنا فما يتعارف في الإطلاق العرفي للمقام من أنه البناء المرفوع على نفس الصخرة ليس هو الحد، وذلك ترجيحاً للمعنى اللغوي على العرفي الطارئ، وقد أشار إلى ذلك الشهيد الثاني (١) والمحقق العراقي (٢) (رحمهما الله تعالى).

التنبيه الثالث: قد ذكر لقصة تحديد موضع المقام روايات تاريخية عديدة نشير إليها وهي (٣):

الرواية الأولى: إن أهل الجاهلية ألقوا المقام بالبيت خوفاً عليه من السيول وبقي إلى زمن عمر بن الخطاب كذلك حتى رده عمر إلى الموضع الذي كان عليه أيام الخليل عليه السلام.

وناقش صاحب الجواهر هذه الرواية ببعد ترك الرسول صلى الله عليه وآله لذلك خصوصاً مع علمه بموضعه وعدم علم عمر به. وليس هذا هو بحث هذه الوريقات غير أنه يوجد تعليقان على مناقشة صاحب الجواهر قدس سره بغض النظر عن إعطاء جواب نهائي حول صحة هذه الرواية التاريخية أو عدم صحتها وهذان التعليقان هما:

١- ١ الروضة ٢: ٢٤٩، والمسالك ٢: ٣٣٤.

٢- ٢ شرح تبصرة المتعلمين ٤: ١١٥، وصرح به الشيخ محمد إبراهيم الجناتي أيضاً في مجلة ميقات الحج العدد: ٦: ١١٦ عام ١٤١٧ هـ. ق.

٣- ٣ جواهر الكلام، مصدر سابق، ولم نتعرض لتحقيق هذه الروايات لعدم دخولها في مورد بحثنا.

ص: ٩١

التعليق الأول: إنَّ مسألة استبعاد علم عمر به غير واضحة إذ من الممكن جدًّا أنَّه وبحكم كونه من صحابه رسول الله صلى الله عليه وآله قد سمع منه هذا الأمر والموضع الحقيقي للمقام، وليس من الضروري أن يكون علم عمر مجامعاً لعدم علم الرسول صلى الله عليه وآله.

التعليق الثاني: وأمَّا مسألة استبعاد ترك رسول الله صلى الله عليه وآله ذلك فهي أيضاً غير واضحة، لأنه لنفرض أنَّه كان على عهد الخليل عليه السلام في هذا الموقع وأنَّ العرب قد أزالوه عن موقعه لكن لماذا يجب أن يعيده الرسول صلى الله عليه وآله؟! فمن المحتمل جدًّا أنَّ طبيعة مكان المقام ليست بالقضية ذات الاهتمام ما دام في المسجد الحرام ويمثّل رمزاً للحادث، كما أنَّه لعلَّ إبراهيم عليه السلام - خصوصاً على بعض روايات المقام - قد جعله في الموقع الفلاني لأمر استلزمته الظروف لا لضرورة ديتية بحيث لم تكن القضية ذات بُعد ديني مقدّس كما هو المفروض فيما وراء ذهن المستشكل، ومن هنا لم يرجعه رسول الله بينما توهم عمر بأنَّه لا بد من إرجاعه أو استحسّن إعادته إلى موقعه الأوّل، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى من الممكن أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان أيضاً يريد إرجاعه إلى مكانه الطبيعي لكن الظروف الموضوعية لم تكن لتسمح له بذلك ربما لانزعاج العرب أو... وهذا الاحتمال وإن لم يكن بالقرب جدًّا لكن تعدّد الاحتمالات يفى برفع استبعاد صاحب الجواهر رحمه الله.

الرواية الثانية: ما هو محكّي في الجواهر عن ابن أبي مليكة من أن موضعه اليوم هو موضع زمن الجاهلية، غايته أن السيل أخذه أيام عمر، ولما جاء إلى مكة رأى أنّهم بعد السيل قد ألقوه بالبيت فردّه إلى موضعه الحالي بعد أن سأل عنه منهم.

الرواية الثالثة: أن موضعه - كما نقله في الجواهر أيضاً عن ابن سراقه - أيام الجاهلية كان على تسعة أذرع من البيت، ووسّعه رسول الله صلى الله عليه وآله إلى حدود عشرين ذراعاً حتّى لا ينقطع الطواف بالمصلين خلفه، ثم أخذ السيل أيام عمر ثم رده عمر

ص: ٩٢

إلى موضع رسول الله صلى الله عليه وآله وهو موضعه الحالى .

غير أنّ هذه الرواية تفتقر إلى تبرير الستّة أذرع والنصف التى هى الفارق بين الموضع الحالى والموضع المذكور فى الرواية، لأنّ المقام اليوم يبعد ستّة وعشرين ذراعاً ونصف الذراع عن البيت، ولكّنه من الممكن أنّ تعبير «حدود عشرين ذراعاً»- لو كان وارداً فى كلام ابن سراقه بهذا الشكل- أريد به ما لا ينافى فارق ستّة أذرع ونصف، كما لعله المحتمل بشهادة أنّه يبعد أن يكون قد تغيّر الموقع بين زمن ابن سراقه وزماننا.

الرواية الرابعة: ما ورد فى بعض الروايات عن أهل البيت عليهم السلام من أنّ موضعه أيام الجاهلية كان كموضعه الآن، ثمّ ألصقه رسول الله صلى الله عليه وآله بالبيت، ثمّ رده عمر إلى موضعه الذى كان أيام الجاهلية وبقي إلى يومنا هذا، ويؤيّد روح هذا المضمون خبر ياسين الضرير المتقدّم كما لاحظنا.

الهوامش:

من فلسفة الحجّ







ص: ٩٦

من فلسفة الحجّ

لؤى الدليمي

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ (١)(٢)

أتى ابن أبي العوجاء الإمام الصادق عليه السلام يوماً فجلس إليه في جماعة من نظرائه، ثم قال له: يا أبا عبد الله إن المجالس أمانات، ولا بد لكل من كان به سعال أن يسعل، فتأذن لي في الكلام؟ فقال الصادق عليه السلام: تكلم بما شئت.

فقال ابن أبي العوجاء:

«إلى كم تدوسون هذا البيدر، وتلوذون بهذا الحجر، وتعبدون هذا البيت المرفوع بالطوب والمدر، وتهرولون حوله هرولة البعير إذا نفر؟»

من فكر في هذا أو قدر؟ إن هذا فعل أسسه غير حكيم ولا ذى [ذو] نظر، فقل فإنك رأس هذا الأمر وسنامه وأبوك أسه ونظامه..

فكان ممّا قاله الإمام الصادق جواباً عن هذا الهجوم الساخر وغير المهذب:

«... وهذا بيت استعبد به الله خلقه؛ ليختبر طاعتهم في إتيانه، فحثهم على تعظيمه وزيارته، وقد جعله محلّ الأنبياء وقبله المصلين، وهو شعبة من رضوانه، وطريق يؤدى إلى غفرانه...» (٣).

١-١ البقرة: ١٩٧.

١-٢ البقرة: ١٩٧.

٢-٣ أمالي الصدوق ٤: ٤٩٣، التوحيد ٤: ٢٥٣.

ص: ٩٧

أما فلسفة الإمام على للحج و «الهرولة حول هذا البيت» فكانت أكثر إبلاغاً وأفصح إيجازاً وأجلى بياناً، وكان ممّا قاله - سلام الله عليه - في هذا السياق:

«ألا ترون أن الله سبحانه اختبر الأولين من لدن آدم - صلوات الله عليه - إلى الآخرين من هذا العالم بأحجار لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا - تسمع، فجعلها بيته الحرام الذي جعله للناس قياماً، ثم وضعه بأوعر بقاع الأرض حجراً، وأقلّ نتائف الدنيا مدرّاً، وأضيق بطون الأودية قطراً، بين جبال خشنة ورمال دمثة، وعيون وشلة، وقرى منقطعة، لا يزكو بها خوف ولا حافر ولا ظلف، ثم أمر سبحانه آدم وولده أن يثنوا أعطافهم نحوه، فصار مثابةً لمنتجع أسفارهم، وغايةً لملقى رحالهم، تهوى إليه ثمار الأثندة من مفاوز قفار سحيقة ومهاوى فجاج عميقة، وجزائر بحار منقطعة، حتى يهزوا مناكبهم ذللاً، يهللون لله حوله، ويرملون على أقدامهم شعناً غبراً له، قد نبذوا السراويل وراء ظهورهم، وشوّها بإعفاء الشعور محاسن خلقهم، ابتلاءً عظيماً، وامتحاناً شديداً، واختباراً مبيناً، وتمحيصاً بليغاً، جعله الله سبباً لرحمته، ووصله إلى جنته».

بعدها يبيّن أمير المؤمنين السرّ وراء ذلك الاختيار الإلهي لهذا المكان المقفر وعدم اختياره لمكان مورق مشجر، فيقول - عليه أفضل الصلاة وأتمّ السلام -:

«ولو أراد سبحانه أن يضع بيته الحرام ومشاعره العظام، بين جنّاتٍ وأنهار، وسهل وقرار، جمّ الأشجار، داني الثمار، ملتفّ البني، متّصل القرى، بين بُرّة سمراء، وروضة خضراء، وأرياف محدقة، وعراض مغدقة، وزروع ناضرة، وطرق عامرة؛ لكان قد صغر قدر الجزاء على حسب ضعف البلاء».

أى أن التكامل الإنساني يأتي عبر الاختبار الشديد والابتلاء الأشدّ، وفي مواطن التضحية والعطاء وليس في محطات الترف والرخاء، فيواصل سلام الله عليه تفسيره مستأنفاً:

«ولو كان الأساس المحمول عليها،



ص: ٩٨

والأحجار المرفوع بها، بين زمردة خضراء وياقوتة حمراء، ونور وضياء، لخفف ذلك مصارعة الشك في الصدور، ولوضع مجاهدة إبليس عن القلوب، ولنفي معتلج الريب من الناس، ولكن الله يختبر عباده بأنواع الشدائد، ويتعبدهم بألوان المجاهد، وبيتليهم بضروب المكاره، إخراجاً للتكبر من قلوبهم، وإسكاناً للتذلل في نفوسهم، وليجعل ذلك أبواباً فتحة إلى فضله وأسباباً ذللاً لعفوه..» (١).

ومن كلام أمير المؤمنين وسيد البلغاء الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في فلسفة الحج قول آخر، جاء فيه: (٢) «فرض عليكم حج بيته الحرام، الذي جعله قبلة للأنام، يردونه وروود الأنعام، ويألّهون إليه ولوه الحمام، و جعله سبحانه علامة لتواضعهم لعظمته، و إذعانهم لعزته، واختار من خلقه سماعاً أجابوا إليه دعوته، وصدقوا كلمته، ووقفوا مواقف أنبيائه، وتشبهوا بملائكته المطيفين بعرشه، يحرزون الأرباح في متجر عبادته، ويتبادرون عنده موعد مغفرته، جعله سبحانه وتعالى للإسلام علماً، وللعاثدين حرماً، فرض حقه، وأوجب حجه، وكتب عليكم وفادته، فقال سبحانه:

ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإن الله غني عن العالمين» (٣).

ويبدو في هذا العرض الوصفي البليغ لأمر المؤمنين عليه السلام أن الله تعالى جعل من بيته العتيق ملاذاً (يأله) إليه المؤمنون، أي يلوذون به ويعكفون عليه، ولكن بأي شكل؟ ولوه الحمام الوديع والطيور الآمنة إلى أعشاشها، كما جعله سبحانه ورداً يرده عباد الله الصادقون بتواضع وانكسار مقرّين بعظمة رب البيت سماعين لدعوته مؤدّين فريضته يقفون مواقف الأنبياء في تلبية النداء، مؤدّين واجبات الزيارة إتماماً لمظهر العبودية وترسيخاً لمبدأ الولاية والطاعة، وإقراراً بوحدانية الحق واستجابة لنداء الخالق العظيم ومن كل الأرض وعلى كل ضامرٍ يأتين من كل فج عميق» (٤).

الحج سياحة وعبادة

وفي كلمة أخرى له (سلام الله عليه)

١- ١ نهج البلاغة: الخطبة ١٩٢.

٢- ٢ نهج البلاغة- الخطبة الأولى.

٣- ٣ آل عمران: ٩٧.

٤- ٤ الحج: ٢٧.

ص: ٩٩

وإضافة إلى ما أشار إليه في هذه الخطبة من أنّ الحج متجر عبادة وحرز أرباح حلال، يقول أمير المؤمنين: «... وحج البيت واعتماره فإنهما ينفيان الفقر ويُرخصان الذنب» (١) ويرخص هنا، بمعنى يمنع أو يغسل. أي أنّ هذه الفريضة العبادية وفضلاً عما فيها من طلب رزق حلال وتجارة كريمة، ترفع غائلة الفقر وذل الحاجة، فإنّه موسم عبادي لانعتاق الروح وغسل الذنوب والتقرب إلى الله سبحانه وتعالى في أيام معلومات يسميها (أيام الله) يلتقى فيه أبناء الشرق أبناء الغرب يتدارسون همومهم ويعيشون آمالهم وتطلعاتهم، وفي أجواء عبادة وتسامي نحو الملكوت في بيتِ أذن الله تعالى أن يُذكر فيها اسمه، وبعيداً عن كل ألوان الوصاية الدنيوية والرقابة الأرضية التي يفرضها الطواغيت والظالمون على أممهم وشعوبهم..

ففي كتاب له عليه السلام إلى عامله على مكة (قثم بن العباس) جاء فيه:

«أمّا بعد... فأقم للناس الحجّ وذكّرهم بأيام الله، واجلس لهم العصرين، فأفتِ المستفتي، وعلمّ الجاهل، وذكّر العالم، ولا يكن إلى الناس سفيراً إلاّ لسانك، ولا حاجباً إلاّ وجهك، ولا تحجبين ذا حاجة عن لقاءك بها..» (٢).

ويُسمّى أمير المؤمنين هنا أيام الحجّ بأنها أيام الله وهي الأيام التي يُعاقب فيها المذنبون بذنوبهم ويجازى الصالحون المؤمنون على إيمانهم وأعمالهم الصالحة. وكأنّ أيام الحجّ هذه هي أيام اختبار وتمحيص ينكشف فيها من يلبي داعي الله لحجّ بيته، ومن ينكفي غير عابئ ببناء السماء، فضلاً عما فيها من عروج في معاني القيم والفضائل وابتعاد عن اللغو والجدل والفسوق واللغو التي تكتنف أيام الإنسان الأخرى حين يكون مشدوداً إلى أعماله اليومية بعيداً عن استحضار هذه القيم والمعاني التي يمكن استحضارها في لقاء الإنسان لأخيه الإنسان في أيام حرام وبيت حرام ومشعر حرام ولا يُذكر فيها غير الله ولا تُستحضر غير رحمته ولطفه وعنايته، فالكلّ مشدود نحوه وبكلّ

١-١ نهج البلاغة: الخطبة ١١٠.

٢-٢ نهج البلاغة: الكتاب ٦٧ إلى قثم بن العباس.

ص: ١٠٠

الألسن واللهاجات واللغات والكلّ يلهجون بذكر الله ويتجهون نحو قبلته وهم موحدون متحدون وتحت شعار خالد واحد يهتف به الجميع مرددين:

«لبيك اللهم لبيك.. لبيك لا شريك لك لبيك.. إن الحمد والنعمة لك والمُلك لا شريك لك».

البعد المفهومي للحج:

وحيث يأتي الإمام على عليه السلام ليشرح البعد المفهومي للحج، وعند مقارنته مع الفرائض والعبادات الأخرى في دين الإسلام، يعطيه معنى خاصاً، ويفرد له مذاقاً خاصاً فيقول (سلام الله عليه):

«فرض الله الإيمان تطهيراً من الشرك، والصلاة تنزيهاً عن الكبر، والزكاة تسيباً للرزق، والصيام ابتلاءً لإخلاص الخلق، والحج تقرباً للدين، والجهاد عزاً للإسلام، والأمر بالمعروف مصلحة للعوام، والنهي عن المنكر ردعاً للسفهاء...» (١).

فالحج اذن، تقرباً للدين كما هو علم للإسلام، وهي التفاتة سياسية دقيقة، بالمعنى الديني للسياسة طبعاً. أي أنه وسيلة كسب واحتواء ومحطة تعبئة واستيعاب لمن يُراد لهم الاقتراب من الدين والدعوة له والترويج إليه.. فهو من ناحية الفرد نفسه يكون تقرباً لدينه، كما أن الزكاة تكون تسيباً للرزق، والصلاة تنزيهاً عن الكبر. وهو من ناحية الجماعة المسلمة يكون تقريباً أيضاً وتعارفاً وتآلفاً وتحابياً يشد من عضد الجماعة، ويُشعرها بانتمائها لتحقيق أهداف كبرى أو مواجهة أزمة شاملة أو عدو مشترك. أي أن الحج وبهذا المؤتمر العالمي والحشد المليونى الهائل ومن كل أقطار العالم الإسلامى يمكن أن يكون مثابة انطلاق كبرى لإعزاز الدين والتقرب إلى الله أكثر، وفي أقل التقادير الاعتزاز بهذا الانتماء الكريم لدين الله والتعرف على أبناء الدين الواحد وفي هذه الأيام الخالدة وانطلاقاً من قوله تعالى:

يا أيها الذين آمنوا إنا خلقناكم من ذكرٍ وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم (٢).

إشارة استيعاب لافتة:

وفي إشارة دقيقة أخرى، ومن بُعد

١- ١ نهج البلاغة: باب المختار من حكم أمير المؤمنين - ٢٥٢.

٢- ٢ الحجرات: ١٣.

ص: ١٠١

آخر، وفي كلمة وصفية، يعالج الإمام على عليه السلام الضعفاء من المسلمين ويُدَارِيهِمْ مداراةً نفسيةً غايةً في الدقة، فيلمس جرحهم ويلتمس لضعفهم عذراً، ويترك الباب مفتوحاً، لمن يرى نفسه مؤهلاً يوماً ما لخطوة متقدمة في الجهاد مثلاً فيقول - سلام الله عليه -:  
«والصلاة قربان كل تقى، والحج جهاد كل ضعيف» (١).

أى أنه - سلام الله عليه - يريد أن يستوعب الفقير الذي لا مال لديه يتقرب به إلى الله، فيجعل الصلاة بديلاً لهذا القربان أو عوضاً لمن لا يستطيع أو لا يملك مالاً يبذله في سبيل الله أو ينفقه على عيال الله. ويستوعب الضعيف كذلك الذي لا يقوى على الجهاد فجعل له الحج جهداً أو جهاداً يبذله مقابل الجهاد الذي ينوء بأدائه لضعفه أو استضعافه.

وفي هذا لمسئمة نفسية أو حالة تربوية لمن يُريد أن يحتفظ به في دائرة العطاء الصغرى تمهيداً للدائرة الأوسع التي فيها بذل وتضحية بالأموال والأنفس، وهي الدرجة التي امتدحها القرآن الكريم وأثنى على رجالها في قوله عز من قائل:  
الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله (٢).

الحج دين ودنيا

ومن تلمس هذه الإشارات في أقوال وحكم الإمام على عليه السلام ودراساتها والتأمل فيها نرى أن الحج سياحة وجهاد، تجارة وعبادة، ترويح وعمل، وبه ومن خلاله يمكن تعبئة الفرد المسلم روحياً وتحشيد المسلمين في مؤتمر عبادى جهادى تجارى قلما يتوفر مثله لدين أو مذهب أو أتباع دين... ومن هذا الملتقى المليونى الذى يفرضه الدين الإسلامى على أتباعه تتحقق أغراض عديدة يلتقى بعضها مع أحدث ما توصل إليه علم النفس المعاصر فى ضرورة ترويح النفس عبر السفر والسياحة وما فيها من تجربة مضافة وعلم مضاف ومستأنف، وهذا ما تسعى لتطبيقه العديد من الدول المعاصرة حين تفرض على رعاياها أو تمنحهم منحة سنوية تحت هذا العنوان، أى أنها تحرّضهم على السفر والعودة

١- ١ نهج البلاغة: باب المختار من حكم أمير المؤمنين - ١٣٦.

٢- ٢ التوبة: ٢٠.

ص: ١٠٢

بنفسٍ جديد وطاقة جديدة لاستئناف العمل ومواصلة الكفاح مع الحياة.

وحين يأتي الحجّ تحت هذا العنوان فإنه يجمع الدين والدنيا معاً، ويجمع العلم المضاف والتجربة المضافة مع الربح والتجارة، وحين يعود الإنسان المسلم من موسم حجّه وهو مغفور الذنب نظيف الثوب مقبول التوب، معافى نفسياً وروحياً، يستقبله أصدقاؤه وأحبّاءه بعبارة معروفة:

«حجّاً مبروراً وسعياً مشكوراً وذنّباً مغفوراً» لبيدأ رحلة كدح جديدة مع الحياة بروح سامية، غسلت أدرانها مشاهد ومواقف خالدة تذكّر فيها مواقف عظماء الإسلام وهم يطوفون حول البيت العتيق ليحملوا رسالة السماء إلى أهل الأرض وعبر توضّحات جسام ما كانوا لينالوا كلّ هذا الخلود لولاها...

استحضار القيم والمواقف

فكم هو رائع وبهي أن يستحضر «الحاجّ» مواقف النبي صلى الله عليه وآله وأصحابه وهم ينشرون الأخوة والعدل والمساواة بين بني البشر بتلك التوضّحات الغالية! وكم هو عجيب وغريب مثلاً أن يُمنح النبي صلى الله عليه وآله ذكراً حسناً ومجداً خالداً حيث لا تمرّ دقيقة واحدة في شرق الأرض وغربها إلا ويذكر فيها اسمه من مآذن المسلمين وعلى حساب المواقيت ومواعيد الصلاة وعلى امتداد ساعات الليل والنهار... وهكذا تستحضر مواقف أصحابه وجهودهم وجهادهم وهم ينتقلون بين مكّة والمدينة، وبين العراق والشام، وبين اشبيليا والصين وأفريقيا وأسبانيا، ومن أين؟ من غار حراء، من عرفات ومنى، ومن يثرب والمسجد النبوي ومن شعاب مكّة وغار جبل ثور ومعارك المسلمين في أحد وبدر وحنين.

وحين يستحضر الحاجّ كلّ تلك المشاهد والمواقف، وحيث يضع قدمه في موضع ربّما وطأه يوماً عدداً من الصحابة الأجلاء، فإنه يستحضر أول ما يستحضر مواقف عليّ وشجاعته وسيفه في معارك المسلمين ودوره الحاسم في انتصار الإسلام وانتشار دين الله في الأرضين...

ولعلّ أفصح ما يستحضره الحاجّ في

ص: ١٠٣

أيام الله تلك هي حجة الوداع التي ودّع فيها النبي أمته مشيراً أنه ربما لا يلقاهم بعد عامهم هذا وكيف أنه صلى الله عليه وآله أوصى بما أوصاه في علي عليه السلام وأقواله الخالدة فيه:  
«من كنت مولاه فهذا علي مولاه...»

اللهم وال من والاه، وانصر من نصره، واخذل من خذله...» وكيف أن المسلمين بالآفهم المؤلفه يصغون ويسمعون حتى راح بعضهم يهتنون علياً ويقولون له: بخ لك يا علي: لقد أصبحت مولى كل مؤمن ومؤمنة.. (١)، وكيف أعقب هذا الحديث الكبير نزول الوحي بقوله عز من قائل:

.. اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً.. (٢)

، وكيف أن عمر ابن الخطاب نفسه لقي علياً وقال له:

«هنيئاً أصبحت وأمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة» (٣).

وهكذا في مشاهد وأعمال الحج وحيث الطواف حول الكعبة، ومقام إبراهيم والسعي بين الصفا والمروة واستحضار التاريخ ومواقف الأنبياء والأئمة في عرفات وفي غيرها.  
الهدف الأكبر بين الشكل والمحتوى:

ولعلنا نأتى إلى ذروة ما أراده الله سبحانه وتعالى في جعل الحج فريضة على كل مسلم ومسلمة، في قوله عز وجل:

لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعمُوا الْفَقِيرَ \* ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ \* ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأَحَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٤)

أمّا ذروة ما وصل إليه الإمام علي عليه السلام من توصيفه للحج وفلسفته فهو حين جعله «علماً للإسلام» و «تقرباً للدين» و «جهاداً للضعيف» ولم يفته أن يوصى به عند وفاته قائلاً: «اللّٰه الله في بيت ربكم، لا تخلوه ما بقيتم، فإنه إن ترك لم تناظروا» (٥).

١- ١ الحديث مشهور وترويه كل كتب المسلمين بجميع فرقهم وطوائفهم.

راجع: مسند أحمد بن حنبل ٤: ٣٨١، ٣٦٨ دار صادر. وتفسير ابن كثير ١: ٢٢. وسنن ابن ماجه المقدمة: ١، باب ١١، وراجع البداية والنهاية لابن كثير أيضاً بعدة طرق ٧: ٣٦٠-٣٦١.

٢- ٢ المائدة: ٣.

٣- ٣ مسند الإمام أحمد بن حنبل ٤: ٢٨١، وقد أشهد عليّ جمعاً من الناس، فشهد له ثلاثون أنهم سمعوا هذا الحديث من رسول الله صلى الله عليه وآله.

٤- ٤ الحج: ٢٨-٣٠.

٥- ٥ نهج البلاغة: الكتاب ٤٧.

ص: ١٠٤

ولم يكن الأئمة عليهم السلام ليتركوا هذه الفريضة في إطارها الشكلي فقط، بل حركوا مضمونها ومقاصدها، إذ قال الإمام الصادق عليه السلام: «الحج حجان:

حج لله وحج للناس، فمن حج لله كان ثوابه على الله الجنة، ومن حج للناس كان ثوابه على الناس يوم القيامة» (١).  
أما الإمام الباقر عليه السلام فقد كان أكثر جرأة على أولئك الذين يكتفون بالشكل وينسون المحتوى، أو يهتمون بالإطار ويتجاهلون المضمون، فقال سلام الله عليه:

«لئن أعول أهل بيت من المسلمين وأشبع جوعتهم وأكسو غريهم وأكف وجوههم عن الناس، أحب إلي من أن أحج حجته وحجته وحجته حتى انتهى إلى عشرة ومثلها ومثلها حتى انتهى إلى سبعين» (٢).

وعن عبد الرحمن بن كثير قال:

حججت مع أبي عبد الله عليه السلام، فلما صرنا في بعض الطريق، صعد على جبل فأشرف فنظر إلى الناس فقال: ما أكثر الضجيج وأقل الحجيج (٣)!

وهكذا فصل أئمتنا عليهم السلام بين الحج كهدف والحج كوسيلة، وكيف جعل بعضهم إغائته ملهوف أفضل من الطواف حول الكعبة مثلاً، وجعلوا حرمة المؤمن أفضل من حرمة الكعبة، بل ترك إمامنا سيد الشهداء الحسين عليه السلام الحج حين عزم على الرحيل إلى كربلاء لطلب الإصلاح في أمة جده بعد أن شعر أن حدود الله قد ديست وأن حرمة المؤمنين قد انتهكت فقال قولته الشهيرة: «إني لم أخرج أشراً ولا بطراً، ولا ظالماً ولا مفسداً وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي رسول الله، لأمر بالمعروف وأنهاى عن المنكر» وخاصة بعد أن شخص - سلام الله عليه - تجاوز الدعوى حدود الله، فأضاف:

«اللهم إنك تعلم أنه لم يكن الذي كان منياً منافسة في سلطان ولا التماساً لفضول الحطام، ولكن لردّ المعالم من دينك ونظهر الإصلاح في بلادك ويأمن المظلومون من عبيدك ويعمل بفرائضك وسننك وأحكامك».

وهذا ما يريده المصلحون على امتداد العهود والأزمان، بل ما أراده الله

١- ١ ثواب الأعمال ١٦: ٧٤.

٢- ٢ ثواب الأعمال: ١٧٠.

٣- ٣ بحار الأنوار للمجلسي ٣٠: ١٨١، ٢٧.

ص: ١٠٥

تعالى فى فرضه لبعض الشعائر والتعاليم والسنن، فكما أن القرآن مثلاً لم ينزل لكى يتم التبرك به ويقرأ فى المقابر وحدها وعلى الموتى وفى المحافل فقط، وإنما للعمل به وتطبيق سننه وأحكامه، فإن الحجّ وزيارة البيت الحرام هو الآخر لم يفرض لاستحصال الثواب وحسب وإنما للتعبير عن الطاعة لربّ البيت والرفق بعبيد هذا الربّ واللطف بهم والإحسان إليهم، وذلك عبر إشباع حاجاتهم وإغائته ملهوفهم وحفظ حرّات المستضعفين منهم.

الهوامش:

**الأرض العظيم**





ص: ١٠٧

الإرث العظيم

محسن الأسدي

إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ سُورَةُ

البقرة: ١٥٨

انطلق نبي الله إبراهيم عليه السلام بأهله، يقطع الفيافي ويجوب البوادي في رحلة إيمانية ربانية، لا يتتابه شكك، ولا يخامره تردّد، بل طاعة خالصة لا شبهة فيها ولا ريب، وهو يصوّب نظريه، إلى حيث تأمره السماء التي ما انفكت إرادتها ترافقه في سفره هذا، وكلّما لاحت لإبراهيم الزوج الكريم والأب الحنون بين تلال تلك الوديان واحّة تحيطها شجيرات لا يتجاوز عددها أصابع اليد الواحدة، أو لمح بقعة يحفّها زرع ويظللها نخيل إلّا وتمنى أن تكون هي المكان الذي اختارته السماء مأوى لأهله ولذريته من بعدهم.

إنّها مجرد أمان لا- غير، وخواطر تخطر على قلب أب مملوء رحمةً وحناناً، وهو أمر بشري وحاله طبيعية لم يتخلّ عنها الأنبياء مع منزلتهم السامية وشأنهم العظيم.. لا يتنافى هذا مع تسليمه وانقياده إلى خالقه وبارئه تعالى.

بيد أن وحي السماء راح يحدو بهذا الشيخ الكبير وبمن معه (زوجته هاجر

ص: ١٠٨

وابنه الرضيع إسماعيل) فأمامه شوط بعيد، في وديانٍ جدباء، وصحارى ملتهبه، ونظرات النبى إبراهيم توزعت هنا وهناك؛ يرمق السماء ببعضها مبتهلاً داعياً فيما يحنو ببعضها الآخر على ولده الوحيد يومذاك، وزوجته المطيعة الأمانة التى اختارتها السماء لوظيفه عظيمه،... هى الاخرى ظلت عيونها تارةً تحلق بعيداً فى هذه الفيافى الفاحله، وتارةً اخرى تذرف دموعها خوفاً على رضيعها الذى وقع اختيار السماء عليه أيضاً لدور آخر لا يقل عظمتاً عن دور امه، فراحت تستنزل بعبرتها وبرقتها المعروفة وعواطفها الجياشه رحمه الله... ظلّ الثلاثة يواكبهم جبرائيل ما إن يجتازوا هضبةً وعرةً إلّا لينحدروا فى اخرى، وما إن يعبروا وادياً جديداً حتى يهبطوا آخر أكثر منه جفافاً وجدباً... فى أرض نائية لا زرع فيها ولا ظلال... حتى هبطوا البطحاء... إنَّها بطحاء مكّة، حيث محطّ رحالهم..

إذن ماذا يُريد هذا الشيخ بأهله فى هذه الصحارى وبين هذه الجبال؟ بل ماذا يُراد به وبأهله..؟

ونجد جواب ذلك فى قول إبراهيم الخليل حيث همّ بالرجوع من حيث أتى، وقد ترك زوجته وابنه مع زاد يسير وماء قليل عند بيتك المحرم.

نظرت إليه زوجته وقد رآته بهم بالعودة إلى الشام دونهما، فقالت:

يا إبراهيم أتدعنا فى موضع ليس فيه أنيس ولا ماء ولا زرع؟! إلى أين تذهب؟ ولمن تتركنا فى هذا الوادى الموحش المقفر؟ وراحت تستعطفه، فأبان لها وقد رقّ قلبه ودمعت عيناه.. الله الذى أمرنى أن أضعكم فى هذا المكان هو يكفيكم.

فما كان لها بعد أن وعت قوله إلّا الانقياد لحكم الله والتسليم له، والركون لرحمته، وهى تردّد «لن يضيّعنا الله»، فيما راح دعاء إبراهيم فى وادى مكّة يتردد صده فى سفوحها ووديانها وجبالها...

ص: ١٠٩

رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْنَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (١)

ليقيموا الصلاة

كل هذه الرحلة الشاقمة والمريرة والمحفوفة بالمخاطر من أجل هذا الهدف العظيم بكل ما يحمله من معانٍ سامية ويضمه من مفاهيم عظيمة... نعم ليقيموا الصلاة بكل ما تحمله من معانٍ جميلة وأهداف جليدة.. لا في أي مكان، إنما في هذه البقعة المباركة.. حيث القلوب التي تهوى وحيث الرزق الوفير.. وحيث الطمأنينة والأمان... وحيث البيت الطاهر، وحيث الطائفون والراكعون والساجدون... إنه المكان الذي تطله السماء برحمتها وتنزل عليه بركاتها.. لتقام الصلاة كما تريدها السماء شكلاً ومضموناً.. لتنتقل إلى كل بقاع الدنيا وفجاجها..

\*\*\* عاد إبراهيم، وبدأت رحلته أخرى لهاجر لا تقل مشقة ومخاطر عن الرحلة الأولى، إن لم تكن أكثر خطورة منها وأعظم، حيث لا وحى ولا نبي يرافقها، إنما لتبدأ حياتها وقد ارتدت لباس التقوى وتحلت بالصبر الجميل، وحيدة بجوار بيت الله الحرام ولتتم رسالتها ووظيفتها، فقد تكفلت رعاية نبي آخر، تدفع عنه الأذى، وترعاه رضيعاً ويافعاً.. فمكثت ترعى وليدها وتأكل مما تركه لها إبراهيم عليه السلام حتى نفذ ماؤها وقل زادها.. وجف ضرعها.. فعلا صراخ طفلها.

قامت تبحث عن منقذ في بطن وادٍ مخيف، تصوب نظراتها إلى هذه الجبال الشاهقة وإلى تلك التلال البعيدة.. فهنا جبل أبي قبيس حيث الصخور الملساء، يقابله جبل قيععان حيث الحجارة الرخوة.. وهي في وادٍ لا حياة فيه إلا لشجيرات عجفاء متناثرة هنا وهناك.. إنها الصحراء.. ذات الشمس المحرقة واللهب اللافح.. تعيش حاضراً حزيناً وغداً غامضاً بهيماً.. لتخلد في ذاكرة

ص: ١١٠

التاريخ.. وتعيشها النفوس ذكرى عظيمةً عبر شعيرة مقدّسة..

إذن هنا ابتلاء آخر لها في بطحاء مكّة.. فقد بدأ العطش يأخذ أثره ويحزّ في كبدها وكبد رضيعها.. الذى راح يلوك بلسانه باحثاً عن قطرة ماءٍ فى فضاء فمه المتيسّس.. فعلا- بكاؤه وطال نحيبه.. فما كان من امّه التى اضطربت لمنظر ابنها.. إلّا أن تبحث له عن شربة ماءٍ تنقذ بها حياته.. اندفعت هنا وهناك تعلو صخرةً وتهبط اخرى، وإذا بها بين جبلين ووادٍ يربط بينهما، فارتفعت فوق صخرات الصفا لتتنظر بعيداً فتري سراباً تخيلته لحيّة فأسرعت إليها، فإذا هى بجبل لم تجد عنده شيئاً إلّا الأحجار.. فأدارت بوجهها من حيث جاءت متطلّعةً إلى الوادى الآخر الذى اجتازته.. فبعُد عنها مكان ابنها ولم تعد تراه، وإذا بها تجد شيئاً آخر عند بداية انطلاقتها الاولى إنّه ماء فعادت مسرعةً إليه.. لتعترف منه غرفةً تسعف بها غليل وليدها، وقد راح كلّ منهما يستغيث.. ولما لم تجد عنده شيئاً علت ملامحها خيبة وانكسار، نظرت إلى خلفها فوجدت هناك سراباً حسبته ماءً.. وهكذا حتّى أكملت بعملها هذا سبعةً أشواط ذهاباً وإياباً؛ لتنتهى فى شوطها السابع عند المروءة..

تقول الرواية:.... لما نفذ الماء.. صعدت الصفا تستغيث بمن يأتيها بالماء، ثم سعت منه إلى المروءة، ثم عادت إلى الصفا تستغيث سبع مرّات حتّى أغاثها جبريل بنبع الماء بجوار إسماعيل عليه السلام.. (١).

نظرت هناك إلى ابنها الذى علا صراخه وراح يضرب الأرض باحثاً عن قطرة ماء.. عادت إليه تعبئة خائفة القوى.. قضت سبعةً أشواط بين سرايين دون أن تحصل على قطرة ماء له.. هنا كانت المفاجأة، فقد وجدت إسماعيل يلهو ويلعب بماءٍ نبع من تحت قدميه وهى لاتصدّق ما تراه.. إنّها الرحمة الإلهية نزلت بعد أن امتحنها الله تعالى، فما زادها هذا الامتحان إلّا صبراً وتحملاً وإيماناً.. وهى نفسها حكمة السعى والطواف بين هذين الجبلين لجوء المؤمن إلى ربّه والسعى نحوه

ص: ١١١

والهرولة بين يديه المباركتين متوكِّلاً عليه تائباً لائثاً به متوسلاً سائلاً ما ينجيه من خزي الدنيا وعذاب الآخرة..

هاهى امنية إبراهيم تتحقّق، وها هو الماء الذى ستهوى إليه الأفئدة.. وها هو المكان الذى سيكون منبع خير وعطاء ورحمة للعالمين. فحققت سيدتنا هذه شعيرة كانت ولا زالت من شعائر الله تعالى، وأصبح سعيها بين هذين الجبلين منسكاً عظيماً من مناسك فريضة الحجّ التى أوجبها الله تعالى على عباده المؤمنين، واحتلت بذلك مكاناً مرموقاً فى التشريع الإسلامى، وغدا ذا دلالات كبيرة ومعانٍ جمّة، فراح الحجيج بمجموعهم يحذون حذوها، يسعون سعيها، يتذكرون معاناه هذه المرأة التى دخلت التاريخ الإنسانى والدينى، وهى تعلق تلك الصخور الجرداء الملساء وتشقّ صعاب ذلك الوادى الأجرد الخالى من كلّ مقومات الحياة، فى لفحة شمسٍ شديدة ورمالٍ ملتهبة وجوى يلمّ بقلبها على وليدها الذى تركته غير بعيد، يعتصر قلبه عطشٍ مرير، وهو فى رمة الأخير..

لم تكن تعلم أنّ جهدها هذا ومعاناتها وتعبها وقلقها وخوفها سيكون يوماً منسكاً يُتعبّد به فى عبادة يهفو لها جميع المسلمين من كلّ فجّ عميق وواجباً وركناً ينهدم به الحجّ إن لم يؤت به..

فليس هناك ريب فى أنّ السعى الذى سعته هاجر بين جبلى الصفا والمروة بأشواطه السبعة منسك من مناسك فريضة الحجّ عند جميع المسلمين وواجب من واجباتها وركن من أركانها التى هى: (التّيّة، الإحرام، الوقوف بعرفة، الوقوف بالمشعر، الطواف، السعى) يبطل الحجّ بترك واحد منها، وهو ركن أيضاً فى العمرة سواء أكانت عمرة التمتع بالحجّ، أو فى العمرة المفردة، ويشكّل واحداً من أركانها الأربعة (التّيّة، الإحرام، الطواف، السعى)، يبطل الحجّ وتبطل العمرتان المذكورتان بالترك العمدى لأى من هذه الأركان بما فيها السعى الذى نحن بصدده.

ص: ١١٢

وهناك تفصيل خاص في الوقوفين يذكره الفقهاء ليس هذا محلّه...

حقاً؛ إنه إرث مبارك أورثته لنا هذه المرأة الصالحة المؤمنة بالله تعالى الوفيه لزوجها نبي الله إبراهيم، المتفانيه في رعايه وليدها..  
حقاً؛ إنه دور عظيم وإرث مبارك صاغته يد الغيب، وحظيت هاجر؛ النموذج النسائي الرائع والمرأة المؤمنة والزوجه الصالحة والام المتفانيه، التي عرفت بكمال انقطاعها إلى الله تعالى، بأن تكون بطلة هذا الدور، وصاحبه هذا الإرث.

ورحم الله حبر الامة ابن عباس، وقد رأى قوماً يطوفون بين الصفا والمروه فقال:

هذا ما أورثكم أمكم ام إسماعيل.

مع روايه ابن عباس

... ثم جاء بها (هاجر) إبراهيم وبانها إسماعيل وهي ترضعه، حتى وضعها عند البيت عند دوحه فوق زمزم في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعها هنالك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيم منطلقاً فتبعته ام إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم! أين تذهب وتركننا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً، وجعل لا يلتفت إليها، فقالت له: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم.

قالت: إذا لا يضيعنا.

ثم رجعت، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنيه حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت بهذه الدعوات، ورفع يديه فقال: رب إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع حتى بلغ يشكرون وجعلت ام إسماعيل تُرضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى - أو قال: يتلبط - فانطلقت كراهيه أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها (إليها)، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً،

ص: ١١٣

فلم ترَ أحداً، فهبطت من الصفا، حتّى إذا بلغت الوادى، رفعت طرف درعها، ثم سعت سعى الإنسان المجهود، ثم جاوزت الوادى، ثم أتت المروءة فقامت عليه، فنظرت هل ترى أحداً فلم ترَ أحداً، ففعلت ذلك سبع مرّات.

قال ابن عباس: قال النبى صلى الله عليه و آله: «فذلك سعى الناس بينهما».

فلما أشرفت على المروءة سمعت صوتاً فقالت: صه! تريد نفسها، ثم تسمعت فسمعت أيضاً فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث (من الإغاثة وهى الإعانة)! فإذا هى بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه- أو قال بجناحه- حتّى ظهر الماء، فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا (وهو حكاية فعلها وهو من إطلاق القول على الفعل) وجعلت تغرف من الماء فى سقائها وهو يفور بعدما تغرف.

قال ابن عباس: قال النبى صلى الله عليه و آله: «يرحم الله أم إسماعيل! لو تركت (زمزم)- أو قال: لو لم تغرف من الماء- لكانت زمزم عيناً معيناً».

قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافى الضيعة، فإنّ هاهنا بيت الله بينه هذا الغلام وأبوه، وإنّ الله لا يضيع أهله...

القراءة

هناك قراءات متعدّدة لهذه الآية:

فقد روى عطاء عن ابن عباس أنّه قرأ فلا- جناح عليه ألّا يطوف بهما وهى قراءة ابن مسعود، ويروى أنّها فى مصحف أبيّ بن كعب كذلك ويروى عن أنس مثل هذا، وأنّ محمّد بن سيرين مولى أنس بن مالك كانت هكذا قراءته.

وإضافةً إلى كونها قراءة شاذة، هناك ردود ذكرت على هذه القراءة منها:

(١) أنّها مخالفة لما ثبت فى المصحف، ولا يصحّ الانتقال من الذى ثبت فى المصحف إلى قراءة اخرى هى موضع خلاف ولا يُدرى أصحّت أم لا.

(٢) أنّ عطاءً كان يكثر الإرسال عن ابن عباس من غير سماع.



ص: ١١٤

(٣) وأن الرواية عن أنس أيضاً غير مضبوطة.

وإن ثبتت هذه القراءة ففيها احتمالان:

الأول: أن (لا) زائدة كما في قوله تعالى، الآية ١٢ من سورة الأعراف: قال ما منعك ألا تسجد.

وكما في قول أبي النجم:

وما ألوم البيض ألا تسخرا لما رأين الشمط القفندرا

القفندر: القبيح المنظر.

إذن على فرض صحته هذا الاحتمال فلا فرق بين القراءتين.

الثاني: أن (لا) غير زائدة، ويكون المعنى هكذا: أن رفع الجناح في فعل الشيء هو رفع في تركه، فهو تخير بين الفعل والترك.

فلا تتحد القراءتان على هذا الاحتمال، وبالتالي فيكون الفرق بينهما في أن القراءة الأولى أن يطوف قد رفع فيها الجناح الذي يترتب

على الفعل أى السعى بين الصفا والمروة، فيما يكون رفع الجناح في القراءة الثانية قد ترتب على ترك الفعل (١).

نحن والآية

مع أن كلماتهم اتفقت على أن السعى واحد من واجبات فريضة الحج والعمرة وإن اختلفوا في ركنيته، كما تدل عليه الروايات عند

الفريقين والسيرة النبوية قولاً وفعلًا، وأقوال أئمتهم وعلمائهم، إلا أنهم اختلفوا في أن الآية المذكورة بذاتها تدل على الوجوب هذا أو لا

يمكن استفادة هذا الوجوب منها.. بل اتخذ بعضهم الآية دليلاً على عدم وجوب السعى كما سنرى.

ونحن هنا نقف عند الذى اختلفوا فيه وهو الآية بعيداً عما اتفقوا عليه من

١-١ انظر فى هذا الدرّ المصون فى علوم الكتاب المكنون للسمن الحلبى ٢: ١٨٨-١٩٣ فإن فيه فوائد جمّة، ومعجم القراءات القرآنية

١: ١٢٨ وغيرهما.

ص: ١١٥

السيرة والروايات.. لثرى هل الآية، التي نزلت في عمرة القضاء سنة ٧ هـ (وسميت كذلك لأنها شرط من شروط صلح الحديبية سنة ٦ هـ والذي بدأ ب هذا ما قاضى به..) تصلح لأن يستدل بها على وجوب السعى أو نفيه، أو لا هذا ولا ذاك، وغاية ما تدل عليه هو الاستحباب أو لا تدل على شيء من هذه الأحكام التكليفية أصلاً..

إذن وقع الخلاف في الاستفادة من هذه الآية، وهل فيها أو في ظاهرها دلالة على وجوب السعى، الذي ذهب إليه جمع من المفسرين والفقهاء من الفريقين كما سنرى، أو لا دلالة فيها على ذلك، وكل ما تدل عليه هو استحباب السعى أو إباحته وهو ما استفاده آخرون. وكلمة فلا- جناح هي المحور الرئيس لهذا الخلاف في فهم الآية ودلالاتها، فيما ظلت فمن تطوع خيراً... دليلاً آخر استعان به بعضهم على عدم دلالة الآية على وجوب السعى، وكل ما تدل عليه هو التخيير...

بعد هذه الخلاصة، نأتى إلى الآية الكريمة، وهي الوحيدة في موضوعها التي ذكرت في القرآن الكريم، والتي جاءت إما رداً على ما توهموه من حظر السعى بين الصفا والمروة بعدما ذكر الله تعالى في كتابه الطواف بالبيت ولم يذكر السعى، وإما جواباً عن تساؤلهم عن حكم السعى الآن، بعد أن كان من مناسك الجاهلية، أو درءاً لشبهه عرضت لهم أو رفعاً لحرصٍ وقعوا فيه بسبب وجود الأصنام على الصفا والمروة...

وقد رأيت أن تدرس الآية عبر مقاطعها الثلاثة:

المقطع الأول: إن الصفا والمروة من شعائر الله.

المقطع الثانى: فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما.

المقطع الثالث: ومن تطوع خيراً فإن الله شاكرٌ عليم.

ومن خلال دراسته كل مقطع منها لوحده، وبتظايرها يمكن أن يستقيم معنى

ص: ١١٦

الآية ويتّضح مرادها، فيرفع ما توهمه بعضهم ورتّب عليه أموراً وأحكاماً غير ما تحمله الآية نفسها وتريده، ونأى بعيداً عمّا تهدفه... وحاولتُ أن تكون هذه الدراسة للآية مستفاداً من الآية نفسها عبر مقاطعها الثلاثة، وما جاء به المقطع الثاني والثالث من فوائد تفرّعت كلّها على المقطع الأوّل أو جاءت نتيجة له، مستعيناً في هذا كلّه بأسباب نزول الآية التي تحكى الأجواء والظروف وما رافقتها من أحداث وملايسات... وبما جاء في الروايات وأقوال المفسّرين والفقهاء... فنبدأ أوّلًا بذكر أسباب النزول.

أسباب النزول

إنّ معرفة الأجواء والظروف التي نزلت فيها الآية، والحالة المعاشة وما حدث فيها من تساؤلات وملايسات، وما أدّت إليه من توقّف أو إحراج وتردّد... كلّ هذا ولعلّ هناك غيره يمكن استفادته من دراسة أسباب النزول، فتعطينا هذه الدراسة على فهم مراد الآية، وتزيل كلّ لبس أو إشكال يحيط بفهمها، وتدفع بالتالى ما يوهمه - كما يقول بعضهم - ظاهر الآية، من أنّ السعى ليس بواجب ولا يتوقّف عليه الحجّ ولا العمرة، بل هو مباح، والحاج أو المعتمر مختار فى الإتيان به أو تركه.. فإنّ معرفة السبب إن لم يورثنا العلم بالمسبّب وما يتضمّنه من معانٍ ومرادٍ، فإنّه - على الأقلّ - يقربنا من معرفة كلّ هذا..

فقد ذكرت أسباباً متعدّدة ومختلفة لنزول هذه الآية نوجزها بما يلي:

١- إنّ الناس كانوا يطوفون كلّهم بالصفاء والمروة، فلتيّما ذكر الله تعالى الطواف بالبيت، ولم يذكر الصفا والمروة فى القرآن، قالوا: يارسول الله، كئنا نطوف بالصفاء والمروة، وإنّ الله أنزل الطواف بالبيت فلم يذكر الصفا، فهل علينا من حرج أن نطوف بالصفاء والمروة؟ أو كما عن الانصار: إنّما أمرنا بالطواف بالبيت ولم نؤمر به بين الصفا والمروة، فأنزل الله تعالى إنّ الصفا والمروة من شعائر الله الآية.

ص: ١١٧

٢- وعن الإمام الصادق عليه السلام كما ذكر في «فروع الكافي» في حديث حجّ النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: إن المسلمين كانوا يظنون أن السعي بين الصفا والمروة شيء صنعه المشركون، فأنزل الله: إن الصفا والمروة من شعائر الله.. فبعدها طاف (النبي) بالبيت وصلى ركعتيه (قرأ): إن الصفا والمروة من شعائر الله... وقال: أبدأ بما بدأ الله عز وجل (١).

٣- وهو ما ورد عن أنس بن مالك حيث قال: كنتا نرى أنهما من أمر الجاهلية، فلما كان الإسلام أسكنا عنهما، فأنزل الله تعالى إن الصفا والمروة....

وعنه أيضاً: كنتا نكره الطواف بين الصفا والمروة؛ لأنهما كانا من مشاعر قريش في الجاهلية، أو أن طوافنا بينهما من أمر الجاهلية فتركناه في الإسلام، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

٤- عن عائشة قالت: أنزلت هذه الآية في الأنصار، كانوا يحجون لمناء، وكانت مناء حذو قديد، وكانوا يتحرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة، فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله صلى الله عليه وآله عن ذلك، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وعنها أيضاً أنها قالت: أنزلت هذه الآية في ناس من الأنصار كانوا إذا أهلوا أهلوا لمناء في الجاهلية، ولم يحلّ لهم أن يطوفوا بين الصفا والمروة، فلما قدموا مع رسول الله صلى الله عليه وآله في الحجّ ذكروا ذلك له، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

٥- قال عمرو بن حبيش: سألت ابن عمر عن هذه الآية، فقال: انطلق إلى ابن عباس فسله، فإنه أعلم من بقي بما أنزل الله على محمد صلى الله عليه وآله فأتيته فسألته، فقال:

كان على الصفا صنم على صورة رجل يقال له: أساف، وعلى المروة صنم على صورة امرأة تدعى نائلة؛ زعم أهل الكتاب أنهما زنيا في الكعبة، فمسخهما الله تعالى حجرتين، فوضعا على الصفا والمروة ليعتبر بهما. فلما طالت المدّة عبداً من دون الله تعالى. فكان أهل الجاهلية إذا طافوا بينهما مسحوا على الوثنين، فلما جاء الإسلام وكسرت الأصنام، كره المسلمون الطواف بينهما لأجل الصنمية فأنزل الله تعالى

ص: ١١٨

هذه الآية.

٦- وأمّا الشّدَى فقد قال: كان في الجاهلية تعزفُ الشياطين بالليل بين الصفا والمروة، وكانت بينهما آلهة، فلما ظهر الإسلام قال المسلمون: يارسول الله، لا نطوف بين الصفا والمروة، فإنه شرك كُنا نصنعه في الجاهلية، فأنزل الله هذه الآية (١).

٧- وفي البخارى عن أبى بكر بن عبدالرحمن أنه قال: فأسمع هذه الآية نزلت في الفريقين كليهما: في الذين كانوا يتحرّجون أن يطوفوا في الجاهلية بالصفا والمروة، والذين يطوفون ثم تحرّجوا أن يطوفوا بهما في الإسلام من أجل أن الله تعالى أمر بالطواف بالبيت ولم يذكر الصفا حتى ذكر ذلك بعدما ذكر الطواف بالبيت (٢).

في أجواء الآية

مما لا شك فيه أن الآية المذكورة نزلت - حسب أسباب النزول - إما جواباً عن تساؤل وإما ردّاً لشبهات وإشكالات اثرت هنا وهناك بنوايا صادقة وبدوافع إسلامية خالصة، واخرى خبيثة، راح الأعداء يحاولون استثمارها وتوظيفها - كعادتهم - لصالح أهدافهم ومكائدهم، التي لم يتوقفوا عن تفعيلها في داخل الصف الإسلامي لتضعيفه أو على الأقل لزرع الشكوك بين أبنائه.

وليست هذه أول آية تنزل لمعالجة أمر خطير تعرّض له الجماعة المسلمة، فقد عودنا القرآن الكريم التصدى وبشكل مباشر لمعالجة ظواهر تتولّد فجأة أو تأتي عبر مقدمات أو نتيجة أحداث أو إعداد مسبق من قبل أيدي منافقة تريد العبث بأمن هذا المجتمع الجديد وسلامة معتقداته، وأمامك تحويل القبلة ودور يهود المدينة، وما حدث في معركة أحد، ومباهلة أهل نجران، وحديث الإفك، وغيرها من الأحداث التي نزل فيها قرآن.

فجاءت هذه الآية المباركة لتحسم إشكالات وتردّ شبهة وترفع تحرّجاً وقع فيه جمع من المسلمين.. فقد تحرّج عددٌ من صحابه الرسول صلى الله عليه وآله من السعى حينما

١- ١ انظرها في صحيح البخارى ٢: ٥٩٣، ٤: ١٦٣٥ وفي أسباب نزول القرآن للواحدى: ٤٩ - ٥٠.

٢- ٢ انظر البخارى ٢: ٥٩٣.

ص: ١١٩

عرضت لهم شبهة وإن كانت في بدايتها ذات دوافع إيمانية صادقة، إلّا أنّها كادت أن تتوسّع وتترك آثارها على الجماعة المسلمة فيما لو تركت دون معالجة ومعالجة حاسمة، وخير دليل على هذا الموقف القرآني عبر آية جاءت لتؤكد بقوة هذا المنسك ثم ترفع الحرج وأخيراً ترغب في الإكثار منه حتّى لا تكون مادّة يستغلّها الأعداء ومن في قلوبهم مرض...

عن التحرّج هذا، يقول سيد قطب: كان هذا التحرّج ثمرة التعليم الطويل، ووضوح التصوّر الإيماني في نفوسهم، هذا الوضوح الذي يجعلهم يتحرّزون ويتوجّسون من كلّ أمر كانوا يزاولونه في الجاهلية، إذ أصبحت نفوسهم من الحساسيّة في هذه الناحية بحيث تفرع من كلّ ما كان في الجاهلية، وتتوجّس أن يكون منهياً عنه في الإسلام، الأمر الذي ظهر بوضوح في مناسبات كثيرة..

ثمّ راح سيد قطب يواصل حديثه عن بواعث هذه الظاهرة ودور العقيدة الإسلامية والرسول صلى الله عليه وآله فيها قائلاً: كانت الدعوة الجديدة قد هزّت أرواحهم هزّاً وتغلّغت فيها إلى الأعماق، فأحدثت فيها انقلاباً نفسياً وشعورياً كاملاً، حتّى لينظرون بجفوة وتحرّز إلى ماضيهم في الجاهلية، ويحسّون أنّ هذا شطر من حياتهم قد انفصلوا عنه انفصلاً كاملاً، فلم يعد منهم، ولم يعودوا منه، وعاد دنساً ورجساً يتحرّزون من الإمام به!

وإنّ المتابع لسيرة هذه الفترة الأخيرة في حياة القوم ليحسّ بقوة أثر هذه العقيدة العجيب في تلك النفوس، يحسّ التغيّر الكامل في تصوّرهم للحياة؛ حتّى لكأنّ الرسول صلى الله عليه وآله قد أمسك بهذه النفوس فهزّها هزّةً نفّضت عنها كلّ رواسيها، وأعدت تأليف ذرّاتها على نسق جديد، كما تصنع الهزة الكهربائية في تأليف ذرّات الأجسام على نسق آخر غير الذي كان!

وهذا هو الإسلام.. هذا هو: انسلاخاً كاملاً عن كلّ ما في الجاهلية، وتحرّجاً بالغاً من كلّ أمر من أمور الجاهلية، وحذراً دائماً من كلّ شعور وكلّ حركة كانت

ص: ١٢٠

النفس تأتيها في الجاهلية، حتى يخلص القلب للتصوّر الجديد بكلّ ما يقتضيه..

فلما أن تمّ هذا في نفوس الجماعة المسلمة أخذ الإسلام يقرّر ما يريد الإبقاء عليه من الشعائر الأولى ممّا لا يرى فيه بأساً، ولكن يربطه بعروة الإسلام بعد أن نزعه وقطعه من أصله الجاهلي، فإذا أتاه المسلم، فلا يأتيه لأنه كان يفعله في الجاهلية، ولكن لأنه شعيرة من شعائر الإسلام، تستمدّ أصلها من الإسلام.

وهنا- والقول ما زال لسيد قطب- نجد مثلاً من هذا المنهج التربوي العميق، إذ يبدأ القرآن بتقرير أنّ الصفا والمروة من شعائر الله إنّ الصفا والمروة من شعائر الله...

فإذا اطوف بهما مطوف، فإنّما يؤدّي شعيرة من شعائر الله، وإنّما يقصد بالطواف بينهما إلى الله، ولقد انقطع ما بين هذا الطواف الجديد وطواف الجاهلية الموروث، وتعلّق الأمر بالله- سبحانه- لا بأساف ونائلة وغيرهما من أصنام الجاهلية! ومن ثمّ فلا حرج ولا تأثم، فالأمر غير الأمر، والاتجاه غير الاتجاه (١)...

إذن فبقراءة أسباب النزول المذكورة على التنافي في مضامينها وما تذكره من أسباب نعرف أنّ هذه الآية جاءت لتدفع ما وقع به بعض المسلمين من أنّ هذه الشعيرة باتت بعيدة عن المنهج السليم للإيمان وبالتالي فهي إن وقعت فلا مناص من أنّها امتداد واضح لأجواء الجاهلية وما يعبد فيها من أوثان.. فاجتثت هذه الآية هذا التصوّر، ولم تكتفِ بذلك بل وضعت هذا المنسك في مكانته من العقيدة الإسلامية والشريعة المقدّسة، وأنّه ليس خارجاً عنهما أو هو شيء طارئ لا أساس له شرعي وتاريخي وإنّما هو نسك ربّاني إبراهيمي.. وركزت في الأذهان- أيضاً أنّ خلوّ هذا المكان من الأصنام بل مع وجودها لا يضرّ أبداً بطهارة هذه الفريضة وشرعيتها، وأنّ العبادة ما دامت نابعة من الارتباط بالله وتؤدّي لله فقط دون غيره، وقائمة على اسس وضوابط شرعية فلا يحجبها عن القبول شيء

ص: ١٢١

ولا يعكّر صفوها شيءٌ آخر سواً أكان أصناماً أو أموراً أخرى تقع في ساحتها.

ثم إنَّ حرجهم هذا وقع بعد أن اعيدت الأصنام إلى الجبلين الصفا والمروة فقد رفعت بطلب من النبيّ صلى الله عليه وآله، حسب الرواية التي تقول: إنها رفعت وقد تأخروا لسبب من الأسباب عن السعي مع النبيّ والمسلمين الآخرين، فلما رأوها اعيدت تولّد حرجهم هذا ووقع إشكالهم وتساؤلهم..

وإلا لو أنّها لم ترفع بدايةً لما تحرّجوا من السعي بينهما، وخير دليل هو أنّهم طافوا جميعاً بالكعبة والأصنام موجودة حولها، ولم يحسب لها النبيّ صلى الله عليه وآله والمسلمون أيّ حساب أو يرتّبوا عليها أيّ أثر، واعتقد أنّه لو رفعت هذه الأصنام من حوالى الكعبة وتم طواف رسول الله صلى الله عليه وآله ومعهم المسلمون، وتخلّف جمع عن هذا الطواف، واعدت الأصنام لوقع في نفوسهم الحرج نفسه الذي نشأ عندهم في قضية السعي بعد إعادة الأصنام.

قلنا هذا على ضوء ما تحمله الرواية القائلة بأنّ سبب النزول هو إعادة الأصنام بعد رفعها، وعلى القول المشهور بأنّ الرسول صلى الله عليه وآله طاف حول الكعبة والأصنام الموجودة..

فخلاصة الكلام أنّ الآية جاءت لرفع الإحراج أو الاشتباه.. الذي وقع فيه جمع من الصحابة وقتذاك، ووَضّحت لهم الموقف الأسلم الذي ينبغي بل يجب الالتزام به.

أساف ونائلة

شأن مناسك الحجّ شأن كلّ الديانات السماوية، التي لم تسلم من التحريف والتشويه والتدنيس، فبعد أن سرى الشرك، وراح يبني كيانه في الواقع الاجتماعي، ظهرت له آثار سيئة على مجمل الحياة بنواحيها المختلفة، ومنها مناسك الحجّ، حيث نصبت للشرك أعلام وأصنام وأوثان في كلّ زاوية من البيت الحرام، معقل التوحيد الخالص، فحول الكعبة أصنام وعلى الصفا وثن يدعى (أساف)



ص: ١٢٢

وعلى المروءة آخر يدعى (نائلة)، وكأنَّ يد الشرك والجهل أبت إلَّا أن تدنَّس كلَّ بقعة من المسجد الحرام.. ولكي تذكَّروهم هذه الأصنام وتشدَّهم هذه الأوثان إلى دين الشرك الذي هم له عاكفون.. وهم يؤدِّون مناسك إبراهيم من طواف وسعي... والتي هي معالم للتوحيد الإبراهيمي الخالص وغير المشوب بأدران الشرك والوثنية..

وإنَّ وجود هذين الصنمين اللذين كادا أن يُعبدا إن لم نقل: إنَّهما قد عُبدا في الجاهليَّة، دليلٌ واضح على ما اقترفته أيديهم العابثة بطهارة هذه الأمكنة وهذه الشعائر.

وقفه قصيرة:

رفع الأصنام من حول الكعبة والمسعى لم يذكر في شروط صلح الحديبية، وأمامك كلُّ مصادر التاريخ والسيرة، اللهم إلَّا ما ذكره صاحب تفسير العياشي، فقد ذكر خبراً عن الإمام الصادق عليه السلام أنَّه قال: «كان من شرط رسول الله عليهم: أن يرفعوا الأصنام...» (١).

فهل عبارة «كان من شرط رسول الله عليهم..» أنَّه شرط من شروط صلح الحديبية، أو أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله حينما جاء لأداء عمرته شرط على قريش أن يرفعوا الأصنام من المسعى فقط أو من المطاف والمسعى؟! والجواب واضح وهو أنَّ جميع مصادر السيرة والتاريخ... لم تذكر مثل هذا الشرط وأنَّه من شروط صلح الحديبية، ولو كان لبان، فهو إذن ليس شرطاً ثابتاً من شروط الصلح هذا أوَّلاً.

وأما ثانياً: أنَّ مشركي مكة لم يقبلوا أو رفضوا طلب رسول الله صلى الله عليه وآله أن يدخل الكعبة، فقد بعث لهم ليسمحوا له بدخول الكعبة فأبوا وقالوا: لم يكن هذا في شرطك، أي في شروط صلح الحديبية. فتوقَّف عن دخولها. وقبل هذا بعثت قريش مكرز بن حفص في نفرٍ منهم، فالتقوا بالنبى في بطن

ص: ١٢٣

يأجج- وقد وردهم خبرٌ أنّ النبيّ والمسلمين حملوا معهم كامل سلاحهم- فقالوا:  
يا محمّد! واللّه ما عُرفت- صغيراً ولا كبيراً- بالعدر، تدخل بالسلاح الحرم على قومك، وقد شرطت أن لا تدخل إلّا بسلاح المسافر:  
السيوف في القُرْب؟!!

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: لا ندخلها إلّا كذلك.

فرجع مكرز إلى مكّة مسرعاً يقول لهم: إنّ محمّداً لا يدخل سلاح، وهو على الشرط الذي شرط لكم.

فمن هذا يظهر أنّ قريشاً كانت تراقب بدقّه أن لا تُخترق بنود صلح الحديبية، أو يُزاد عليها، وترفض أىّ شيء يستجد بعد ذلك، وإن كان هذا توجساً منها وخوفاً وحذراً. وإلّا فليس من أخلاق رسول الله صلى الله عليه وآله مخالفة ما تعاهد عليه، وعظيم قول مكرز وجميل: يا محمّد واللّه ما عُرفت- صغيراً ولا كبيراً- بالعدر.

إذن: أبى مشركو قريش أن يقبلوا طلب رسول الله صلى الله عليه وآله منهم أن يدخل الكعبة، وقد رفضوا ذلك معللين رفضهم بأنّه ليس من شروط الصلح، فكيف برفع الأصنام؟ فهل يقبلونه وهو بالنسبة إليهم أمر كبير وخطير، ولم يذكر في شروط صلح الحديبية؟! ولو سلّمنا بأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله طلب رفع الأصنام من المسعى، وسلّمنا أيضاً بأنّ قريشاً قبلت بذلك، فلماذا فقط يطلب الرسول صلى الله عليه وآله رفع الأصنام من المسعى فقط دون البيت، وقد احيطت الكعبة بالأصنام، والطواف أعظم من السعى أحكاماً وآداباً...؟

ثم هل الأصنام التي حول الكعبة أكثر قدسيه عند مشركى مكّة من أساف ونائلة، حتّى يهون الأمر عليهم فيستجيبوا لرفع هذه ويتركوا تلك على حالها، أو أنّ الأصنام التي حول الكعبة أقلّ خسيّة وقذاره من تلك التي على الصفا والمروة، فيطلب النبي رفع هذه وترك تلك؟!!

اللّهم إلّا أن نقول: إنّ المقصود بـ «أنّ رسول الله كان شرط عليهم أن يرفعوا

ص: ١٢٤

الأصنام..» مطلق الأصنام سواء التي كانت على الصفا والمروة أو حول الكعبة، وهو ما يؤيده إطلاق العبارة «أن يرفعوا الأصنام» ثم إن رواية العياشي هذه لا يمكن الاستفادة منها أن هذا الشرط هو من شروط صلح الحدييئة وهو ما ذهب إليه بعضهم بل هو شرط متأخر عنها وقع في عمرة القضاء، ودفعاً لهذه الإشكالات والتساؤلات التي تحضرني ولعل هناك غيرها، التي تترتب على رواية رفع الأصنام وإعادتها، وأنها كانت سبباً للحرج الذي وقع به بعض المسلمين وبالتالي فهي سبب لنزول الآية، يمكن الأخذ بواحد من الأسباب الأخرى لنزول الآية؛ والتي منها الرواية التي تذكر كسبب للآية من قبل الفريقين.

فعن فروع الكافي في حديث حج النبي صلى الله عليه وآله عن الصادق عليه السلام قال: إن المسلمين كانوا يظنون أن السعي بين الصفا والمروة شيء صنعه المشركون، فأنزل الله: إن الصفا والمروة من شعائر الله... فبعدما طاف (النبي) بالبيت وصلى ركعتيه (قرأ): إن الصفا والمروة من شعائر الله... وقال: أبدأ بما بدأ الله عز وجل (١).

مع الفرق الإسلامية الأخرى

قبل أن أبدأ بذكر روايات أهل السنة وأخبارهم ثم أقوال فقهاءهم ومفسريهم بخصوص الآية المذكورة ومرادها.. أعرض أولاً للوهم الحاصل الذي ملخصه: أن ظاهر الآية يوهم بأن السعي بين الصفا والمروة هو من الأمور المباحة، فمن شاء سعى ومن شاء لم يسع فلا جناح عليه وبالتالي فإن فريضة الحج والعمرة كلاً تصح دون سعي بين هذين الجبلين.

فصيغة الآية تنفي وجوب السعي كمنسك، وهذا ما ذهب إليه واحد من فقهاء المدينة السبعة أو الأربعة عروة بن الزبير بن أسماء بنت أبي بكر، وهو من التابعين (٢٣- ٩١ هـ).

فقد روى ابنه أن أباه كان قد سأل خالته أم المؤمنين عائشة قائلاً: أرايت قول الله تعالى: إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر

ص: ١٢٥

فلا جُنَاحَ عليه أن يطوّفَ بهما ثم راح يقسم لها بقوله: فوالله ما على أحدٍ جُنَاحَ، أو ما أرى على أحدٍ لم يطف بين الصفا والمروة شيئاً، وما أبالي ألا أطوف بينهما.

فأجابته بقولها:

بس ما قلت يا ابن اختي، إن هذه الآية لو كانت كما أولتها عليه كانت لا جُنَاحَ عليه ألا يتطوّفَ بهما، ولكنها أنزلت في الأنصار كانوا قبل أن يسلموا يهلّون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدون بالمشلل، وكان من أهل لها يتحرّج أن يطوف بالصفا والمروة، فلما أسلموا سألو رسول الله صلى الله عليه وآله عن ذلك؛ قالوا: يا رسول الله إنا كنا نتحرّج أن نطوف بالصفا والمروة، فأنزل الله تعالى إن الصفا والمروة... (١).

ويبدو أن هذا الوهم كما يسمّونه لم يكن مختصاً بعروة، فهناك غيره فقد روى الترمذى عن عاصم بن سليمان الأحول قال: «سألت أنس بن مالك عن الصفا والمروة، فقال: كانا من شعائر الجاهلية، فلما كان الإسلام أمسكنا عنهما، فأنزل الله عزّ وجلّ إن الصفا والمروة من شعائر الله.

وقد استفاد بعض آخر عدم الوجوب، مستندين إلى قراءة بعض الصحابة وبعض التابعين لا جناح عليه أن (لا) يطوّفَ بهما.

وعن أبي عاصم كما أخرجه الطبري، قال: حدّثنا جريج قال: قال عطاء: لو أنّ حاجباً أفاض بعدما رمى جمرة العقبة، فطاف بالبيت ولم يسع، فأصاب امرأته، لم يكن عليه شيء لا في حج ولا في عمره، من أجل قول الله - كما في مصحف ابن مسعود -: فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن (لا) يطوّفَ بهما.

قال: فعاودته بعد ذلك، فقلت: إنّه قد ترك سنّة النبي صلى الله عليه وآله، قال: ألا تسمعه يقول: فمن تطوّع خيراً فأبى أن يجعل عليه شيئاً؟ فقد أخذ التطوّع بمعنى التبرّع.

ونحو هذا عن مجاهد أنّه قال: لم يُحرّج من لم يطف بهما.. أى لم يأتِ إثمًا؛ لأنّه غير واجب. وأيضاً عن عطاء عن عبد الله بن الزبير قال: هما تطوّع (٢).

١-١ تفسير الطبري ٢: ٢٩.

٢-٢ انظر في هذا تفسير الطبري ٢: ٣٠.

ص: ١٢٦

فمن حج البيت أو اعتمر فلا- جناح عليه أن يطوف بهما قال: هما تطوع، من تطوع خيراً فإن الله شاكرٌ عليم قال: هذا حديث حسن صحيح» (١).

وأخرج عن سفيان بن عاصم الأحول قال: سمعت أنساً يقول: الطواف بينهما تطوع.. أى تبرع و مندوب إليه. وهذا أبو حنيفة قد احتج لعدم ركنية هذا المنسك مكتفياً بوجوبه من أدلته خارجة عن الكتاب؛ لأن الآية عنده ليس فيها ما يدل على وجوبه فضلاً عن ركنيته، فقال كما ينقل الرازي في تفسيره: احتج أبو حنيفة لعدم الركنية بوجهين: أحدهما: هذه الآية فلا- جناح... قال: وهذا لا- يقال في الواجبات، وقد أكدته تعالى بقوله: ومن تطوع خيراً... فبين أنه تطوع وليس بواجب.

وثانيهما: قوله صلى الله عليه و آله: «الحج عرفة» ومن أدرك عرفه فقد تم حجه...».

وهنا راح الرازي يرد ذلك، نكتفى برده عن الوجه الأول محل كلامنا، فيقول:

والجواب عن الأول- والكلام للرازي- من وجوه:

الأول: ما بينا أن قوله فلا- جناح عليه ليس فيه إلا أنه لا إثم على فاعله، وهذا القدر المشترك بين الواجب وغيره، فلا يكون فيه دلالة على نفي الوجوب.

ثم راح يثبت له ذلك بآية أخرى حيث يقول:

والذى يحقق قوله تعالى: فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم والقصر عند أبي حنيفة واجب، مع أنه قال فيه: فلا جناح عليه فكذا هنا.

الثاني: أنه رفع الجناح عن الطواف بهما لا عن الطواف بينهما، وعندنا الأول غير واجب، وإنما الثاني هو الواجب.

الثالث: قال ابن عباس: كان على الصفا صنم وعلى المروة صنم، وكان أهل الجاهلية يطوفون بهما ويتمسحون بهما، فلما جاء الإسلام كره المسلمون الطواف بينهما لأجل الصنمين، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

إذا عرفت هذا، فنقول: انصرف الإباحة إلى وجود الصنمين حال الطواف لا

ص: ١٢٧

إلى نفس الطواف. ويضرب الرازي لهذا مثلاً فيقول: كما لو كان في الثوب نجاسة يسيرة عندكم، أو دم البراغيث عندنا، فقل: لا جناح عليك أن تصلّي فيه، فإن رفع الجناح ينصرف إلى مكان النجاسة، لا إلى نفس الصلاة.

الرابع: روى عن عروة أنه قال لعائشة: إني أرى أن لا حرج عليّ في أن لا أطوف بهما.

فقال: بئس ما قلت، لو كان كذلك لقال: أن لا يطوف بهما. ثم حكى ما تقدّم في الصنمين.

وهنا يعلّق الرازي بقوله: وتفسير عائشة راجح على تفسير التابعين.

ولو احتجّ على الرازي بقراءة ابن مسعود فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما باعتبارها تصلح مؤيداً لما ذهب إليه عروة، علماً بأنّ هناك آيات توافق قراءة ابن مسعود كقوله تعالى: بيّن الله لكم أن تضلّوا أي أن لا تضلّوا، وكقوله تعالى: أن تقولوا يوم القيامة معناه: أن لا تقولوا.

ويجيب الرازي عن هذا بقوله: القراءة الشاذة لا يمكن اعتبارها في القرآن؛ لأنّ تصحيحها يقدر في كون القرآن متواتراً. ويخلص أخيراً كما في الفقرة التالية.

الخامس: أن قوله فلا جناح عليه لا يطلق على الواجب فكذلك لا يطلق على المندوب، ولا شكّ في أنّ السعي مندوب، فقد صارت الآية متروكة العمل بظاهرها.

وفي ردّه على من تمسك بقوله تعالى ومن تطوع خيراً... يستدلّ على أنّ السعي بين هذين الجبلين تطوع وليس بواجب وهو ما ذهب إليه أبو حنيفة ومن قبله على ما روى أنّ ابن عباس قد ذهب إليه وكذا ابن الزبير وأنس بن مالك وابن سيرين.

فقد قال الرازي: وأمّا التمسك بقوله فمن تطوع خيراً فضعيف؛ لأنّ هذا لا

ص: ١٢٨

يقتضى أن يكون المراد من هذا التطوع هو الطواف المذكور أولاً، بل يجوز أن يكون المقصود منه شيئاً آخر. وراح يستشهد بآية أخرى على صحته هذا، فقال: قال الله تعالى: وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ثم قال: فمن تطوع خيراً فهو خير له فأوجب عليهم الطعام، ثم أندبهم إلى التطوع بالخير، فكان المعنى: فمن تطوع وزاد على طعام مسكين كان خيراً، فكذا هاهنا يحتمل أن يكون هذا التطوع مصروحاً إلى شيء آخر، وهو من وجهين:

أحدهما: أنه يزيد في الطواف، فيطوف أكثر من الطواف الواجب مثل أن يطوف ثمانية أو أكثر.

والثاني: أن يتطوع بعد حجّ الفرض وعمرته، بالحجّ والعمرة مرة ثانية، حتى طاف الصفا والمروة تطوعاً... (١).

أما الألوسى في تفسير روح المعاني فيقول:.... فلما جاء الإسلام وكسرت الأصنام كره المسلمون الطواف بينهما لأجل الصنمين، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

ومنه يعلم دفع ما يترأى أنه لا يتصور فائدة في نفى الجناح بعد إثبات أنهما من الشعائر، بل ربما لا يتلازمان، إذ أدنى مراتب الأول الندب وغاية الثاني الإباحة.

وقد وقع الإجماع على مشروعية الطواف بينهما في الحجّ والعمرة؛ لدلالة نفى الجناح عليه قطعاً، لكنهم اختلفوا في الوجوب.

فروى أحمد أنه سنّه، وبه قال أنس وابن عباس وابن الزبير؛ لأنّ نفى الجناح يدلّ على الجواز، والمتبادر منه عدم اللزوم كما في قوله تعالى: فلا جناح عليهما أن يتراجعا. وليس مباحاً بالاتفاق ولقوله تعالى: من شعائر الله فيكون مندوباً.

ثم راح الألوسى يضعف هذا بقوله: بأنّ نفى الجناح وإن دلّ على الجواز المتبادر منه عدم اللزوم، إلّا أنه يجمع الوجوب فلا يدفعه ولا ينفيه - والمقصود ذلك - فلعلّ هاهنا دليلاً يدلّ على الوجوب كما في قوله تعالى: لا جناح عليكم أن

ص: ١٢٩

تقصروا من الصلاة. ولعلّ هذا كقوله لمن عليه صلاة الظهر مثلاً، وظنّ أنّه لا يجوز فعلها عند الغروب، فسأل عن ذلك: لا جناح عليك إن صليتها في هذا الوقت، فإنّه جواب صحيح، ولا يقتضى نفى وجوب صلاة الظهر... (١).

فيما ذكر البيضاوى فى تفسيره الإجماع على أنّه مشروع فى الحجّ والعمرة، وإنّما الخلاف فى وجوبه، فعن أحمد أنّه سنّه، وبه قال أنس وابن عباس؛ لقوله تعالى:

فلا جناح عليه... فإنّه يفهم منه التخيير. ثمّ عقّب قائلاً: وهو ضعيف؛ لأنّ نفى الجناح يدلّ على الجواز الداخلى فى معنى الوجوب، فلا يدفعه... (٢).

وتحقيق القول فيه - كما يقول ابن العربى - أنّ قول القائل: لا جناح عليك أن تفعل، إباحة الفعل.

وقوله: لا جناح عليك ألا تفعل، إباحة لترك الفعل.

فلما سمع عروة قول الله تعالى: فلا جناح عليه أن يطوّف بهما. قال: هذا دليل على أن ترك الطواف جائز، ثمّ رأى الشريعة مطبقة على أنّ الطواف لا رخصة فى تركه، فطلب الجمع بين هذين المتعارضين.

فقال له عائشة: ليس قوله: فلا جناح عليه أن يطوّف بهما دليلًا على ترك الطواف، إنّما يكون دليلًا على تركه لو كان «فلا جناح عليه ألّا يطوّف بهما» فلم يأت هذا اللفظ لإباحة ترك الطواف، ولا فيه دليل عليه؛ إنّما جاء لإفادة إباحة الطواف لمن كان يتحرّج منه فى الجاهلية، أو لمن كان يطوف به فى الجاهلية قصدًا للأصنام التى كانت فيه فأعلمهم الله سبحانه أنّ الطواف ليس بمحظور إذا لم يقصد الطائف قصدًا باطلاً (٣).

وقال ابن قدامة:... وقول عائشة فى ذلك - بكونه ركنًا - معارض بقول من خالفها من الصحابة.. (٤).

ويقول صاحب تفسير التحرير والتنوير:

ونفى الجناح عن الذى يطوف بين الصفا والمروة، لا يدلّ على أكثر من

١- ١ انظر روح المعانى للآلوسى ١: ٢٥.

٢- ٢ تفسير البيضاوى ١: ١٥٦.

٣- ٣ ابن عربى فى تفسيره.

٤- ٤ التفسير الكبير ٤/ ١٦٠.



ص: ١٣٠

كونه غير منهى عنه فيصدق بالمباح والمندوب، والواجب والركن؛ لأنَّ المأذون فيه يصدق بجميع المذكورات، فيحتاج في إثبات حكمه إلى دليل آخر؛ ولذلك قالت عائشة لعروة: لو كان كما تقول لقال: فلا جناح عليه ألا يطوف بهما.

دراسة الآية

بعد هذا نأتى لدراسة الآية عبر مقاطعها الثلاثة:

المقطع الأول:

إنّ الصفا والمروة من شعائر الله

الإعراب:

إنّ: من الحروف المشبّهة بالفعل، تفيد توكيد النسبة، بل هي في التوكيد أقوى من اللام، وليست هذه وظيفتها فقط، بل هناك غيرها، فهي يؤتى بها لنفي الإنكار والشك، وتفيد- أيضاً- التقرير والتحقيق.

الصفا: اسم إنّ والمروة عطفت على الصفا. من شعائر الله: خبرها.

قال أبو البقاء: «وفى الكلام حذفٌ مضاف، تقديره: «طواف الصفا، أو سعى الصفا».

فهذا المقطع من الآية الذى ابتداءً بأنّ المؤكّدة، يقرّر ويؤكّد أنّ كلّاً من الصفا والمروة أو طواف الصفا والمروة، شعيرةٌ من شعائر الله تعالى الثابتة والمحبوبة إليه حيث أضافها إلى نفسه تعظيماً لشأنها وعلوّ منزلتها عنده.

وفى الوقت الذى تقرّر وتؤكّد الآية منسكية السعى بين الصفا والمروة؛ وذلك بالاستفادة من «إنّ» المؤكّدة، تنفى كلّ شكّ بمنسكيتهما ونكرانٍ لمشروعيتهما- وأيضاً- باستعمالها ل «إنّ» التى كما قلنا من وظائفها النفى. وهى وإن لم تكن أمراً صريحاً بل

كانت خبراً لكنّها بقوة الأمر يقول الطبرى فى تفسيره للآية:.... وإن كان مخرجه مخرج الخبر فإنه مراد به الأمر... (١)

ص: ١٣١

فالتوكيد ب (إنّ) جاء حاسماً لنقاش ترتبت عليه أحداث وملايسات وشبهات أحاطت بموضوع السعى بين هذين الجبلين (الصفاء والمروة) إمّا لوجود صنمين (أساف ونائله) أو لأى سبب من الأسباب التى ذكرناها فى أسباب النزول.

فأنزل الله تعالى قرآناً لينهى به هذا الفزع الذى دخل قلوب البعض والخلاف حول مشروعى السعى، ولا يدعه يتعمق بين الجماعة المسلمة، وليثبت أنّ السعى بين هذين الجبلين أمر إلهى ومنسك ربانى، وأنّه من مناسك فريضة الحجّ ومن مناسك العمرة.. وبالتالى فإنّها جاءت رداً لكلّ من امتنع عن أداء هذا النسك أو توقّف أو شكّك به ظناً منه أنّه من شعائر الجاهلية...، ونفت كلّ مزاعم القوم فقالت بضرر قاطع: إنّ الصفاء والمروة من شعائر الله....

وبالتالى فإنّ السعى بين هذين الجبلين أمر لا بدّ منه؛ لأنّه من شعائر الله، ومن مناسك إبراهيم، التى هى مناسك فريضة الحجّ والعمرة، ولا يكتمل كلّ منهما إلّا بأداء أجزائهما كاملة غير منقوصة، ولا يصحّ وصف العمل بالكمال إلّا بأداء مفرداته وأجزائه التى يتكوّن منها. المقطع الثانى:

... فمن حجّ البيت او اعتمر فلا جناح عليه أن يطوّف بهما..

فهذا المقطع جاء متفرعاً على المقطع الأوّل ومكملاً لما أكّده من نسبة هذا المنسك لأعمال الحجّ والعمرة، ونفى أى زعم أو دعوى تخالف هذه النسبة.. ليرفع ذلك التحجّج وما اعتقدوه من ترتب الإثم فى حالة سعيهم بين هذين الجبلين - نافياً - ضمناً - كلّ الأسباب التى ذكرت، وأنّها منفردة أو مجتمعة غير جديرة بتعطيل هذه الشعيرة المقدّسة، أو حتّى التوقّف بشأنها أو تأخيرها ريثما ترفع الموانع، أو تنتهى الأسباب التى تصوّروها موجبة لمثل هذا التردّد أو الامتناع.. لهذا جاء هذا المقطع سريعاً وحاسماً ومبيناً أنّ هذا المنسك الذى كرهته

ص: ١٣٢

نفوس قوم وراحت تصوّر لهم أنّه فيه ميلٌ عن الحقّ وبعُدٌ عن الصواب، لا أساس له، وهو مجرد أهواء لا غير، هذا وأنّ هذا المقطع لم يكتف بدفع تحرّجهم الذى أوقعهم به توهمهم حظر هذا المنسك، بل يمكن الاستفادة منه تشجيعه لهم وحثهم - ضمناً - على أدائه. ثمّ إنّ الحرج أو الإثم.. الذى سمّته الآية «جناح» جاء ليحكى لنا الحالة التى عاشها بعضهم، وجاءت الآية لتحسين النفوس منه، ودفعه عنها، ولم يأت ليتناول أو يبيح أصل وجوب السعى، فأصل وجوب السعى بين الصفا والمروءة لا غبار عليه، وإن حدث شىء من هذا فقد دفعه المقطع الأوّل وأكّد وجوده وثباته... وإنما جاء التعبير «فلا جناح» ليدفع ذلك الحرج الذى وقعوا فيه، وأنّه لا إثم عليكم وأنتم تؤدّون واجباً ومنسكاً من مناسك الحجّ والعمرة، ولا يضرّ بهذا الأداء وجود الصنمين أو سبب من تلك الأسباب حيث شكّل وجودها حرجاً لمن يسعى، ما دامت نواياكم صادقةً خالصةً متقرّبةً بهذا الأداء إلى الله تعالى لا إلى غيره.

يقول الطبرى: فإن قال قائل: وما وجه هذا الكلام فلا جناح... وقد قلت لنا: إنّ قوله: إنّ الصفا والمروءة... وإن كان ظاهره ظاهر الخبر فإنّه فى معنى الأمر بالطواف بهما، فكيف يكون أمراً بالطواف، ثمّ يقال لا جناح...؟ والأمر بالطواف بهما والترخيص فى الطواف بهما غير جائز اجتماعهما...

وكان جوابه: أنّ النبى صلى الله عليه وآله لما اعتمر عمرة القضية تخوّف أقوام كانوا يطوفون بها فى الجاهليّة... (١) فهو - إذن - جاء ليصحّح لهم ما اختلّ فهمه عليهم وارتبك تفسيرهم له، ممّا جعلهم يتساءلون: أيصحّ السعى أو لا يصحّ، فيه إثم أو لا إثم فيه؟ فأصل السعى لم يتعرّض له هذا المقطع، فهو منسك ثابت وواجب لا ريب

١-١ جامع البيان فى تفسير القرآن للطبرى ٢: ٢٧ تفسير الآية.

ص: ١٣٣

فيه وشعيرة مقدّسة من شعائر إبراهيم في الحجّ والعمرة، فلا يمكن التحرّش فيه أو الخدش في وجوبه كجزء مهمّ من المناسك فضلاً عن إلغائه أو إنكاره أو تعطيله.

والمقطع الأوّل واضح في هذا.

وكلّ الكلام هو كما يقال: لا إثم عليك إن صلّيت وأنت ترتدى ثوباً ذا لون أسود مثلاً، فلا نقاش في الصلاة وفي أصل الصلاة وأنها واجبة، وإنما الكلام ينصبّ فقط على نفي الإثم عنك وأنت تصلّي في الثوب الأسود.

ثم إنّ السعي منسك قديم قدم الطواف، فما أن أتمّ إبراهيم عليه السلام رفع قواعد البيت، وكان معه ابنه إسماعيل، راح يؤذّن في الناس بالحجّ ويؤدّي مناسكته، ومنها السعي بين جبلى الصفا والمروة، ووجود أساف ونائلة وهو وجود طارئ لا بدّ له أن ينتهي، لا يشكّل أى مانع لطهارة هذا المنسك وقدسّيته، ولا يُعطله، وهل يُعطل الطواف بالبيت الحرام وجود الأصنام من حوله وما أكثرها؟! ثم لو كان السعي مباحاً أو مندوباً - كما استفاد بعضهم - فلماذا هذا النزول السريع للآية؟

ولماذا هذا التوكيد، ونكران ونفي كلّ زعم على عدم منسكّيته أو التحرّج من أدائه، وهو ما يحمله المقطع الأوّل من الآية، ونفي أىّ حرج أو بأس وهو ما جاء به المقطع الثانى من الآية ما دام الأمر لا يتعدّى كونه مندوباً إليه أو لا يخرج عن كونه مباحاً؟! هذا وأنّ التعبير «فلا جناح...» فى القرآن الكريم لا يعنى دائماً نفي الوجوب، وأنّه لا يُقال فى الامور الواجبة، وبالتالي فالأمر متروك للمكلف، له أن يفعله وله أن يتركه، وإلّا فأين نحن من آية قصر الصلاة: فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم... وهو ما عليه روايات أهل البيت عليهم السلام وآراء جمع من فقهاءهم، وهو ما استفاده أيضاً أبو حنيفة من هذه الآية، والقصر عنده واجب كما هو فى أقوال فقهاء أهل السنّة؟

ص: ١٣٤

مع روايات أهل البيت عليهم السلام  
 فعن أبي عبد الله عليه السلام- في حديث قصر الصلاة- قال: أوليس قال الله عزوجل:  
 إِنَّ الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ألا ترون أن الطواف بهما واجب مفروض؛ لأنَّ  
 الله عزوجل قد ذكره في كتابه، وصنعه نبيّه صلى الله عليه وآله؟  
 والرواية الاخرى، فقد سئل أبو عبد الله عليه السلام عن السعي بين الصفا والمروة فريضة أم سنّة؟  
 فقال: فريضة.

قلت (السائل): أو ليس قد قال الله عزوجل: فلا جناح عليه أن يطوف بهما؟  
 قال عليه السلام: كان ذلك في عمرة القضاء، إن رسول الله صلى الله عليه وآله شرط عليهم أن يرفعوا الأصنام من الصفا والمروة،  
 فتشاغل رجل ترك السعي حتى انقضت الأيام واعيدت الأصنام فجاءوا إليه فقالوا: يا رسول الله، إن فلاناً لم يسع بين الصفا والمروة  
 وقد اعيدت الأصنام، فأنزل الله عزوجل: فلا جناح عليه أن يطوف بهما أي وعليهما الأصنام.  
 عن زرارة ومحمد بن مسلم أنهما قالا: «قلنا لأبي جعفر عليه السلام: ما تقول في الصلاة في السفر كيف هي؟ وكم هي؟  
 فقال: إن الله عزوجل يقول: وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة فصار التقصير في السفر واجباً كوجوب  
 التمام في الحضر.

قالا: قلنا: إنما قال الله عزوجل: فليس عليكم جناح ولم يقل: افعلوا، فكيف أوجب ذلك كما أوجب التمام في الحضر؟  
 فقال عليه السلام: أوليس قد قال الله عزوجل في الصفا والمروة: فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما؟ ألا ترون أن  
 الطواف بهما واجب مفروض؟

ص: ١٣٥

لأنَّ الله عزَّوجلَّ ذكره في كتابه وصنعه نبيّه عليه السلام، وكذلك التقصير في السفر شيء صنعته النبيّ صلى الله عليه وآله وذكره الله تعالى ذكره في كتابه..؟ (١).

فهذا المقطع والتعبير الوارد فيه فلا جناح عليه لا يدلُّ على نفى الوجوب الذي يتَّصف به هذا المنسك، بل هو ينفى وهمهم أنه محرّم. مع بعض علماء الإمامية

يقول البلاغى في تفسيره: «فرع توهم التحريم بقوله لا جناح؛ لأنها من شعائر الله، وذلك لا ينافي الوجوب كما ثبت من السنة وعليه إجماع الإمامية وأكثر الجمهور» (٢).

يقول العلامة الطباطبائي في تفسيره: فمن حجّ البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوّف بهما إنّما هو للإيدان بأصل تشريع السعي بين الصفا والمروة لا لإفادة النذب، ولو كان المراد إفادة النذب، كان الأنسب بسياق الكلام أن يمدح التطوّف لا أن ينفى ذمّه. ثمّ واصل سماحته حديثه هذا قائلاً:

فإنّ حاصل المعنى أنّه لما كان الصفا والمروة معبدتين ومنسكين من معابد الله، فلا يضركم أن تعبدوه فيهما، وهذا لسان التشريع. وأمّا بالنسبة إلى النذب فيقول سماحته:

ولو كان المراد إفادة النذب، كان الأنسب أن يفاد أنّ الصفا والمروة لما كانا من شعائر الله، فإنّ الله يحبّ السعي بينهما - وهو ظاهر - والتعبير بأمثال هذا القول الذي لا يفيد وحده الإلزام في مقام التشريع شائع في القرآن كقوله تعالى في الجهاد: ذلكم خيرٌ لكم (٣)

، وفي الصوم: وأن تصوموا خيرٌ لكم (٤)

، وفي القصر: فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة (٥)

انتهى كلام العلامة (٦).

هذا وأنّ ظاهر الآية يفيد الوجوب، وأيضاً الجزئية، وهو ما ذهب إليه الشيخ

١- ١ من لا يحضره الفقيه ١: ٢٩٥ باب الصلاة في السفر.

٢- ٢ آلاء الرحمن للبلاغى: ١٤١.

٣- ٣ الصف: ١١.

٤- ٤ البقرة: ١٨٤.

٥- ٥ النساء: ١٠٠.

٦- ٦ انظر الميزان في تفسير القرآن، الآية، للعلامة الطباطبائي.

ص: ١٣٦

الفاضل اللكراني في كتاب الحج، فبعد أن يقول: لا خلاف بين المسلمين في وجوب السعي وكونه جزءاً من الحج والعمرة، يذكر قوله تعالى: إِنَّ الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما... ثم يقول: وظاهره الوجوب والجزئية، والتعبير بقوله: لا جناح إنما هو كالتعبير بمثله قصر الصلاة في السفر (١)، وهو ما ذهب إليه أيضاً صاحب كتاب الأمثال الشيخ مكارم الشيرازي في تفسير الآية (٢)، وصاحب براهين الحج، المدني الكاشاني (٣) وغيرهم.

## المقطع الثالث

ومن تطوع خيراً فإنَّ الله شاكراً عليم

هذا المقطع يلقي ضوءاً على أهميته هذا المنسك واهتمام السماء به، وجاء تأييداً للمقطعين الأول والثاني وتفريعاً عليهما، حيث إنَّ الآية لم تكتفِ بما قدمته في المقطعين من أنه منسك وشعيرة إلهية ومن نفي الإثم عن أدائه ولو مع وجود الأسباب المذكورة عند القوم، راحت تقدم عطاءً آخر للمؤمنين ترغيباً وتشجيعاً لهم للإكثار من هذا المنسك والاستزادة منه بعد أداء الواجب، فأجره عظيم وجزاؤه جليل، وكان التعبير عن هذا الأجر والجزاء بأنَّ الله شاكراً عليم.. فقد أطلق الشكر وأراد به الجزاء بطريق المجاز مبالغاً في الإحسان على العباد.

فإذا ما تظافرت هذه المقاطع الثلاثة يتضح لنا شأن هذا المنسك وعلو قدره وأنَّ وجود الأصنام أو عبادتها أو أنه من شعائر الجاهلية أو لعزف الشياطين أو غيرها من الأسباب... لا- يضرر بأهميته وأنه عبادة اختارتها السماء وليس للساعي في حج أو عمره إطلاقاً التيه لله تعالى..

وختاماً فإنَّ هذه الآية بمقاطعها الثلاثة ما جاءت لرفع وجوب السعي، أو تستبد له بالإستحباب أو بشيء آخر، وإنما جاءت- إن لم نقل لإثبات وجوب السعي كما هو صريح بعض الروايات وأقوال جمع من الفقهاء- كما هو ظاهرها، إلى توكيد هذه الشعيرة المقدسة والدفاع عن وجوبها وأنها جزء من مناسك الحج والعمرة.

١-١ تفصيل الشريعة في شرح تحرير الوسيلة، كتاب الحج/ السعي ٥: ٩.

٢-٢ الأمثال في تفسير كتاب الله المنزل ١: ٣٨٠-٣٨١.

٣-٣ براهين الحج.

ص: ١٣٧

الهوامش:





ص: ١٣٩

منهج الرشاد لِمَنْ أَرَادَ السَّدَادَ (١)

**منهج الرشاد لِمَنْ أَرَادَ السَّدَادَ (١)**

منهج الرشاد لِمَنْ أَرَادَ السَّدَادَ (١)

رسالة الإمام الشيخ جعفر كاشف الغطاء

إلى الأمير عبد العزيز بن سعود

تقديم وتحقيق: الدكتور جودت القزويني

هذه الرسالة حصيلة مراسلة بين شخصيتين كبيرتين تمثلتا بالشيخ جعفر كاشف الغطاء- زعيم الطائفة الإمامية في عصره- المتوفى سنة ١٢٢٨ هـ / ١٨١٣ م، وبين الأمير عبد العزيز بن سعود- أحد قادة الحركة الوهابية في عهدها الأول- المتوفى سنة ١٢١٨ هـ / ١٨٠٣ م. والسبب الذي دعا إلى تأليفها هو أن الأمير عبد العزيز كتب رسالة إلى الشيخ كاشف الغطاء، انتقد فيها الممارسات التي يطبقها زوار المراقد الدينيّة المقدّسة،- وهي حسب العقيدة الوهابية تقارب الشرك في مقام التوحيد- المبتنية على مفردات نظريه مثل: الشفاعة، والتوسّل، والاستغاثة.

ولمعرفة ما تنطوى عليه هذه الأوراق من مناقشة وجدل يتحتم فهم الظروف التي كانت سائدة في منطقة الجزيرة، والتي بدأت تؤثر في المناطق المحيطة تأثيراً بالغاً وفعالاً.

فقد كانت منطقة الجزيرة العربيّة سياسياً واقعة تحت نفوذ السيادة

ص: ١٤٠

العثمانية (عدا مسقط)، كما كان حال الدول الاخرى مثل: العراق، وبلاد الشام، ومصر. ولم تكن سيطرة الدولة العثمانية على هذه البلدان سيطرة فعلية حيث تكتفى من الولاة بتقديم المبالغ المناسبة دليلاً لخضوع الوالى لها.

وفى القرنين (الثانى عشر والثالث عشر الهجريين/ الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين) بدأ النفوذ البريطانى يدخل منطقة الشرق لتأمين سلامة المواصلات التجارية بين الهند وانكلترا، ووصول بضائع شركة الهند الشرقية الانكليزية إلى موانئ الخليج.

وكانت إيران تحت سلطة الافشاريين بعد سقوط الدولة الصفوية سنة ١١٣٥ هـ / ١٧٢٢ م.

وفى أوائل القرن الثالث عشر الهجرى/ التاسع عشر الميلادى، أصبح نفوذ البريطانيين شبه منفرد فى المنطقة، لانشغال الدولتين الكبيرتين القاجارية والعثمانية بأوضاعهما الداخلية المضطربة والنزاعات المتكررة بينهما.

ففى هذا الوسط ظهرت الدعوة الوهابية، وامتدت بتحالف تمّ عام ١١٥٧ هـ / ١٧٤٤ م بين الشيخ محمد بن عبد الوهاب والأمير محمد بن سعود على أن يكون صاحب السيف حارساً للدين وناصراً للسنة، وأن يستمرّ الداعية على العمل بدعوته الإسلامية الجديدة.

وقد اتّسعت الامارة فى عهد محمد بن سعود (١) فشملت أكثر (نجد) حيث تركزت فتوحاته على القرى المحيطة (بالدرعية) والتي نجح فى القضاء على زعاماتها المحلية، ولم يبق خارجاً عن قبضته سوى مدن الرياض والاحساء والقصيم.

وقد حكم محمد بن سعود عشرين عاماً حتى وفاته سنة ١١٧٩ هـ / ١٧٦٥ م

---

١ - ١ كانت إمارة آل سعود لا تتعدى البلدين أو الثلاثة فى زمن أبيه سعود بن محمد بن مقرن، وقد اتّسعت الفتوحات بعد تولّى محمد بن سعود الزعامة سنة ١١٣٩ هـ / ١٧٢٧ م.

ص: ١٤١

حيث تولّى الحكم بعده ولده عبد العزيز.

أمّا ولده (المعنى بهذه الرسالة) عبد العزيز بن محمد بن سعود، فقد حكم (٣٩) عاماً، وخلال هذه الفترة الزمنية اتّسعت فتوحاته اتساعاً امتدّ بسلطانه من شواطئ الفرات إلى رأس الخيمة وعمان، ومن الخليج الفارسي إلى أطراف الحجاز وعسير.

إنّ العلاقة (الوهابية- الاثنا عشرية) مرّت بمرحلتين:

الأولى: في حياة شيخ الوهابية محمد بن عبد الوهاب حتّى وفاته عام ١٢٠٦هـ / ١٧٩٢ م.

الثانية: ما بعد رحيل الإمام محمد بن عبد الوهاب، أي خلال مرحلة حكم الأمير عبد العزيز بن سعود (١٢٠٦هـ - ١٢١٨هـ).

ففي المرحلة الأولى لم تشهد المدن المقدّسة الشيعية أيّ هجوم وهاج.

والسبب يعود- كما ذكر صاحب العبقات- إلى علاقة الشيخ جعفر الطيّب مع الشيخ محمد بن عبد الوهاب. وبالرغم أنّ المصادر

التاريخية لم تُشتر إلى علاقة كهذه سوى ما ذكر في (العبقات) فإنّ سياق الأحداث التاريخية يؤكّد وجود علاقة بين الطرفين، ربّما

امتدّت منذ إقامة الشيخ محمد بن عبد الوهاب أيام دراسته في بغداد، وبقيت حتّى تولّى الشيخ كاشف الغطاء زعامة الطائفة الإمامية.

أمّا المرحلة الثانية- والتي تبدأ بعد وفاة الشيخ محمد بن عبد الوهاب-، فإنّها اتّسمت بالحوار الدبلوماسي في سبيلها الأولى، لكنّها لم

تستمرّ على هذه الوتيرة بعد الغزو الوهابي لمدينة كربلاء عام ١٢١٦هـ، وإحلال الدمار والقتل فيها.

وتتجلّى أهميّة هذا الحوار في المراسلات التي دارت بين الأمير عبد العزيز بن سعود والشيخ كاشف الغطاء، حيث كتب الأمير عبد

العزيز

ص: ١٤٢

رسالة (نقل قسماً من مضامينها كاشف الغطاء) وردّ عليها برسالة أشبه ما تكون بالمناقشة الشاملة لما ورد من الشبهات التي أُثيرت حول الفكر الإمامي، ومما لم يرد منها أيضاً.

قد تميّز منهج كاشف الغطاء في رسالته بسمات، أهمّها:

١- امتازت الرسالة بالموضوعيّة والصدق الواقعيّة وغازرة المعرفة، وقوّة الاستدلال؛ حيث نهج مؤلّفها منهجاً عقلاً نياً متكاملًا ردّ فيه المنطق بالمنطق، والحجّة بالحجّة والبرهان، ممّا جعلها- على رغم أنّها نافت على القرنين من الزمن- رسالةً فتيّةً ما زالت حجّيتها قائمة، طريّة الأفكار، متينة المباني، عذبة المحاججة وخالية ممّا اعتاد عليه المؤلّفون في مثل هذه الميادين من الخروج عن ذريعة العلم إلى ذرائع أخرى لا تتصل إلى نهج المعرفة بصله.

٢- يبدو أنّ كاشف الغطاء كان يدرك أنّ الفتوحات الجديدة تهدّد أمن المنطقة بشكل عام، وستصل إلى العراق لضعف السلطنة الحاكمة فيه، وانشغالها بالمشاكل الداخليّة وغيرها؛ لذلك كان حديثه في الردّ حديثاً حاول من خلاله إقناع عبد العزيز بن سعود- بما استطاع من إمكانات- بالرجوع عن معتقداته الدينيّة، والتخلّي عن نظريته المذهبيّة التي اعتنقها وتبنّاها- على فرض الإمكان- أو احترام وجهات النظر المتغايرة- على فرض آخر- لذلك كان خطابه إليه خطاباً يُشعر أنّه خطاب صادر من سلطة دينيّة عليا إلى سلطة قتالية عليا.

وبالرغم من احترامه المتزايد للأمير الفاتح، إلّا أنّ (رسالته) لم تخلُ من واقعيّة في التعامل مع هذا الأمير، فقد حدّثه فيها باللغة المباشرة التي يفهمها هذا الأمير العربي. وكان يعزو تبنّيه للمذهب الوهابي إلى عدم خبرته في اختيار المذهب الذي عليه أن يتبنّاه ويناضل من أجله،

ص: ١٤٣

بسبب ضآلة معرفته الفكرية.

٣- تناولت الرسالة رداً للشبهات التي نشرها الوهابيون، وقد رتبها على مقدمه وفصول ومقاصد، وكان لا يمل من تكرار كلمة «أخي»، و «أقسم عليك»- نهاية كل موضوع- بعد بيان النتيجة التي يتوصل إليها بعد إيراد جملة من الأحاديث النبوية لعل ذلك يكون سبباً لمراجعة المعتقد من جديد.

٤- استخدم في طيات رسالته أسلوب الموعظة، وإلفات النظر إلى أن النفوذ الدنيوي مهما بلغ فإنه سيؤول إلى الزوال. وقد أطنب في اختيار بعض المرويات المتعلقة بنهاية الإنسان وفنائه في الفصل الثالث، تحت عنوان أي حياة سائر الموتى.

٥- نسب كاشف الغطاء نفسه في رسالته هذه إلى أنه من تلامذة مدرسة (بغداد). وقد ذكر محمد حسين كاشف الغطاء أن الشيخ جعفرأراد بذلك أن يظهر بمظهر أهل السنة؛ ليتوصل إلى أهدافه، ويقنع عبد العزيز عمّا هو عليه. ولم يكن هذا الرأي موافقاً للصواب لعلم الأمير عبد العزيز بهوية كاشف الغطاء، ومخاطبته الصريحة في رسالته التي انتقد فيها زوار قبر الإمام علي في النجف.

ويمكن الاستنتاج أن العلاقة التي يشير إليها صاحب (العبقات) نفسه بين الشيخ كاشف الغطاء وابن عبد الوهاب، يمكن أن تكون ممتدة إلى أيام تتلمذ الشيخ محمد بن عبد الوهاب علي يد شيوخ الحنابلة البغداديين. فأراد كاشف الغطاء أن يظهر أمام عبد العزيز بن سعود أنه بمنزلة شيخه، الذي نهض بأعباء الدفاع عن فكره ونشر معتقداته بالقوة.

٦- لما كان المذهب الوهابي يعتمد على صحاح الأحاديث السنية، فقد

ص: ١٤٤

الترم كاشف الغطاء في نقل أحاديثه ومناقشاته على الصحاح فقط، ولم يتطرق إلى غيرها من كتب الحديث. كما نقل أقوال كبار علماء الشيعة في بحثه، ولم يتطرق إلى كتب الحديث الشيعية سوى ما نقله فقط عن كتاب الاحتجاج للشيخ الطبرسي في حديث عام يتصل بالمجادلة بين النبي محمد صلى الله عليه وآله وبعض المناوئين له من العصر الجاهلي.

٧- كُتبت هذه الرسالة في سنة ١٢١٠ هـ / ١٧٩٥ م، أي في حياة العلامة السيد مهدي بحر العلوم الذي توفي سنة ١٢١٢ هـ / ١٧٩٧ م. وكانت المرجعية في هذه المرحلة مقسمة بين عدد من المجتهدين، حيث تخصيص بحر العلوم بالتدريس، وكاشف الغطاء بالزعامة والفتيا، والشيخ حسين نجف بالصلاة جماعة، مما يبرهن على انحصار مرجعية التقليد السياسية والدينية في شخص كاشف الغطاء دون غيره من المجتهدين الكبار من طبقته.

لقد كان الشيخ كاشف الغطاء مدركاً المتغيرات السياسية، والصراع القائم بين القوى المتنازعة على الخليج، فحاول أن يظهر النجف مركزاً مستقلاً عن مدار صراعات دول المنطقة، وأن يجنب المرجعية الدينية العليا من الدخول في هذا الصراع. ومن هنا يمكن تفسير العلاقة الودية التي أقامها مع شيخ الوهابية بالمكاتبه مرة، وبتقديم الهدايا مرة أخرى، ونجاحه في حفظ الكيان الشيعي بعيداً عن المتغيرات السياسية التي شهدتها المنطقة.

وبمقدار النجاح الذي حققه كاشف الغطاء مع الشيخ عبد الوهاب، فإنه أراد أن ينحو المنحى نفسه مع وريثه الأمير عبد العزيز بن سعود، وهو وإن نجح في تحييده قرابة العقد من الزمن، إلا أن ذلك لم يمنع ابن سعود من غزو مدينة كربلاء المقدسة عام ١٢١٦ هـ، ونهب (الكنوز)

ص: ١٤٥

المودعة في حرم الإمام الحسين بن علي عليهما السلام، وقتل أهالي البلدة قتلةً مأساويةً شنعاء. إن الهجوم الوهابي على (كربلاء) عام ١٢١٦ هـ، لم يكن مستهدفاً الشيعه بمقدار ما كان يهدف إلى إحلال الفوضى في الامبراطورية العثمانية، وتهديد سلامتها وسرقة الخزائن التي ملأها ملوك الهند والفرس بنفائس الجواهر في النجف وكربلاء. وبعد واقعة كربلاء عام ١٢١٦ هـ / ١٨٠١ م أحس كاشف الغطاء بضرورة تحصين النجف، وتعبئة الأهالي للدفاع عنها. فتهيأت لذلك مراكز تدريب قتالية خارج البلدة يشرف عليها كاشف الغطاء بنفسه. كما تم تعيين عدد من المقاتلين للحراسة، وتنظيم المجاميع الأخرى؛ للتصدى للغزو الخارجي من وراء الأسوار (١).

وقد فشلت جميع الهجمات الوهابية الخمسة التي تكررّت على النجف، والتي كان أعنفها الهجمة التي حدثت أواخر عام ١٢١٨ هـ / ١٨٠٣ م حيث دافع النجفيون دفاعاً عنيفاً، ولم تستطع القوة الغازية من اقتحام المدينة. وفي عام ١٢٢١ هـ / ١٨٠٦ م تعرّضت النجف لغارة مفاجئة، إلّا أنّ ثقة النجفيين بممارساتهم القتالية وتحصّينهم بالأسوار والأسلحة، جعلهم يتغلبون هذه المرّة على القوة المهاجمة بسهولة.

«منهج الرشاد»- النسخة الخطية

وهي نسخة مكتوبة في حياة المؤلف وقريبة لزمان التأليف، كتبها العلامة الشيخ قاسم الدلبزي سنة ١٢١٠ هـ / ١٧٩٥ م، وعليها تعليق له. وهذه النسخة- كما يظهر- مطابقة للأصل تمام المطابقة، سليمة العبارة صحيحة، وهي تتكوّن من (٥٥) صفحة، كلّ صفحة تحتوي

١-١ انتدب كاشف الغطاء الصدر الأعظم محمّد حسين خان وزير فتح علي شاه ببناء سور محصّن للمدينة، وفعلاً فقد بدأ العمل بينائه سنة ١٢١٨ هـ / ١٨٠٣ م، واستمرّ العمل فيه ما يقارب العقد من الزمن، فأصبحت النجف بسببه بلدة محصّنة يصعب اقتحامها حيث تضمّن خندقاً عميقاً وأبراجاً ومراصد، ومخافر، وجعلت في طبقاته منافذ مختلفة لوضع فوهات المدافع والبنادق.



ص: ١٤٦

على (٢٣) سطرًا عدا الصفحة الأولى، ويتكوّن السطر الواحد - غالباً - من (١٢) كلمة.

أمّا نسخها العلامة الدلبزى فهو من العلماء المجهولين الذين اختفى تراثهم، ويبدو أنّه من تلامذة المؤلّف كاشف الغطاء، والسيد مهدي بحر العلوم، كما يظهر من بعض المخطوطات أنّه كان حيّاً سنة ١٢٣١ هـ / ١٨١٦ م. واستظهر بعضهم أنّه مات بالطاعون سنة ١٢٤٧ هـ / ١٨٣١ م.

وولده الشيخ حسين الدلبزى المتوفى بالطاعون أيضاً سنة ١٢٤٧ هـ من العلماء المشهود لهم بالفضل، وغزارة العلم، والأدباء الكبار، الذين احتفظت المجاميع الأدبية بنماذج من قصائدهم البليغة الجزلة.

وعلى هذه النسخة (تملّك) جملة من الأعلام منهم: الشيخ سليمان العاملي، والسيد صدر الدين الصدر (صهر المؤلّف)، والعلامة السيد عبد الله بن محمد رضا شبر، والشيخ محمد رضا بن علي بن محمد جعفر الاسترابادي (وهي من مقتنيات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، برقم ٣٨٩٢ من تعداد الكتب الخطية).

النسخة المطبوعة

أمّا النسخة الثانية فهي نسخة طبعت بالمطبعة الحيدرية في النجف في شهر شعبان سنة ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٤ م، باهتمام العلامة السيد عباس التبي، وتقع في (٨٢) صفحة.

وعلى صفحتها الأولى كتبت هذا النصّ: «كتاب منهج الرشاد لمن أراد السداد من تأليف واحد الدهور، ونادرة العصور، أفضل الربّانيين، وأعظم أساطين الدين، شيخ الطائفة الأكبر (الشيخ جعفر النجفي) عطر الله مرقدته، صاحب كتاب كشف الغطاء، وشرح القواعد، والحقّ المبين، وغيرها من المؤلفات الشهيرة، المتوفى في رجب سنة

ص: ١٤٧

ثمانية وعشرين بعد الألف والمائتين هجرية.

كتبه بعنوان جواب مكتوب، كتبه إليه بعض امراء (نجد) من أبناء سعود الذين هم الدعاة إلى مذهب الوهابية. وهو كتاب جليل لم يكتب مثله في هذا الباب.

وكان طبعه ونشره باتفاق حضرة حجة الإسلام، ومرجع الأنام، وحيد الناس، سيدنا الأجل الحاج سيد عباس التتبي ممد ظله العالى. طبعت بمطبعة (الحيدرية) في النجف الأشرف سنة ١٣٤٣ هـ.

وقد ذكر الطهراني أن منهج الرشاد هو أول كتاب كتب في الرد على الوهابية، ووصفه بأنه حوى حقائق علمية وحججاً دامغة. أما العلامة الأمين فذكر أن هذه الرسالة هي أول رسالة كتبت في هذا الموضوع (إلا أن يكون سبقها كتاب سليمان بن عبد الوهاب أخى محمد ابن عبد الوهاب). وامتدح مؤلفها وقال: «إنها حوت كثيراً مما لم يحوه بعض ما تأخر عنها، فهي من مفاخر ذلك العصر».

جواب الأمير عبد العزيز بن سعود

عند وصول الرسالة إلى الأمير عبد العزيز بن سعود، كتب إلى مؤلفها الشيخ جعفر كاشف الغطاء هذه الرسالة المختصرة، وهذا نصها:

يصل الخط إن شاء الله إلى عبد الله جعفر

راعى «المشهد»

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

السلام التام، والتحية والإكرام، يُهدى إلى سيد الأنام، محمد عليه من الله أفضل الصلاة والسلام، ثم ينتهى إلى جناب الأجل الأكرم عبد الله جعفر سلمه الله من كل شر، وأسكنه يوم القيامة جنة المستقر، وأعاده من

ص: ١٤٨

عذاب النار الذي يحذر.

أمّا بعد: فوصل كتابك، وفهمنا ما تضمّنه من خطابك، وما ذكرت أنه بلغك عنّا من حُسن الطريقه، واستقامه السيره من الصلاة والزكاة، والصيام، والحجّ، وغير ذلك من شرائط الإسلام، فالحمد لله الذي هدانا للإسلام، وجتّبنا من عبادة الأصنام، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، كما يُحبُّ ربُّنا ويرضى، وكما ينبغي لكرم وجهه وعزِّ جلاله.

الصفحتان الأولى والأخيرة من مخطوطة «منهج الرشاد»

ص: ١٤٩

منهج الإرشاد لمن أراد السداد

مقدمة المؤلف

الحمد لله الذي تفرّد بالأزلية والقدم، واشتق نور الوجود من ظلمة العدم، أسّس قواعد الشرع على وفق المصالح والحكم، وفضّل أُمَّة محمّد صلى الله عليه وآله على سائر الأمم، وأنزل القرآن فيه آيات محكمات هنّ أمّ الكتاب وأخر متشابهاً، وحذّر عن اتّباع الملاذ والشهوات، وأمر بالوقوف عند الشبهات، وأنذر عن متابعة الآباء والأمّهات، والصلاة والسلام على من قدّمه على جميع أنبيائه، وفضّله على كافّة أصفياه، (محمّد) المختار، صلّى الله عليه وعلى آله، ما أظلم ليل، وأضاء نهار.

أمّا بعد: فقد ورد - إلى المقصّر مع ربّه، التائب إليه من ذنبه، الطالب من الله السداد، (جعفر) أقلّ طلبه أهل (بغداد) - كتاب كريم، مشتمل على كلمات كالدرّ النظيم، ممّن لم يزل بالمعروف آمراً، وعن المنكر ناهياً زاجراً، الأمر بعبادة المعبود، الشيخ عبد العزيز بن سعود (١). فلمّا نظرتّه وتدبّرتّه وتأملتّه وتصوّرتّه، خلوتُ في زاوية من الدار، وتصفّحته تصفّح الإنصاف والاعتبار. وقلت متّهماً لنفسى بالميل إلى العصبية والعناد، والركون إلى ما عليه الآباء والأجداد: يا نفس اعرفي قدر دنياك، واحذري شرّ من أغوى أباك، لقد تخلّيت عن نعيم الدنيا بحذافيرها، وقنعت بقليلها، ولو بقرص شعيرها، وتجنّبت دار العزّة والوقار، واخترت العزلة والخمول في هذه الديار.

فلو كنت في كبار البلدان، من ممالك بني (عثمان)، أو في بعض بلدان فارس وإيران، ل جاءت إليك الدنيا من كلّ جانب ومكان، ونلت من النعيم ما لم ينله إنسان، فاحذري أن تكوني مع الإعراض عن هذه النعم الفاخرة، ممّن قد خسر الدنيا والآخرة.

١-١ عبد العزيز محمد بن سعود أمير آل سعود في دولتهم الأولى، ولد سنة ١١٣٢ هـ / ١٧٢٠ م، وولّي بعد وفاة أبيه عام ١١٧٩ هـ / ١٧٦٥ م، وكانت عاصمة حكمه الدرعية بنجد، واتّسعت الفتوحات في أيامه، وامتدّ ملكه من شواطئ الفرات إلى رأس الخيمة وعمان، ومن الخليج الفارسي إلى أطراف الحجاز وعسير.

اغتاله رجلٌ من أهل العمادية من ديار الجزيرة في جامع الدرعية سنة ١٢١٨ هـ / ١٨٠٣ م. الأعلام للزركلي ٤: ٢٧.

ص: ١٥٠

فلما شملت منها رائحة التصفيه، ورأيت أن نسبة المذاهب - لولا الله عندها - على التسوية، وجهتها إلى الكشف عن حقيقة الجواب عن الشبه الموردة في ذلك الكتاب، ورأيت أن أشرح في الحال رسالته على وجه الاختصار، مستمداً من فيض الواحد القهار، وسميتها «منهج الرشاد لمن أراد السداد».

فاقسم عليك - بمن جعلك متبوعاً بعد أن كنت تابعاً، ومطاعاً بعد أن كنت لغيرك مطيعاً سامعاً، وأعزك بعدما كنت ذليلاً، وكثر جمعك بعدما كان نزرأ قليلاً - أن تنظر ما رسمته سطرًا سطرًا، وتمعن في تحقيق ما رقمته نظراً وفكراً، متوحشاً من الناس وقت النظر، متحذراً من النفس الأمارة كل الحذر، طالباً من الله كشف الحقيقة، سالكاً في المناظرة واضح الطريقة، فلعله يظهر أنه ليس بيننا نزاع، فنحمد الله على الاتفاق والاجتماع. وقد رتبها على مقدمه، ومقاصد، وخاتمه.

أما المقدمه، فتشتمل على ثلاثة فصول:

### الفصل الأول

في أن الأفعال والكلمات تختلف باختلاف المقاصد والنيات

فمن قال: يد الله، وعين الله، وجنب الله، وأراد الجوارح على نحو ما في الأجسام، أو قال: إن الله على العرش استوى، أو في جهة الفوق، وأراد الحلول والاختصاص التام، أو أسند الرحمة إليه، أو الغضب، وأراد رقة القلب، أو ثوران النفس على نحو ما يعرف بين الأنام، أو أسند الرزق إلى المخلوق، أو دعاه، أو استغاث به على نحو ما يسنده إلى الملك العلام، كان خارجاً عن مقالة أهل الإسلام. وأما من قصد بها معاني آخر، فليس عليه من بأس ولا ضرر. وليس هذا كصنيع المشركين، فإن الفرق ظاهر، كما سنبينه كمال التبيين، فالمستغث بالمنسوب مستغث بالمنسوب إليه، والمستجير بالمكان مستجير بمن سلطانه عليه.

فمن أراد الاستجارة والاستغاثة ب (زيد) فله طريقتان:

أحدهما: أن يهتف باسمه.

ص: ١٥١

وثانيهما؛ أن ينادى بصفاته، أو مكانه، أو خدمه.

وثانيهما أقرب إلى الأدب، وأرغب لطباع أرباب الرتب، فلا يكون المستغيث ببيت الله، أو بصفات الله، أو برسل الله، أو المقربين عند الله، إلا مستغيثاً بالله؛ فكلمة دعا مخلوقاً مقرباً عند الله، أو استغاث به قاصداً بحسن التعبير الاستغاثه باللطيف الخبير، فليس عليه بأس في ذلك، بل هو سالك في الآداب أحسن المسالك.

وكذلك من أسند تلك الأشياء لمجرد الربط الصوري، لا على قصد التأثير الحقيقي، كما يقال: «أنبت الربيع البقل»، والمُنبت هو الله، و«بنى الأمير القصر»، والبانى ظاهراً بناه (١).

فإطلاق (السيد) و (المالك) على غير الله، «وإضافة (العبد) و (المملوك) في الأحرار إلى غير الله» (٢)، إن اريد بها الملكية الحقيقية، كان خروجاً عن الطريقة الشرعية، وإلا لم يكن في ذلك بأس بالكلية. ولهذا ورد في الأخبار النبوية إطلاق (السيد) على غير الله.

روى أبو هريرة (٣) عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: أنا سيد ولد آدم يوم القيامة (٤).

وعن أبي سعيد الخدري (٥) عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: الحسن والحسين سيديا شباب أهل الجنة (٦). وعن علي عليه السلام، عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال:

أبو بكر وعمر سيديا كهول أهل الجنة (٧).

وعن فاطمة عليها السلام: أن النبي صلى الله عليه وآله أخبرني أنني سيده نساء العالمين، رواه الترمذي (٨).

وروى أبو نعيم الحافظ، قال: قال النبي صلى الله عليه وآله: ادعوا لي سيد العرب علياً.

وفي حلية الأولياء أنه قال النبي صلى الله عليه وآله: مرحباً بسيد المؤمنين (٩).

وعن أبي بكر عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال للحسن: إبنى هذا سيد (١٠)(١١).

وعن عائشة (١٢) عن النبي صلى الله عليه وآله أنه سار ابنته الزهراء، فقال لها: أما ترضين أن تكوني سيده نساء العالمين، أو نساء المؤمنين (١٣)؟

وروى ذلك عن الصحابة أيضاً، فعن جابر (١٤) أن عمر كان يقول: أبو بكر سيدنا، وأعتق سيدنا، (يعنى: بلالاً)،

١-١ في المطبوع: سواه.

٢-٢ لا توجد في المخطوطة.

٣-٣ أبو هريرة: عبد الرحمن بن صخر الدوسي اليماني، توفي سنة ٥٧ هـ / ٦٧٧ م في المدينة.

٤-٤ سنن الترمذي كتاب المناقب حديث ٣٥٤٨؛ وصحيح مسلم كتاب الفضائل حديث ٤٢٢٣؛ ومسنده أحمد باقي مسند المكثرين، حديث ١٠٥٤٩؛ وسنن ابن ماجه، كتاب الزهد، باب ٣٧؛ سنن الدارمي، المقدمة، باب ٨.

٥-٥ أبو سعيد الخدري: سعد بن مالك بن سنان الخدري الأنصاري، توفي في المدينة سنة ٧٤ هـ / ٦٩٣ م، وهو من الصحابة، ورتبهم أسمى مراتب العدالة والتوثيق.

٦-٦ سنن الترمذي كتاب المناقب، حديث ٣٧٠١، ٣٧١٤؛ وابن ماجه المقدمة، حديث ١١٥؛ ومسنده أحمد باقي مسند المكثرين، حديث ١٠٥٧٦، ١١١٦٦، ١١١٩٢، ١١٣٥١. ورواه أيضاً في باقي مسند الأنصار، حديث ٢٢٢٤٠، ٢٢٢٤١.

- ٧-٧ سنن الترمذى كتاب المناقب، حديث ٣٥٩٧، ٣٥٩٩. ومثله حديث ٣٥٩٨؛ وسنن ابن ماجه المقدمه، حديث ٩٢، ٩٧؛ ومسند أحمد بن حنبل مسند العشرة المبشرين بالجنة، حديث ٥٦٨.
- ٨-٨ سنن الترمذى، حديث رقم ٣٨٢٨.
- ٩-٩ حلية الأولياء ١: ٦٦.
- ١٠-١٠ البخارى كتاب المناقب، حديث ٣٣٥٧، ٣٤٦٣. وكذلك رواه فى كتاب الصلح، حديث ٢٥٠٥؛ والترمذى كتاب المناقب، حديث ٣٧٠٦.
- ١١-١١ البخارى كتاب المناقب، حديث ٣٣٥٧، ٣٤٦٣. وكذلك رواه فى كتاب الصلح، حديث ٢٥٠٥؛ والترمذى كتاب المناقب، حديث ٣٧٠٦.
- ١٢-١٢ عائشه بنت أبى بكر التيمية، أم المؤمنين، توفيت فى المدينة سنة ٥٨ هـ / ٦٧٨ م.
- ١٣-١٣ صحيح البخارى كتاب المناقب، حديث ٣٣٥٣؛ وصحيح مسلم فضائل الصحابة، حديث ٤٤٨٦، ٤٤٨٨؛ والترمذى كتاب المناقب، حديث ٣٨٠٧؛ وسنن ابن ماجه ما جاء فى الجنائز، حديث ١٦١٠؛ ومسند أحمد باقى مسند الأنصار، حديث ٢٣٣٤٣، ٢٤٨٢٩، ٢٥٢١٠.
- ١٤-١٣ جابر بن عبدالله بن عمرو الأنصارى، صحابى، أقام فى المدينة، وتوفى فيها سنة ٧٨ هـ / ٦٩٧ م.

ص: ١٥٢

رواه البخارى (١).

وعن أبى بكر رضى الله عنه أنه قال: أتقولون:

هذا شيخ قريش وسيدهم؟ (٢).

وعن عائشة عن النبى صلى الله عليه وآله أنه قال:

أنا سيد ولد آدم، وعلى سيد العرب.

وروى عن النبى صلى الله عليه وآله: أن سادات النساء أربعة: خديجة، وفاطمة، وآسية، ومريم.

وعن على عليه السلام: أنا سيد البطحاء.

إلى غير ذلك مما يزيد على التواتر.

فالجَمع بين ذلك وبين ما روى فى الكتب المعترية أنه جاء وفدٌ إلى النبى صلى الله عليه وآله، فقالوا: أنت سيدنا، فقال:

السيد الله (٣). باختلاف القصد فى معنى (السيد).

وكذا ما ورد من المنع من قول السيد عبدى وأمتى، فقول العبد لمولاه ربى، مع وجود ذلك فى كلام يوسف (٤).

وكذلك الاستغاثه بغير الله، إن أريد بها الصورة، أو من باب استغاثه العبد بقصد المعبود، فلا بأس بها، وعلى ذلك قوله تعالى:

فَاسْتَعَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ (٥)

وكذا قوله يَسْتَضْرِحُهُ (٦).

وكذلك إطلاق الرب فى بعض المعانى على غير الله كفر، مع أن الصديق يوسف عليه السلام قال: اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ (٧)

، وكذلك طلب الرزق من غير الله على وجه الحقيقة كفر، وقال الله تعالى: وَأَرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٨)

وقوله:

يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَّا الضُّرَّ (٩)

، ونحوه اسْتَطَعْنَا أَهْلَهَا (١٠).

ومن ذلك قول القائل: لولا (فلان) لكان (كذا) فإن أراد أنه الفاعل المختار، دخل فى أقسام الكفر، وإن أراد العلية الصورية بمجرد

رابطة جزئية، لم يكن عليه بأس بالكلىة.

ولذلك ورد عن سيد الأنام أنه قال:

لولا قومك حديثو عهد بالإسلام لهدمت الكعبة (١١).

وعن سفیان الثورى أنه قال: لولا هذه الدنيا لكان الملوک صعالیک.

وعن عمر أنه قال لعلی علیه السلام لَمَا أَشَارَ عَلَيْهِ بَعْدَ مَا أَخَذَ حَلِيَّ الْكَعْبَةِ: لَوْلَا كَ لَافْتَضَحْنَا.

وعن النبى أنه قال لعلی: لولا أن

١-١ صحيح البخارى، باب مناقب بلال بن رباح ٤: ٢١٧، حديث رقم ٣٤٧١؛ وسنن الترمذى، كتاب المناقب، حديث ٣٥٨٩.

٢-٢ صحيح مسلم باب فضائل سلمان، وصهيب، وبلال ٤: ١٩٤٧.

٣-٣ سنن أبى داود كتاب الأدب، حديث ٤١٧٢؛ ومسند أحمد مسند المدینین، حديث ١٥٧١٧، ١٥٧٢٦. وجاء فيه «أنت سيد قريش،



فقال النبي صلى الله عليه وآله: السيد الله».

٤-٤ إشارة إلى قول يوسف عليه السلام: قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثواي- سورة يوسف، الآية ٢٣- وقوله أيضاً: فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن- يوسف، الآية ٥٠-.

٥-٥ سورة القصص: ١٥.

٦-٦ سورة القصص: ١٨.

٧-٧ سورة يوسف: ٤٢.

٨-٨ سورة النساء: ٥.

٩-٩ سورة يوسف: ٨٨.

١٠-١٠ سورة الكهف: ٧٧.

١١-١١ عن عائشة، قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا عائشة لولا أن قومك حديثو عهد بشرك لهدمت الكعبة، فألزقتها بالأرض». صحيح مسلم كتاب الحج، حديث ٢٣٧٠؛ والبخاري كتاب العلم، حديث ١٢٣. وكذلك رواه في كتاب الحج: حديث عهدهم بالجاهلية- حديث ١٤٨٠، ١٤٨٣.

ص: ١٥٣

تقول الناس فيك ما قالت النصارى لقلتُ فيك مقالاً.

وورد في صحيح الأثر، عن الفاروق عمر أنه قال: «لولا عليٌّ لهلكَ عمر».

ولم ينكر عليه أحدٌ من الصحابة، إلى غير ذلك.

وكذا الحلف بغير الله إن أريد به الحلف على جهة إثبات الدعوى، كان خارجاً عن الشريعة، وإلا لم يكن قسماً على الحقيقة.

والحديث الذى فيه: «من حلف بغير الله، فقد أشرك» (١) محمول على حقيقة الحلف، وسيجيء تفصيله فى المقصد الخامس. وكذلك إطلاق اليد، والرجل، والقدم، وغير ذلك بالنسبة إلى الله على الحقيقة، لا يوافق الطريقة من غير تأويل، لم يتوهمه سوى نزر قليل.

مع أنه روى أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وآله: أن النار لا تمتلى حتى يضع الله رجله فيها (٢). وعن أنس عن النبى صلى الله عليه وآله: أن النار لا تمتلى حتى يضع الله قدمه فيها (٣).

ومن ذلك نسبة الضحك والعجب إلى الله تعالى، فإن إرادة الحقيقة بعيدة عن الطريقة؛ مع أن أبا هريرة روى عن النبى صلى الله عليه وآله أنه قال: لقد عجب الله، أو ضحك الله، عن (فلان) و (فلانة)، ونقل قصته (٤).

فباختلاف المعانى اختلفت المباني، وكذلك فى مسألة الأفعال، فإنها شبيهة الأقوال، فإن القيام للتواضع قد ورد النهى عنه.

روى أبو أسامة عن النبى صلى الله عليه وآله أنه خرج مُتَكِنًا على عصى، فقمنا له، فقال: لا تقوموا كما تقوم الأعاجم بعضهم لبعض، رواه أبو داود (٥).

وروى ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وآله أنه قال: لا يقوم الرجل من مجلسه، ثم يجلس فيه، ولكن تفسحوا وتوسعوا (٦).

وعن أنس أنه قال: لم يكن شخص أحب إليهم من النبى صلى الله عليه وآله، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا، لما يعلمون من كراهيته لذلك، رواه الترمذى، وقال: هذا خبرٌ صحيح (٧).

فينبغى أن ينزل المنع على قيام خاص؛ كأن يقوم منحنيًا على نحو ما

١-١ سنن الترمذى كتاب النذور والأيمان، حديث ١٤٥٥.

٢-٢ صحيح البخارى كتاب تفسير القرآن، حديث ٤٤٧٢؛ وصحيح مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، حديث ٥٠٨٢.

٣-٣ صحيح البخارى كتاب التوحيد، حديث ٦٨٩٥؛ وصحيح الترمذى كتاب صفة الجنة، حديث ٢٤٨٠، ٢٤٨٤.

٤-٤ صحيح البخارى كتاب المناقب، حديث ٣٥٢٤، وصحيح مسلم كتاب الأشربة، حديث ٣٨٢٩، ٣٨٣٠؛ وسنن الترمذى باب تفسير القرآن، حديث ٣٢٢٦.

٥-٥ سنن أبى داود كتاب الأدب- باب قيام الرجل للرجل، حديث ٥٢٣٠.

٦-٦ مسند أحمد ٢: ١٧.

٧-٧ سنن الترمذى كتاب الأدب- باب كراهية قيام الرجل للرجل، حديث ٢٦٧٨.

ص: ١٥٤

يصنع الأعاجم. وفي الخبر ما يرشد إليه اختلاف الأغراض والمقاصد.

كما روى عن معاوية أن النبي صلى الله عليه وآله قال: مَنْ سَرَهُ أَنْ يَتَمَثَّلَ لَهُ الرِّجَالُ قِيَامًا، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ (١).

وحديث «ولا يقوم الرجل»، ظاهره اختصاص الجالس مجلسه، وربما ينزل ما دلّ على كراهته، كذلك على نحو كراهته لملاذ الدنيا، وزهده في القيام كزهده في مباحاتها.

فقد روى أبو سعيد الخدري أن سعداً جاء على حمار، فلما دنا من المسجد، قال النبي صلى الله عليه وآله للأَنْصَارِ: قوموا إلى سيّدكم (٢).

وعن عائشة قالت: كنت جالسةً متربّعةً، فجاء النبي صلى الله عليه وآله فأردتُ القيام، كما هي عادتى عند دخوله، فمَنَعْنِي (٣).

فإنّ فيه دلالة على أنّ ذلك كان معتاداً لها، ولعلّ هذا المنع كان لسبب خاصّ، أو كزهده الدنيا، وكسر النفس.

وروى عن النبي صلى الله عليه وآله أنّه لما قدم جعفر مبشراً بفتح خبير، قام، فقال: ما أدري بأيّهما أنا أشدّ فرحاً، أبقدوم جعفر أم بفتح خبير؟! (٤).

وقيام الاحتمال في هذه الأخبار لا يمنع الاستناد إليها كما لا يخفى على أولى الأنظار، مع ما ورد في الأخبار الكثيرة من استحباب تعظيم المؤمن، ويدخل في تعظيم شعائر الله على نحو ما ورد في التفاسير المعتمدة.

وعن أبي هريرة أنّ النبي صلى الله عليه وآله كان جلس معنا في المسجد يحدثنا، فإذا قام قمنا لقيامه، حتّى نراه دخل بعض بيوت أزواجه.

وعن وائله (٥) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ للمسلم لحقاً إذا رآه أخوه تزحزح له، رواه البيهقي في شعب الإيمان (٦).

ولعلّ هذا مبنى على أنّ التواضع تختلف أقسامه باختلاف الأزمان، وكيف كان فالذي يظهر بعد التأمل التام اختلاف الأقوال والأفعال باختلاف المقاصد. ومن ذلك اختلاف أحوال الزهّاد، فبعض ترك المآكل والملابس الحسان، واقتصر على الجشب والخشن، وبعضهم يأكل من أطيب المأكول، ويلبس من أنعم الملبوس.

وباعتبار اختلاف التيات دخل

١- ١ سنن أبي داود كتاب الأدب، حديث ٤٥٥٢؛ وسنن الترمذى كتاب الأدب، حديث ٢٦٧٩.

٢- ٢ سنن أبي داود، حديث ٥٢١٦.

٣- ٣ أيضاً، حديث ٥٢١٧.

٤- ٤ علق العلامة الشيخ قاسم الدلبزى ناسخ الكتاب على هذا الموضوع بقوله:

«لقائل أن يقول: إنّ حديث جعفر ليس فيه دلالة على المطلوب؛ لأنّ قول النبي صلى الله عليه وآله: «ما أدري أنا بأيّهما أشدّ فرحاً» لا دلالة فيه لاحتمال أن يكون من جمعة الفرح؛ يعنى ما أدري فرحى لقدوم جعفر، أو لفتح خبير؛ لأنّ مطلوبنا القيام، وهذا لا دلالة فيه على أنّ القيام كان من النبي لجعفر من جمعة فرحه بفتح خبير.

وكذلك حديث أبي هريرة، وحديث وائله؛ لأنّ قول الأصحاب قمنا قياماً، حتّى قوله دخل بيوت بعض أزواجه لا دلالة فيه على أنّهم قائمين - هكذا وردت في الأصل - له صلى الله عليه وآله، وكذا قوله في حديث وائله: فإذا رآه أخوه تزحزح له لاحتمال أن يكون التزحزح، والتفسّح بمعنى واحد. والمنكر لا ينكر التفسّح».

قاسم الدلبزى

٥-٥ وائله بن الأسقع بن كعب، تُوفى سنة ٨٣هـ / ٧٠٢ م بدمشق عن ١٠٥ سنين.

٦-٦ سنن البيهقى، كتاب شعب الإيمان.

ص: ١٥٥

(العمَلان) في قسم العبادات.

ثم إنَّ الأفعال المختلفة بعضها لا ينسب إلى غير الله، كما يجاد الكائنات، وصنع المصنوعات. وبعضها لا ينسب إلى الله، كأفعال القبائح والمُنْفَرَات، وبعضها تختلف معانيها ومقاصدها، فتنسب إلى الخالق مرّة، والمخلوق أخرى. وهذا الحُكم متمشٍ على قول مَنْ لم يُثبِتْ فاعلاً سوى الله، وعلى قول من أثبت.

والمعيار أنه متى قام احتمال إرادة وجه صحيح بنى عليه، لقوله صلى الله عليه وآله:

«ادروا الحدود بالشبهات»، «ولا تقل في الناس إلّا خيراً». وما دلّ على النهي عن سوء الظنّ، فكيف بالشكّ.

وعن عائشة عن النبي صلى الله عليه وآله: ادروا الحدود عن المسلمين ما استطعتم (١).

فالناس إذن في صدور أمثال هذه الامور عنهم على أنحاء:

بين علماء عاملين، مقاصدهم صحيحة، فلا يتعمدون بالأقوال والأفعال، إلّا الوجوه السليمة من القيل والقال.

وبين عوام جُهَّال بنوا على ما بنى عليه علماءهم على الإجمال، وليس لهم قابلية التفتيش على حقيقة الحال، فهم أيضاً معذورون عند ربّ العزّة والجلال.

وبين من بنوا على طريق الضلال، وعليهم المؤاخذه بضروب النكال.

والتحقيق أنّ تبدل الأحكام بتبدل الموضوعات، ليس من باب التشريع والإبداع، مثلاً يستحبّ للنساء التزيّن لرجالهن، فمنذ كان لبس السواد زينة استُحب، فإذا انعكس وصار الميل إلى الأحمر والأصفر انعكس الخطاب.

وألوان اللباس تختلف باختلاف الناس، ففي كلّ بلاد يستحبّ لون ونوع، فإنّه قد يكون في مكان لبس شهرة، وفي آخر بعكسه، وفي موضع من لباس النساء، وفي موضع بعكسه.

وكذا كانت رغبة الناس في طيب الكافور، فكرهه اليوم. وكذلك إكرام الضيف بالماكل، وكذا المراكب، فيختلف الحال باختلاف الأحوال.

وكذا طريق التواضع، وتعليق البناء، ولباس الزهد.

والزهد في المأكل يختلف باختلاف

ص: ١٥٦

الأزمنة، والأمكنة، والأحوال، والمقاصد، وعلى ذلك مبنى كثير من اختلاف الأخبار. وكذا يستحب التأهب لجهاد الكفار بأحسن السلاح، وكان أطيها السيوف والرماح، وصار الأحسن في هذه الأيام (التفكك) (١) المعروف بين الأنام.

وكذا الوصول إلى بعض الأرضين لا يستحب، حتى تجعل مقبرة للمسلمين. فاختلاف الأزمنة والأمكنة والجهات، قد يبعث على اختلاف الأحكام؛ لاختلاف الموضوعات، وربما بنى على ذلك اختلاف كثير من الأخبار، وطريقة المسلمين على اختلاف الأعصار.

وَقَفْنَا لِلَّهِ وَإِيَّاكُمْ لِسُلُوكِ الْجَادَّةِ الْمُسْتَقِيمَةِ، وَالْأَخْذِ بِالطَّرِيقَةِ السَّلِيمَةِ، وَرَدَّنِي اللَّهُ إِلَيْكَ إِنْ كُنْتَ أَنْتَ عَلَى الْحَقِّ، وَرَدَّكَ إِلَيَّ إِنْ كَانَ الْحَقُّ مَعِي، وَمَعَ أَكْثَرَ الْخَلْقِ.

### الفصل الثاني

في بيان اختلاف ظواهر الآيات والروايات

وإن لكل من الحق والباطل مأخذاً، كما روى: أَنَّ لِكُلِّ حَقٍّ حَقِيقَةً، وَلِكُلِّ صَوَابٍ نَوْرًا، فَمَنْ أَرَادَ الْحَقَّ اهْتَدَى إِلَيْهِ، وَمَنْ أَرَادَ الْبَاطِلَ كَانَ لَهُ مِيدَانٌ فِي الْمَجَادَلَةِ عَلَيْهِ. فَمَنْ خَرَجَ عَنِ جَادَّةِ الْإِنصَافِ، وَسَلَكَ طَرِيقَ الْغِيِّ وَالْإِعْتِسَافِ، وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَى سِيرَةِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، أَمْكَنَهُ أَنْ يَسْتَنِدَ إِلَى ظَاهِرِ الْقُرْآنِ الْمَبِينِ، فِيمَا يَخْرُجُ عَنِ شَرِيعَةِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ.

فَإِنَّ (الْوَعْدِيَّةَ) الْمُنْكَرِينَ لِلْعَفْوِ، الْمَوْجِبِينَ لِلْمُؤَاخَذَةِ عَلَى الْمَعَاصِي، يُمْكِنُهُمُ الْإِسْتِدْلَالُ بِآيَةِ سُورَةِ الزَّلْزَالِ فَمَنْ يَعْمَلُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٢)

، و (الْوَعْدِيَّةُ) الْقَائِلِينَ بِرَفْعِ الْمُؤَاخَذَةِ بِالْكَلْبِيَّةِ، وَإِنَّ اللَّهَ لَا يَعْاقِبُ عَلَى مَعْصِيَةٍ، لَهُمُ الْإِسْتِنَادُ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا (٣)

، ووعد لا خلف فيه.

والمشبتون للرؤية في الآخرة يستندون إلى قوله تعالى: وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ (٤)

، والنافون إلى قوله تعالى:

١- ١ وفي نسخة البندق، ويقصد بها البنادق.

٢- ٢ سورة الزلزلة: ٧- ٨.

٣- ٣ سورة الزمر: ٥٣.

٤- ٤ سورة القيامة: ٢٢- ٢٣.

ص: ١٥٧

لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ (١).

وَالْقَائِلُونَ بِأَنَّ اللَّهَ عَلَى الْعَرْشِ بِآيَةٍ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (٢)

، وَالنَّافُونَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا (٣)

وَإِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَّهَدِينَ (٤) مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةَ إِلَٰهَاتٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ (٥).

وَالْقَائِلُونَ بِالتَّجْسِيمِ عَلَى الْحَقِيقَةِ يَسْتَنْدُونَ إِلَى مِثْلِ قَوْلِهِ: يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ (٦)

، وَالنَّافُونَ إِلَى قَوْلِهِ:

لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ (٧)

وَنَحْوَهَا.

وَالْقَائِلُونَ بِجَوَازِ الْمَعْصِيَةِ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ يَسْتَنْدُونَ إِلَى مِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى:

وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (٨)

، وَالنَّافُونَ بِمِثْلِ قَوْلِهِ: لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (٩).

وَالْقَائِلُونَ بِاسْتِنَادِ جَمِيعِ الْأَفْعَالِ إِلَى اللَّهِ، اسْتَنْدُوا إِلَى قَوْلِهِ: خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ (١٠)

وقوله: كُلُّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ (١١).

وَالْآخَرُونَ إِلَى قَوْلِهِ: مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ (١٢).

وَالْقَائِلُونَ بِأَنَّ الْكُفَّارَ مَخَاطِبُونَ بِالْفُرُوعِ بِعَمُومٍ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ (١٣)

، وَالنَّافُونَ لِذَلِكَ بِخَطَابٍ: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا (١٤)

إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ.

وَكَذَا فِي الْفُرُوعِ الْفَقْهِيَّةِ، فَإِنَّ كَلًّا مِنَ الْفُقَهَاءِ لَهُ مَا خَذَ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، مَغَايِرَ لِمَا خَذَ صَاحِبُهُ، كَمَا لَا يَخْفَى عَلَى الْمَتَّبِعِ، فَلَمَنْ أَرَادَ

أَنْ يُبَيِّحَ جَمِيعَ الْأَشْيَاءِ قَوْلَهُ تَعَالَى: خَلَقَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ (١٥)

وَمَنْ قَصَرَ التَّحْرِيمَ عَلَى أَرْبَعَةٍ اسْتَنْدَ إِلَى مَا دَلَّ عَلَى تَحْلِيلِ جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ مَا عَدَا الْمَيْتَةَ، وَالدَّمَ، وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ، وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ، مِنْ

جَمِيعِ مَا خَلَقَ اللَّهُ.

وَالْحَاصِلُ: أَنَّ كُلَّ مَنْ أَرَادَ الْعِنَادَ وَالْعَصِيَّةَ، فَلَهُ مَدْرَكٌ يَتَشَبَّهُ بِهِ مِنْ آيَةٍ قُرْآنِيَّةٍ، أَوْ سُنَّةٍ مُحَمَّدِيَّةٍ، وَيَكُونُ صَاحِبَ مَذْهَبٍ وَرَأْيٍ،

يُبَاحُ الْفَضْلَاءُ، وَيُنَظَرُ أَسَاطِينُ الْعُلَمَاءِ، مَا لَمْ يَكُنْ لَهُ حَاجِبٌ مِنْ تَقْوَى اللَّهِ.

وَلَقَدْ أَجَادَ بَعْضُ الْقَدَمَاءِ، مِنْ فَحُولِ الْعُلَمَاءِ حَيْثُ يَقُولُ: إِنَّ الْمَسَائِلَ الشَّرْعِيَّةَ عِنْدِي بِمَنْزِلَةِ الشَّمْعِ اللَّيِّنِ، أُصَوِّرُهُ كَيْفَ شِئْتُ لَوْلَا تَقْوَى

اللَّهِ.

١-١ سورة الأنعام: ١٠٣.

٢-٢ سورة طه: ٥.

٣-٣ سورة التوبة: ٤٠.

٤-٤ سورة الشعراء: ٦٢.

- ٥-٥ سورة المجادلة: ٧.  
٦-٦ سورة الفتح: ١٠.  
٧-٧ سورة الشورى: ١١.  
٨-٨ سورة طه: ١٢١.  
٩-٩ سورة البقرة: ١٢٤.  
١٠-١٠ سورة الأنعام: ١٠٢.  
١١-١١ سورة النساء: ٧٨.  
١٢-١٢ سورة النساء: ٧٩.  
١٣-١٣ سورة البقرة: ٢١.  
١٤-١٤ سورة البقرة: ١٠٤.  
١٥-١٥ سورة البقرة: ٢٩.



ص: ١٥٨

وَنُقِلَ أَنَّ بَعْضَ الْفَضْلَاءِ أَخَذَ قِطْعَةً مِنْ قِرطَاسٍ فِي مَحْفَلٍ مِنَ النَّاسِ، فَأُورِدَ عَلَيْهِمْ بَرَاهِينَ عَلَى أَنَّهَا قِطْعَةٌ ذَهَبٌ، حَتَّى أَقْرَبُوا بِذَلِكَ. وَلَكِنْ مَنْ أَرَادَ رِضَا الْجَبَّارِ، وَرَجَا الْفَوْزَ بِالْجَنَّةِ، وَخَافَ عَذَابَ النَّارِ، يَنْظُرُ إِلَى الْمَعَادِلَةِ فِي الدَّلَالَاتِ، ثُمَّ يَنْظُرُ الْمَرْجِحَاتِ الْخَارِجِيَّاتِ، وَأَوْلَاهَا التَّأَمُّلَ فِي طَرِيقَةِ الصَّحَابَةِ وَسِيرَتِهِمْ، فَإِنَّهَا أَعْظَمُ شَاهِدٍ عَلَى مَا حَكَّمَ بِهِ الْجَبَّارُ، وَجَرَتْ عَلَيْهِ سُنَّةُ النَّبِيِّ الْمُخْتَارِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَإِنَّ لِكُلِّ مَلَّةٍ طَرِيقَةً يَرْجِعُونَ إِلَيْهَا، وَيُعَوِّلُونَ عِنْدَ وَقُوعِ الْاِشْتِبَاهِ عَلَيْهَا. وَقَدْ يَحْصُلُ الْعِلْمُ بِمَا عَلَيْهِ الْأَمْرَاءُ، مِنَ النَّظَرِ إِلَى عَمَلِ أَتْبَاعِهِمْ، وَأَشْيَاعِهِمْ، وَرِعَايَاهُمْ، وَخِدْمَتِهِمْ، وَحَشْمَتِهِمْ؛ لِأَنَّ الْأَثَرَ يَدُلُّ عَلَى مُؤَثِّرِهِ، وَالْمُنْتَهَى يَدُلُّ عَلَى مَصْدَرِهِ.

وَبَعْدَ الْعَهْدِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ زَمَانِ (الصدور)، رَبَّمَا أَخْفَى عَلَيْنَا كَثِيرًا مِنَ الْأُمُورِ، فَإِذَا حَصَلَ الْإِجْمَاعُ وَالِاتِّفَاقُ، ارْتَفَعَ النَّزَاعُ وَالشَّقَاقُ، وَكَذَلِكَ إِذَا اشْتَهَرَ أَمْرٌ بَيْنَ السَّلَفِ وَظَهَرَ، فَلَا وَجْهَ لِلانْتِصَافِ عَنْهُ إِلَى مَا شَدَّ وَنَدَرَ. فَقَدْ عِلْمَ أَنَّ الْمِيزَانَ الَّذِي لَا عَيْبَ فِيهِ، وَلَا نَقْصَ يَعْتَرِيهِ، هُوَ الرَّجُوعُ إِلَى كَلَامِ الصَّحَابَةِ، وَالتَّابِعِينَ، وَالتَّابِعِي التَّابِعِينَ؛ لِأَنَّهُ مُوضِحٌ وَكَاشِفٌ لِحُكْمِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ.

وَلَمَّا اخْتَلَفَتِ الْأَخْبَارُ فِي بَعْضِ مَا أوردناه وشرحناه، لَزِمَ الرَّجُوعُ إِلَيْهِمْ، وَالاعْتِمَادُ فِي تَصْحِيحِ الْأَخْبَارِ - بَعْدَ اللَّهِ - عَلَيْهِمْ. عَلَى أَنَّ الْأَخْبَارَ الدَّالَّةَ عَلَى جَوَازِ مَا مَنَعَهُ الْمَانِعُونَ أَكْثَرَ مَوْرِدًا، وَأَوْفَرَ عَدَدًا، وَأَقْرَبَ إِلَى ظَاهِرِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَكَلَامِ الْأَصْحَابِ. وَقَفَّقْنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ لِإِدْرَاكِ حَقَائِقِ الْأُمُورِ، وَالتَّوْفِيقِ لِلسَّعَادَةِ يَوْمَ النُّشُورِ، وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَتَمَسِّكِينَ بِالْعُرْوَةِ الْوَثْقَى، وَالتَّمَشُّوقِينَ إِلَى دَارِ الْآخِرَةِ الَّتِي هِيَ خَيْرٌ وَأَبْقَى، وَاللَّهُ وَلِيُّ التَّوْفِيقِ، وَبِيَدِهِ أَرْزَمَةُ التَّحْقِيقِ.

الفصل الثالث

في بيان الميزان (١) التي يُرجع إليها إذا تشابهت الامور

وهي ما عليه الصحابة والتابعون، وما أجمع عليه المسلمون. قال الله

١-١ الميزان مذكّر، وقد يكون بتأنيثها أراد آلاله التي توزن بها الأشياء.

ص: ١٥٩

تعالى: وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى (١)  
وقال:

إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ (٢)

وعن ابن عمر، أنه قال: لا تجتمع امتي - أو قال: (أُمَّةٌ مُحَمَّدٌ) - على ضلال، ويد الله على الجماعة، ومن شدَّ شدَّ في النار، رواه الترمذى (٣).

وعن ابن عمر، عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: اتَّبِعُوا السَّوَادَ الْأَعْظَمَ، فَإِنَّهُ مِنْ شَدِّ شَدِّ فِي النَّارِ (٤).

وعن عمر، عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال:

مَنْ سَرَّهُ بُحْبُوحَةُ الْجَنَّةِ فَلْيَلِزِمِ الْجَمَاعَةَ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْفَرْدِ، وَهُوَ مِنَ الْإِثْنَيْنِ أَبْعَدَ (٥).

وعن أسامة بن شريك (٦)، عن النبي صلى الله عليه وآله: أيما رجل يفرق بين امتي فاضربوا عنقه، رواه النسائي (٧).

وعن النبي صلى الله عليه وآله: إِنَّ اللَّهَ أَجَارَكُمْ مِنْ ثَلَاثَ خِلَالَ، وَعَدَّ مِنْهَا: أَنْ تَجْتَمِعُوا عَلَى الضَّلَالِ (٨).

وعن النبي صلى الله عليه وآله: ما اجتمعت امتي على الخطأ (٩).

وقال علي عليه السلام في بعض خطبه:

عليكم بالسواد الأعظم، وإنَّ الشاذَّ للذئب (١٠).

وعن عمر، عن النبي صلى الله عليه وآله: أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم.

وعن رزين، عن عمر، عن النبي صلى الله عليه وآله قال: سألتُ ربي عن اختلاف أصحابي، فأوحى إليّ: إنَّ أصحابك بمنزلة النجوم، بعضها أقوى من بعض، ولكلُّ نور، فمن أخذ بما هم عليه من اختلافهم، فهو عندي على هدى (١١).

وعن النبي صلى الله عليه وآله: إنَّ مثل أهل بيتي كسفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها هلك (١٢).

وعن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وآله: لو سلك الناس وادياً، وسلك الأنصار وادياً أو شعباً، لسلكت وادي الأنصار (١٣).

وعن زيد بن أرقم (١٤)، قال: قام النبي صلى الله عليه وآله خطيباً، فقال: أيها الناس إنَّما أنا بشرٌ يوشك أن يأتيني رسولٌ ربِّي فأجيب، وأنا تاركٌ فيكم الثقلين: كتاب الله فيه الهدى، وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، رواه مسلم (١٥).

وعن جابر (١٦)، قال: رأيتُ النبي صلى الله عليه وآله

١- ١ سورة النساء: ١١٥.

٢- ٢ سورة الأحزاب: ٣٣.

٣- ٣ سنن الترمذى كتاب الفتن - باب ما جاء في لزوم الجماعة -.

٤- ٤ مسند أحمد بن حنبل ٤: ٣٨٣.

٥- ٥ سنن الترمذى، حديث ٢١٦٥.

٦- ٦ أسامة بن شريك الثعلبي الديباني، كان من الصحابة، سكن الكوفة.

٧- ٧ سنن النسائي كتاب تحريم الدم، حديث ٣٩٥٧؛ وصحيح مسلم ٣: ١٤٧٩.

- ٨-٨ سنن أبي داود، حديث ٤٢٥٣.
- ٩-٩ سنن ابن ماجه، حديث ٣٩٥٠.
- ١٠-١٠ نهج البلاغة، الخطبة ١٢٧.
- ١١-١١ كنز العمال ١: ١٨١، حديث ٩١٧.
- ١٢-١٢ مستدرک الحاكم ٣: ١٥٠.
- ١٣-١٣ صحيح مسلم، حديث ١٣٥.
- ١٤-١٤ زيد بن أرقم بن زيد بن قيس الأنصاري الخزرجي، أقام بالكوفة أيام المختار، وتوفي فيها سنة ٦٦ هـ، وقيل سنة ٦٨ هـ / ٦٨٧ م.
- ١٥-١٥ صحيح مسلم فضائل الصحابة، حديث ٤٤٢٥؛ ومسند أحمد بن حنبل، مسند الكوفيين، حديث ٨٤٦٤، وسنن الدارمي فضائل القرآن، حديث ٣١٨٢.
- ١٦-١٦ جابر بن عبد الله الأنصاري، توفي سنة ٧٨ هـ / ٦٩٧ م، عن ٩٤ عاماً.

ص: ١٦٠

فِي حَجَّةٍ يَخْطُبُ، فَسَمِعْتَهُ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ أَخَذْتُمْ بِهِ لَنْ تَضَلُّوا: كِتَابَ اللَّهِ، وَعَتَرْتِي أَهْلَ بَيْتِي، رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ (١).

وَقَرِيبٌ مِنْهُ مَا رَوَاهُ زَيْدُ بْنُ أَرْقَمٍ (٢).

وَعَنْ حَذِيفَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: اقْتَدُوا بِاللَّذِينَ مِنْ بَعْدِي: أَبِي بَكْرٍ، وَعَمْرٌ (٣).

وَعَنْ جَبْرِ بْنِ مَطْعَمٍ (٤)، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: أَنَّ امْرَأَتَهُ قَالَتْ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: إِنْ لَمْ أَجِدْكَ فِإِلَى مَنْ أَرْجِعُ؟ فَقَالَ: إِثْتُ أَبَا بَكْرٍ (٥).

وَعَنْ ابْنِ عَمْرٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: وُضِعَ الْحَقُّ عَلَى لِسَانِ عَمْرٍ يَقُولُ بِهِ (٦).

وَعَنْ أَبِي دَاوُدَ، عَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ:

إِنَّ الْحَقَّ وَضِعَ عَلَى لِسَانِ عَمْرٍ يَقُولُ بِهِ (٧).

وَعَنْ عَقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَنَّهُ قَالَ: لَوْ كَانَ بَعْدِي نَبِيٌّ لَكَانَ عَمْرُ ابْنُ الْخَطَّابِ (٨).

وَعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَالَ لِعَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: أَنْتَ مَنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى (٩).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍ (١٠)، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَنَّهُ قَالَ: مَا أَظَلَّتِ الْخَضِرَاءُ، وَلَا أَقَلَّتِ الْغُبَرَاءُ مِنْ ذِي لَهْجَةٍ، أَصْدَقُ مِنْ أَبِي ذَرٍّ، رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ (١١).

وَعَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَنَّهُ قَالَ: اللَّهُمَّ أَدْرِ الْحَقَّ مَعَ عَلِيٍّ حَيْثُ مَا دَارَ، رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ (١٢).

وَعَنْ عَمَّارٍ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَالَ: إِذَا سَلَكَ النَّاسُ طَرِيقًا، وَسَلَكَ عَلِيٌّ غَيْرَهُ، فَاسْلُكْ طَرِيقَ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ قَالَ:

مَنْ كَانَ مُسْتَنَّأً فَلَيْسَتْ بَيْنَ قَدَمَاتِ، أَوْلَتْكَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ كَانُوا أَفْضَلَ هَذِهِ الْأُمَّةِ، أَبْرَأَ قُلُوبًا، وَأَعَمَّقَهَا عِلْمًا.

إِلَى أَنْ قَالَ: فَاعْرِفُوا لَهُمْ فَضْلَهُمْ، وَاتَّبِعُوهُمْ عَلَى إِثْرِهِمْ، وَتَمَسَّكُوا بِمَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ أَخْلَاقِهِمْ وَسَيْرَتِهِمْ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْهُدَى الْمُسْتَقِيمِ، رَوَاهُ رَزِينٌ (١٣).

وَعَنْ عَرَبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ (١٤)، قَالَ:

صَلَّى بِنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وَوَعِظَ ثُمَّ قَالَ:

إِنَّهُ مِنْ يَعِيشُ مِنْكُمْ بَعْدِي فِسِيرِي اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمُهَدِّينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ

١-١ سنن الترمذى باب مناقب أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله، حديث ٣٧٨٦.

٢-٢ أيضاً، حديث ٣٧٨٨.

٣-٣ أيضاً، حديث ٣٦٦٢.

٤-٤ جبير بن مطعم بن عدى القرشى النوفلى، توفى سنة ٥٩ هـ / ٢٦٠ م.

٥-٥ سنن الترمذى، حديث ٣٦٧٦.

٦-٦ أيضاً، حديث ٣٦٨٢.

- ٧-٧ أيضاً، حديث ٣٦٨٢.
- ٨-٨ سنن الترمذى، حديث ٣٦٨٦.
- ٩-٩ المصدر السابق، حديث ٣٧٣١.
- ١٠-١٠ هو ابن عمرو بن العاص السهمى القرشى، صحابى، أقام فى مصر، وتُوفى فى الطائف سنة ٦٣هـ / ٦٨٣ م.
- ١١-١١ سنن الترمذى، حديث ٣٨٠١؛ وسنن ابن ماجه المقدّمه، حديث ١٥٢.
- ١٢-١٢ سنن الترمذى كتاب المناقب، حديث ٣٦٤٧.
- ١٣-١٣ صحيح مسلم، ج ٤، ص ١٩٦٢.
- ١٤-١٤ عرباض بن ساريه السلمى الحمصى، صحابى، أقام فى الشام، وتُوفى سنة ٧٥هـ / ٦٩٤ م.

ص: ١٦١

ومحدثات الامور، فإنَّ كلَّ محدثه بدعه، وكلَّ بدعه ضلالة، (رواه أحمد، وغيره) (١).

وعن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وآله أنه:

من خرج عن الطاعة، وفارق الجماعة مات ميتة جاهلية (٢).

وعن الحارث الأشعري (٣)، عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: مَنْ خَرَجَ عَنِ الْجَمَاعَةِ قَدَرَ شَبْرًا، فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ.

وعن ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وآله: إِنَّ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ قَدَرَ شَبْرًا مَاتَ مِيتَةَ جَاهِلِيَّةٍ (٤).

وعن عبدالله بن عمرو، عن النبي صلى الله عليه وآله: إِنَّ أُمَّتَهُ تَفْتَرِقُ ثَلَاثًا وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَلَيْسَ فِيهَا نَاجٍ سِوَى وَاحِدَةٍ، فَسُئِلَ عَنْهَا، فَقَالَ:

مَا أَنَا عَلَيْهِ الْيَوْمَ وَأَصْحَابِي (٥).

إلى غير ذلك من الأخبار.

ومقتضى ذلك أنه من اللّازم الرجوع إلى سيرة الصحابة وطريقتهم، وأنها الميزان إذا اشتكلت علينا الامور، وتعارضت علينا الأدلّة،

وسيتضح أنّ جميع ما ينكر من هذه الأفعال الموردة صادرة عن الصحابة، وطريقتهم مستمرة عليه، مع أنّ في السنّة ما يدلّ على جوازه.

وما ورد عنه صلى الله عليه وآله أنّ الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً (٦)، فلا ينافي ما ذكرناه؛ لأنّ فرقة الإسلام بين طوائف الكفر

كنقطة في بحر.

وروى أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله: ما أتم في الناس إلّا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود (٧).

وعوده غريباً في أيام الدجال، ونحوه يكفى في صدق الخبر.

وروى عبدالله بن مسعود (٨) عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: لا تقوم الساعة إلّا على شرار الخلق، رواه مسلم (٩).

وعن أبي سعيد الخدري (١٠) عن النبي أنه قال: لا تقوم الساعة حتّى لا يقال في الدنيا الله (١١).

وكلّ ما صدر في زمان الصحابة من الأعراب بمحضر منهم ولم ينكروه، فهو موافق لرضاهم، وإلّا لأنكروه؛ ولهذا أوردنا في هذه

الرسالة كثيراً ممّا صدر في زمانهم من غيرهم.

وعلى كلّ حال، فلا كلام في أنّ

١- ١ مسند أحمد بن حنبل مسند الشاميين، حديث ١٦٦٩٢، ١٦٦٩٤، ١٦٦٩٥؛ وسنن الدارمي المقدّمة حديث ٩٥؛ والترمذي كتاب

العلم، حديث ٢٦٠٠؛ وابن ماجه المقدّمة، حديث ٤٢، ٤٣.

٢- ٢ وفي النسخة المطبوعة ورد الحديث كالآتي: «مَنْ مَاتَ، وَلَمْ يَعْرِفْ إِمَامَ زَمَانِهِ مَاتَ مِيتَةَ جَاهِلِيَّةٍ» صحيح مسلم كتاب الامارة،

حديث ٣٤٤١.

٣- ٣ هو الحارث بن الحارث الأشعري، صحابي، أقام في الشام.

٤- ٤ مسند أحمد بن حنبل مسند الشاميين، حديث ١٦٧١٨ ضمن حديث طويل، وحديث ١٧٣٤٤.

٥- ٥ سنن الترمذي كتاب الايمان، حديث ٢٥٦٥.

٦- ٦ صحيح مسلم، حديث ١٤٥.

٧- ٧ صحيح البخارى كتاب تفسير القرآن، حديث ٤٤٦٤؛ وصحيح مسلم كتاب الايمان، حديث ٣٢٧؛ ومسند أحمد بن حنبل باقى

مسند المكثرين، حديث ١٠٨٩٢.

٨-٨ في صحيح مسلم ورد اسم عبد الله بن عمرو بن العاص.

٩-٩ صحيح مسلم كتاب الامارة، حديث ٣٥٥٠.

١٠-١٠ في المصادر «أنس بن مالك».

١١-١١ مسلم كتاب الأيمان، حديث ٢١١؛ والترمذي كتاب الفتن، حديث ٢١٣٣؛ ومسند أحمد باقى مسند المكثرين، حديث

١١٦٣٢. وزاد فى المصادر كلمة الله مرة ثانية فى نهاية الحديث.

ص: ١٦٢

الأدلة فيها عام، وفيها خاص، وفيها ناسخ، وفيها منسوخ، وفيها مجمل، وفيها مبين، وفيها مطلق، وفيها مقيد، ومنها قطعي الصدور ظني الدلالة، ومنها قطعي الدلالة ظني الصدور، ومنها ظنيهما، ومنها قطعيهما. ومن جهة اختلاف السند: منها صحيح، وضعيف، وحسن، وموثق، وقوي إلى غير ذلك.

فإذا تعارضت الأدلة، فلا بُدَّ من النظر إلى المرجحات: من جهة السند، أو من جهة الدلالة، أو من جهة سبك العبارة، أو من جهة كثرة الرواية، أو من جهة شهرة الفتوى، أو من جهة موافقة الأصول ومخالفتها، أو من جهة موافقة العمومات ومخالفتها، أو من جهة موافقة الكتاب وعدمها، إلى غير ذلك.

فإذا فُقدت المرجحات، وقامت الحيرة، فلا يبقى مدارج إلا على سيرة الأصحاب، وطريقتهم، والنظر إلى ما هم عليه صاغراً عن كابر، وما عليه الأول والآخر.

وما نحن عليه اليوم من طريقة القوم أكثر الروايات موصلة إليه، وطريقة الأصحاب والصحابة مستمرة عليه، وقد ذكرتُ منها قليلاً من كثير ليُعلم حال السلف، ويرتفع الإنكار على خلفهم.

فيا أخى فَوْحَقَّ من رفع السماء، وبسط الأرض على الماء، إِنِّي لَمَّا أَحْبَبْتُكَ لِمَكَارِمِ أَخْلَاقِكَ، وَحَسَنِ سِيرَتِكَ مَعَ النَّاسِ، وَإِرْفَاقِكَ، أَحْشَى عَلَيْكَ مِنْ سَرَايَةِ الْقَدْحِ إِلَى الْمَشَايخِ الْكِبَارِ، وَالْعُلَمَاءِ الْأَبْرَارِ، الَّذِينَ هُمْ لِلشَّارِعِ نَوَابِ، وَلِأَبْوَابِ الشَّرْعِ بَوَابِ، عَصَمْنَا اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ، وَكَفَانَا شَرَّ الْجَهْلِ وَكُفَاكُمْ، وَاللَّهُ الْمَوْقِقُ.

وَأَمَّا الْمَقَاصِدُ فَتَمَانِيَةٌ...

فى العدد القادم

الهوامش:











## علل الحجّ في كتب الشيخ الصدوق

ص: ١٦٨

علل الحجج في كتب الشيخ الصدوق

فارس حسون كريم المقدم

لا يخفى أنّ مكتباتنا الإسلامية- العربية منها والفارسية والأردوية والتركية وغيرها- تدفن في زواياها ثروات علمية هائلة تمثل تراثاً ضخماً ناصعاً ينتظر انتشاله بأيدي مخلصه وفيه لتراثها العبق، وخلال مطالعة لعناوين ذخائر تراثنا نجدتها قد حوت من العلوم والفنون ما يقف الإنسان أمامها منبهراً.

ومن تلك الدقائق الرائقة التي تناولها العلماء بالتأليف والتصنيف: موضوع «العلل»، فكتبوا «علل الشرائع»، و «علل الأشياء»، «علل الأحكام»، «الجامع في العلل»، و....

ومن المؤسف جداً أن نرى بعض هذه الآثار القيمة قد انعدمت بمرور الزمان وعوادي الحداث، ونتيجة غفلة بعض من ليس له إلمام بما ينتج عن ضياعها من خسارة فادحة وعاقبة أليمة.

ولا يسعنا- والحال هذه- إلّا أن نحمد الله على بقاء القسم الأعظم منها محفوظاً سالمًا قد أخطأته يد الدهر، وزاغت عنه أبصار الطواغيت.

ص: ١٦٩

هذا القسم الباقي من تراثنا العظيم كثير منه مخطوط في خزائن الكتب، والاستفادة منه محدودة! وقد ترك لنا الشيخ أبو جعفر بن بابويه الصدوق رضى الله عنه لو حده الكثير من المؤلفات والمصنّفات النافعة والشيقّة ك: «معانى الأخبار»، «الخصال»، «علل الشرائع»، «من لا يحضره الفقيه»، وغيرها. وإضافة إلى ذلك فقد فقد العديد من كتبه المفيدة هذه ولم يصل إلينا منها شيء. ومن هذه المؤلفات المفقودة كتابه «جامع علل الحجّ» الذي ذكره الشيخ آقا بزرك الطهراني في الذريعة (١) قائلاً: «جامع علل الشرائع» للشيخ الصدوق أبي جعفر محمد بن عليّ القميّ، المتوفى ٣٨١ هـ، ذكره النجاشي (٢). ونتيجة لافتقار مكتبتنا الإسلامية لمثل هذا الكتاب بادرت لإحياء كتاب عليّ غراره، معتمداً في عملي هذا على مؤلفات الصدوق نفسه، وبالخصوص منها:

«من لا يحضره الفقيه» و «علل الشرائع»، وقد رغب البعض أن أسميه بنفس تسمية الصدوق، أي: «جامع علل الحجّ» إلّا أنّي امتنعت عن تلبية تلك الرغبة، وذلك لما اعتقده من أنّ كتاب الصدوق هو بلا شكّ بترتيب آخر، أي غير ما رتبناه نحن هنا، ولو أنّ غالب الظنّ أنّ ما أورده رحمه الله في كتابه لا يختلف كثيراً عمّا أورده هنا. وفي الختام أحمدته تعالى أن وفقني لإنجاز عملي هذا، وأسأله تعالى أن يمنّ عليّ مستقبلاً بأن احببني أثراً آخر من آثار هؤلاء الجنازدة، لاسيّما وأنّ في إحياء آثارهم حياة الدين والامة، وامتداداً لحياة القرآن الكريم والسنة الشريفة وآثار المعصومين عليهم السلام.

١-١ الذريعة ٥: ٦٣ رقم ٢٤٥.

٢-٢ رجال النجاشي: ٣٨٩.

ص: ١٧٠

(١)

أبواب علل الأسماء

١- باب علّة تسمية مكّة

١- عن محمد بن سنان: أن أبا الحسن الرضا عليه السلام كتب إليه في ما كتب من جواب مسأله: سميت مكّة مكّة، لأنّ الناس كانوا يمكّون فيها، وكان يقال لمن قصدها: قد مكّا، وذلك قول الله عزّوجلّ: وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَضْدِيَةً (١) فالمكّاء: التصغير، والتضدية: صفق اليدين (٢).

٢- وسئل أمير المؤمنين عليه السلام: لم سميت مكّة؟ قال عليه السلام: لأنّ الله تعالى مكّ الأرض من تحتها- أي دحاها- (٣).  
٢- باب علّة تسمية بكّة

١- عن العزمي، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: إنّما سميت مكّة بكّة لأنّ الناس يتباكون فيها (٤).

٢- وسئل أمير المؤمنين عليه السلام: فلم سميت بكّة؟ قال: لأنّها بكت رقاب الجبارين وأعناق المذنبين (٥).

٣- عن عبد الله بن سنان، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام: لم سميت الكعبة بكّة؟

فقال: لبكاء الناس حولها وفيها (٦).

٣- عن سعيد بن عبد الله الأعرج، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: موضع البيت بكّة (٧)، والقرية مكّة (٨). (٩) ٤- عن الفضيل، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: إنّما سميت مكّة بكّة لأنّه يبكّ بها الرجال والنساء، والمرأة تصلّي بين يديك وعن يمينك وعن شمالك وعن يسارك ومعك، ولا بأس بذلك، إنّما يكره في سائر البلدان (١٠).

١- ١ سورة الأنفال: ٣٥.

٢- ٢ علل الشرائع: ٣٩٧ ب ١٣٦ ح ١، عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٩٠، بحار الأنوار ٩٩: ٧٧ ح ٦.

٣- ٣ إرشاد القلوب: ٣٧٧، المحتضر: ٨٨، مشارق أنوار اليقين: ٨٤، بحار الأنوار ١٠: ١٢٧ ضمن ح ٦، و ٥٧: ٦٤ ح ٣٧ وص ٢٣٢ وص ٣٣٧ ضمن ح ٢٧، و ٩٩: ٨٥ ح ٤٥.

٤- ٤ علل الشرائع: ٣٩٧ ب ١٣٧ ح ١، بحار الأنوار ٩٩: ٧٨ ح ٧، تفسير البرهان ١: ٦٥٧ ح ١٠.

٥- ٥ المحتضر: ٨٨، مشارق أنوار اليقين: ٨٤، إرشاد القلوب: ٣٧٧، بحار الأنوار ١٠: ١٢٧ ضمن ح ٦، و ٥٧: ٢٣٢ وص ٣٣٧ ضمن ح ٢٧، و ٩٩: ٨٥ ح ٤٥.

٦- ٦ من لا يحضره الفقيه ٢: ١٩٣ ح ٢١١٩، علل الشرائع: ٣٩٧ ب ١٣٧ ح ٢، روضة المتّقين ٤: ١٧، بحار الأنوار ٩٩: ٧٨ ح ٨، تفسير البرهان ١: ٦٥٧ ح ١١.

٧- ٧ ويؤيده قوله تعالى في سورة آل عمران: ٩٦ إنّ أول بيت وضع للناس للذي ببكّة.

٨- ٨ روى الكليني في الكافي ٤: ٢١٠ ح ١٧ و ٢١١ ح ١٨ عنه بحار الأنوار ١٥: ١٧٠ ح ٩٧ بالإسناد إلى أبي بصير، عن أبي جعفر عليه السلام قال: لم يزل بنو إسماعيل ولأه البيت، يقيمون للناس حجّهم وأمر دينهم، يتوارثونه كابر عن كابر حتّى كان زمن عدنان بن ادد، فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وأفسدوا وأحدثوا في دينهم، وأخرج بعضهم بعضاً، فمنهم من خرج في طلب المعيشة، ومنهم من خرج كراهية القتال وفي أيديهم أشياء كثيرة من الحنيفة من تحريم الأمهات والبنات، وما حرّم الله في النكاح، إلّا أنّهم كانوا يستحلّون



امراه الأب وابنه الاخت والجمع بين الاختين، وكان في أيديهم الحج والتلبية والغسل من الجنابة، إلما أحدثوا في تلبيتهم وفي حجهم من الشرك، وكان فيما بين إسماعيل وعدنان بن ادد موسى عليه السلام.

وروى أن معد بن عدنان خاف أن يدرس الحرم فوضع أنصابه، وكان أول من وضعها، ثم غلبت جرهم على ولاية البيت، فكان يلي منهم كابر عن كابر حتى بغت جرهم بمكة، واستحلوا حرمتها، وأكلوا مال الكعبة، وظلموا من دخل مكة، وعتوا وبغوا، وكانت مكة في الجاهلية لا يظلم ولا يبغى فيها ولا يستحل حرمتها ملك إلاهلك مكانه....

فلما بغت جرهم واستحلوا فيها بعث الله عزوجل عليهم الرعاف والنمل وأفناهم، فغلبت خزاعة واجتمعت ليجلوا من بقي من جرهم عن الحرم ورئيس خزاعة عمرو بن ربيعة بن حارثة بن عمرو ورئيس جرهم عمرو بن الحارث بن مصاص الجرهمي، فهزمت خزاعة جرهم، وخرج من بقي من جرهم إلى أرض من أرض جهينة، فجاءهم سيل أتى فذهب بهم، ووليت خزاعة البيت، فلم يزل في أيديهم حتى جاء قصي بن كلاب وأخرج خزاعة من الحرم وولى البيت وغلب عليه.

٩-٩ من لا يحضره الفقيه ٢: ١٩٣ ضمن ح ٢١١٩، علل الشرائع: ٣٩٧ ح ٣، روضة المتقين ٤: ١٧، بحار الأنوار ٩٩: ٧٨ ح ٩، تفسير البرهان ١: ٦٥٧ ح ١٢.

١٠-١٠ علل الشرائع: ٣٩٧ ح ٤، بحار الأنوار ٨٣: ٣٣٤ ح ٢، و ٩٩: ٧٨ ح ١٣، تفسير البرهان ١: ٦٥٧ ح ١٣.

ص: ١٧١

- ٥- عن عبيدالله بن عليّ الحلبيّ، قال: سألت أبا عبدالله عليه السلام: لِمَ سَمِّيت مَكَّةُ بَكَّةً؟ قال: لأنَّ الناس يبيك بعضهم بعضاً فيها بالأيدى (١). (٢) ٦- عن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: إنَّ بَكَّةَ موضع البيت، وإنَّ مَكَّةَ الحرم، وذلك قوله: وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا (٣).
- (٤) ٧- عن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: إنَّ بَكَّةَ موضع البيت، وإنَّ مَكَّةَ جميع ما اكتنفه الحرم (٥).
- ٨- عن عبدالله بن سنان، عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: مَكَّةُ جملة القرية، وبَكَّةُ موضع الحَجْر الذي يبيك الناس بعضهم بعضاً (٦).
- ٩- سئل عليّ عليه السلام: أين بَكَّةُ من مَكَّةُ؟ قال عليّ عليه السلام: مَكَّةُ أكناف الحرم، وبَكَّةُ موضع البيت (٧).
- ١٠- عن معاوية بن عمّار، قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: أقوم أصلي والمرأة جالسة بين يدي أو مازة؟ فقال عليه السلام: لا بأس، إنّما سَمِّيت بَكَّةً، لأنّه يبيك فيها الرجال والنساء (٨).
- ١١- وكانت تسمّى بَكَّةً؛ لأنها تبيك أعناق الباغين إذا بغوا فيها (٩).
- ١٢- عن علي بن جعفر بن محمد، عن أخيه موسى عليه السلام، قال: سألته عن مَكَّةَ لِمَ سَمِّيت بَكَّةً؟ قال: لأنَّ الناس يبيك بعضهم بعضاً بالأيدى - يعني يدفع بعضهم بعضاً بالأيدى في المسجد (١٠) حول الكعبة (١١).
- ٣- باب علّة تسمية أمّ القرى
- ١- سأل الشامي أمير المؤمنين عليه السلام: لِمَ سَمِّيت مَكَّةُ أمّ القرى؟ قال عليه السلام: لأنَّ الأرض دحيت من تحتها (١٢).
- ٢- سَمِّيت مَكَّةُ أمّ القرى؛ لأنها أوّل بقعة خلقها الله من الأرض، لقوله: إنَّ

١- أي يزدحم أو يدقّ أو يدفع بعضهم بعضاً بالأيدى.

- ٢- ٢ المحاسن للبرقي ٢: ٦٦ ح ١١٣، تفسير العيّاشي ١: ١٨٧ ح ٩٥، من لا يحضره الفقيه ٢: ١٩٣ ح ٢١١٨، علل الشرائع: ٣٩٨ ح ٥، روضة المتّقين ٤: ١٧، بحار الأنوار ٩٩: ٧٧ ح ٣ و ٤ وص ٧٩ ح ١٤-١٦، تفسير البرهان ١: ٦٥٧ ح ١٤ وص ٦٥٩ ح ٢٢.
- ٣- ٣ سورة آل عمران: ٩٧.
- ٤- ٤ تفسير العيّاشي ١: ١٨٧ ح ٩٤، بحار الأنوار ٩٩: ٧٨ ح ١٠، تفسير البرهان ١: ٦٥٩ ح ٢١.
- ٥- ٥ تفسير العيّاشي ١: ١٨٧ ح ٩٦، بحار الأنوار ٩٩: ٧٨ ح ١١، تفسير البرهان ١: ٦٥٩ ح ٢٣.
- ٦- ٦ تفسير العيّاشي ١: ١٨٧ ح ٩٣، بحار الأنوار ٩٩: ٧٨ ح ١٢، تفسير البرهان ١: ٦٥٩ ح ٢٠.
- ٧- ٧ إرشاد القلوب: ٣٧٧، بحار الأنوار ٩٩: ٨٥ ح ٤٥.
- ٨- ٨ المحاسن ٢: ٦٦ ح ١١٦، الكافي ٤: ٥٢٦ ح ٧، بحار الأنوار ٨٣: ٢٩٨ ح ٦ وص ٣٣٤ ح ٣، و ٩٩: ٨٣ ح ٤٠، تفسير البرهان ١: ٦٥٥ ح ٣.
- ٩- ٩ الكافي ٤: ٢١١ ضمن ح ١٨.
- ١٠- ١٠ في القرب: ولا يكون إلّافي المسجد.
- ١١- ١١ قرب الإسناد: ٢٣٧ ح ٩٢٩، تفسير العيّاشي ١: ١٨٧ ح ٩٨، تفسير البرهان ١: ٦٥٩ ح ٢٥.

١٢-١٢ عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢٤١، علل الشرائع: ٥٩٣ ح ٤٤، بحار الأنوار ١٠: ٧٦، و ٧٥: ٦٤ صدر ح ٣٦، و ٩٩: ٧٩ ح

.١٧

ص: ١٧٢

أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بَيْنَكَ مَبَارَكًا (١)

(٢) ٤- باب علّة تسمية الباسّة أو البسّاسة

١- وتسمّى بسّاسة كانوا إذا ظلموا فيها بسّتهم وأهلكتهم (٣).

٢- عن معاوية بن عمّار، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: أسماء مكّة خمسة: أم القرى، ومكّة، وبكّة، والبسّاسة- كانوا إذا ظلموا بها

بسّتهم أى أخرجتهم وأهلكتهم-.... (٤).

٣- وفى حديث مجاهد: «من أسماء مكّة الباسّة» سميت بها لأنّها تحطم من أخطأ فيها (٥).

٥- باب علّة تسمية الناسّة أو النسّاسة

١- وكانت العرب تسمّى مكّة الناسّة؛ لأنّ من بغى فيها أو أحدث حدثاً أخرج منها، فكأثّها ساقته ودفعته عنها (٦).

٢- الناسّة والنسّاسة: مكّة؛ سميت لقلّة الماء بها إذ ذاك، أو لأنّ من بغى فيها ساقته- أى أخرج عنها- (٧).

٦- باب علّة تسمية أمّ رُحْم

١- وتسمّى أمّ رُحْم كانوا إذا لزموها رُجِموا (٨).

٢- ومنه حديث مكّة، هى أمّ رحم- أى أصل الرحمة- (٩).

٧- باب علّة تسمية الكعبة

١- عن الحسن بن عبد الله، عن آبائه، عن جدّه الحسن بن عليّ بن أبى طالب عليهم السلام، قال: جاء نفر من اليهود إلى رسول الله

صلى الله عليه وآله فسألوه عن أشياء؛ فكان فيما سألوه عنه أن قال له أحدهم: لأى شىء سميت الكعبة كعبة؟

فقال النّبىّ صلى الله عليه وآله: لأنّها وسط الدنيا (١٠). (١١) ٢- وروى عن الصادق عليه السلام أنه سُئل: لِمَ سميت الكعبة كعبة؟

قال: لأنّها مربّعة.

١- ١ سورة آل عمران: ٩٦.

٢- ٢ تفسير القمى ٢: ٢٦٨، بحار الأنوار ٥٧: ٦٤ ح ٣٥، و ٩٩: ٧٦ ح ١.

٣- ٣ الكافى ٤: ٢١١ ضمن ح ١٨.

٤- ٤ الخصال: ٢٧٨ ح ٢٢، بحار الأنوار ٩٩: ٧٧ ح ٥.

٥- ٥ النهاية لابن الأثير ١: ١٢٧- بسس-، لسان العرب ٦: ٢٧- بسس-.

وقال الفيروز آبادى فى القاموس المحيط ٢: ٢٠١: الباسّة والبسّاسة: مكّة شرفها الله تعالى.

٦- ٦ النهاية لابن الأثير ٥: ٤٧- نسس-، لسان العرب ٦: ٢٣١- نسس-.

٧- ٧ القاموس المحيط ٢: ٢٥٤- نسس-.

وقال الصحاح بن عباد فى المحيط فى اللغة ٨: ٢٥١: والنسّاسة من أسماء مكّة، وهى الناسّة أيضاً.

وقال الجوهريّ فى الصحاح ٣: ٩٨٣: ويقال لمكّة الناسّة لقلّة الماء بها.

وقال ابن منظور فى لسان العرب ٦: ٢٣١: الناسّة والنسّاسة- الأخيرة عن ثعلب- من أسماء مكّة لقلّة مائها.

٨- ٨ الكافى ٤: ٢١١ ضمن ح ١٨، الخصال: ٢٧٨ ح ٢٢، بحار الأنوار ٩٩: ٧٧ ح ٥.

٩-٩ النهاية لابن الأثير ٢: ٢١٠-رحم.-

وقال ابن منظور في لسان العرب ١٢: ٢٣٢: أم رُحْم وأم الرُّحْم: مكَّة... والمرحومة: من أسماء مدينة سيدنا رسول الله صلى الله عليه و آله.

وكذا قال الفيروز آبادي في القاموس المحيط ٤: ١١٨-رحم.-

١٠-١٠ أى مرتفعه شرفاً وصورة في وسطها بالنظر إلى المشرق والمغربى.

١١-١١ من لا يحضره الفقيه ٢: ١٩٠ ح ٢١٠٩، الأمالى للصدوق: ٢٥٥ ضمن ح ١، علل الشرائع: ٣٩٨ ب ١٣٨ ح ١، روضة المتقين ٤:

٣، بحار الأنوار ٩: ٢٩٤ ح ٥، و ٩٩: ٥٧ ح ٨.

ص: ١٧٣

ف قيل له: ولِمَ صارت مَرَبَعَةً؟

قال: لأنها بحذاء البيت المعمور، وهو مَرَبَعٌ.

ف قيل له: ولِمَ صار البيت المعمور مَرَبَعاً؟

قال: لأنه بحذاء العرش، وهو مَرَبَعٌ.

ف قيل له: ولِمَ صار العرش مَرَبَعاً؟

قال: لأنّ الكلمات التي بُني عليها الإسلام أربع؛ وهي: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر (١). (٢) ٣- وفي حديث فَيْلَةَ:

«والله لا- يزال كَعْبِيكَ عالياً» هو دعاء لها بالشرف والعلو. والأصل فيه كعب القنأ، وهو انبوبها وما بين كل عُقْصَتَيْنِ منها كعب. وكلّ

شياء علا وارتفع فهو كعب. ومنه سُمِّيَت الكعبة للبيت الحرام؛ وقيل: سُمِّيَت به لتكعيبها، أي تربيعها (٣).

٨- باب علّة تسمية بيت الله الحرام

١- عن حنان، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: لِمَ سُمِّيَ بيت الله الحرام؟

قال: لأنه حرّم على المشركين أن يدخلوه (٤). (٥) ٩- باب علّة تسمية البيت العتيق

١- عن أبي خديجة (٦)، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: قلت له: لِمَ سُمِّيَ البيت العتيق؟

قال: إنّ الله عزّ وجلّ أنزل الحجر الأسود لآدم من الجنّة، وكان البيت درّة بيضاء، فرفعه الله إلى السماء وبقي الله فهو بحيال هذا البيت،

يدخله كلّ يوم سبعون ألف ملك لا يرجعون إليه أبداً، فأمر الله إبراهيم وإسماعيل بينان البيت على القواعد، وإنما سُمِّيَ البيت العتيق؛

لأنّه اعتق من الغرق (٧). (٨) ٢- عن أبي حمزة الثماليّ، قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام في المسجد الحرام: لأيّ شيء سمّاه الله

العتيق؟

١- ١ قال المولى محمد تقى المجلسى:.... ويمكن أن يكون العرش هنا بمعنى العلم، وتكون المحاذاة معنويّة كما يظهر من قوله عليه

السلام: «صار العرش - إلى قوله - أربع» لأنّ كلمة «سبحان الله!» تدلّ على الصفات التنزيهيّة الجلالية، و«الحمد لله» تدلّ على الصفات

الجمالية، لأنّه يدلّ على أنّ جميع المحامد والإثنيّة مختصّة به تعالى، فيدلّ على أنّ جميع الكمالات له وهو مستحقّ لأن يعبد بجميع

أنواع العبادات، فيدلّ على جميع التكليف، وكلمة التوحيد تدلّ على أنّه واجب الوجود بالذات، وعلى وحدته تعالى بل على جميع

صفات الجلال والإكرام، ومستحقّ لأن لا يشرك به أحد بالشرك الجليّ والخفيّ، وكذا التكبير مع دلالاته على أنّ ذاته تعالى أعلى

وأرفع من أن تصل إليه العقول والأفهام، فظهر أنّ جميع العلوم مندرجّة فيها فتكون المحاذاة للعرش الذي بمعنى العلم من حيث الدلالة

عليه.

٢- ٢ من لا يحضره الفقيه ٢: ١٩٠ ح ٢١١٠، علل الشرائع: ٣٩٨ ب ١٣٨ ح ٢، روضة المتّقين ٤: ٣، بحار الأنوار ٥٨: ٥ ح ٢، و ٩٩: ٥٧

ح ٩.

٣- ٣ الغريبين للهرويّ: ٨٤٢- كعب-، النهاية لابن الأثير ٤: ١٧٩- كعب-.

وقال الصاحب بن عباد في المحيط في اللغة ١: ٢٣١: ويقال: كعبة البيت الحرام: تربّع أعلاه.

٤- ٤ وقيل: لاحترامه وحرمة القتال في الأشهر الحرم لأجله.

٥- ٥ من لا يحضره الفقيه ٢: ١٩١ ح ٢١١١، علل الشرائع: ٣٩٨ ب ١٣٩ ح ١، روضة المتّقين ٤: ٤، بحار الأنوار ٩٩: ٥٩ ح ٢٠.

- ٦-٦ هو: أبو سلمة سالم بن مكرم بن عبدالله، مولى بني أسد. «رجال النجاشي: ١٨٨ رقم ٥٠١».
- ٧-٧ وذلك في طوفان نوح عليه السلام ولم يقربه الماء كما في حائر الحسين صلوات الله عليه.
- ٨-٨ الكافي ٤: ١٨٨ ح ٢، من لا يحضره الفقيه ٢: ١٩١ ح ٢١١٢، علل الشرائع: ٣٩٨ ب ١٤٠ ح ١، روضة المتقين ٤: ٤، بحار الأنوار ٥٨: ٥٧ ح ٢، و ٩٩: ٥٨ ح ١٢، مرآة العقول ١٧: ١٠ ح ٢.

ص: ١٧٤

قال: ليس من بيت وضعه الله على وجه الأرض إله ربّ وسكان يسكنونه غير هذا البيت، فإنه لا يسكنه أحد ولا ربّ له إلا الله وهو الحرام، وقال: إن الله خلقه قبل الخلق، ثم خلق الله الأرض من بعده فدحاها من تحته (١).

٣- عن أبان بن عثمان، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: قلت له: لم سمي البيت العتيق؟ قال: لأنه بيت حرّ عتيق من الناس، ولم يملكه أحد (٢).

٤- عن سعيد الأعرج، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: إنما سمي البيت العتيق؛ لأنه اعتق من الغرق واعتق الحرم معه، كفّ عنه الماء (٣).

٥- عن ذريح بن يزيد المحاربي، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الله عزّ وجلّ أغرق الأرض كلها يوم نوح عليه السلام إلا البيت، فيومئذ سمي العتيق؛ لأنه اعتق يومئذ من الغرق. فقلت له: أصدد إلى السماء؟

فقال: لا، لم يصل إليه الماء ورفع عنه (٤).

١٠- باب علّة تسمية الحطيم

١- عن معاوية بن عمّار، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الحطيم، فقال: هو ما بين الحجر الأسود وباب البيت. قال: وسألته: لم سمي الحطيم؟

قال: لأنّ الناس يحطم بعضهم بعضاً هنالك (٥).

٢- وفي حديث توبه كعب بن مالك: «إذن يحطمكم الناس»: أي يدوسونكم ويزدحمون عليكم. ومنه سمي حطيم مكّة، وهو ما بين الركن والباب.

وقيل: هو الحجر المخرج منها، سمي به؛ لأنّ البيت رُفِع وتُرك هو محطوماً.

وقيل: لأنّ العرب كانت تطرح فيه ما طافت به من الثياب فتبقى حتى تنحطم

١- ١ الكافي ٤: ١٨٩ ح ٥، علل الشرائع: ٣٩٩ ح ٢، روضة المتّقين ٤: ٤، بحار الأنوار ٥٧: ٦٤ ح ٤٠، و ٩٩: ٥٨ ح ١٣، مرآة العقول ١٧: ١١ ح ٥.

٢- ٢ المحاسن ٢: ٦٦ ح ١١٤، الكافي ٤: ١٨٩ ح ٦، من لا يحضره الفقيه ٢: ١٩١ ح ٢١١٣، علل الشرائع: ٣٩٩ ح ٣، روضة المتّقين ٤: ٥، وسائل الشيعة ١٣: ٢٤١ ح ١٣، بحار الأنوار ٩٩: ٥٨ ح ١٦ وص ٥٩ ح ١٧، مرآة العقول ١٧: ١٢ ح ٦.

٣- ٣ المحاسن ٢: ٦٦ ح ١١٢، علل الشرائع: ٣٩٩ ح ٤، بحار الأنوار ٩٩: ٥٩ ح ١٨ و ١٩.

٤- ٤ علل الشرائع: ٣٩٩ ح ٥، قصص الأنبياء للراوندي: ٨٣ ح ٧٣، بحار الأنوار ١١: ٣٢٥ ح ٤٣، و ٩٩: ٥٨ ح ١٤ و ١٥.

٥- ٥ الكافي ٤: ٥٢٧ ح ١٢، من لا يحضره الفقيه ٢: ١٩٢ صدر ح ٢١١٥، علل الشرائع: ٤٠٠ ب ١٤١ ح ١، تهذيب الأحكام ٥: ٤٥١ ح ٢٢١، روضة المتّقين ٤: ١٣، وسائل الشيعة ٥: ٢٧٤ ح ٦، بحار الأنوار ٩٩: ٢٢٩ ح ٢، مرآة العقول ١٨: ٢٢٤ ح ١٢، ملاذ الأخيار ٨: ٤٨٩ ح ٢٢١.



ص: ١٧٥

بطول الزمان... (١).

١١- باب علّة تسمية الحجّ (٢)

١- عن أبان بن عثمان، عمّن أخبره، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: قلت له: لِمَ سَمِيَ الحجّ حجّاً؟ قال: الحجّ الفلاح.

يقال: حجّ فلان أى أفلح فلان (٣).

١٢- باب علّة تسمية الصفا والمروة

١- عن عبد الحميد بن أبي ديلم، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: سَمِيَ الصفا صفاً؛ لأنّ المصطفى آدم عليه السلام هبط عليه، فقطع (٤) للجبل اسم من اسم آدم عليه السلام، يقول الله تعالى: إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٥) وهبطت حواء على المروة، وإتّما سمّيت المروة؛ لأنّ المرأة هبطت عليها، فقطع للجبل اسم من اسم المرأة (٦).

١٣- باب علّة تسمية يوم التروية

١- عن عبيد الله بن عليّ الحلبيّ، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: سألته: لِمَ سَمِيَ يوم التروية يوم التروية؟ قال: لأنّه لم يكن بعرفات ماء، وكانوا يستقون من مكّة من الماء لريهم، وكان يقول بعضهم لبعض: ترويتم ترويتم، فسَمِيَ يوم التروية لذلك (٧).

٢- عن معاوية بن عمّار، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: سمّيت التروية؛ لأنّ جبرئيل عليه السلام أتى إبراهيم عليه السلام يوم التروية، فقال: يا إبراهيم، ارتو من الماء ولأهلك، ولم يكن بين مكّة وعرفات ماء... (٨).

٣- فى حديث ابن عمر: «كان يلبى بالحجّ يوم التروية» هو اليوم الثامن من ذى الحجّة، سَمِيَ به؛ لأنهم كانوا يرتوون فيه من الماء لما بعده: أى يَسْقُونَ وَيَسْتَقُونَ (٩).

١- ١ النهاية لابن الأثير ١: ٤٠٣.

٢- ٢ لقد ذكر أمير المؤمنين عليّ عليه السلام الحجّ وفضله فى إحدى خطبه فى نهج البلاغة: ٤٥ قائلاً:

وفرض عليكم حجّ بيته الحرام، الذى جعله قبله للأنام، يردونه وروود الأنعام، ويألهون إليه وُلوه الحمام، وجعله سبحانه علامةً لتواضعهم لعظمته، وإذعانهم لعزّته، واختار من خلقه سمّاً أجابوا إليه دعوته، وصدّقوا كلمته، ووقفوا مواقف أنبيائه، وتشبّهوا بملائكته المطيفين بعرشه، يُحرزون الأرباح فى متجر عبادته، ويتبادرون عنده موعد مغفرتة، جعله سبحانه وتعالى للإسلام علماً، وللعاثدين حرماً، فرض حقّه، وأوجب حجّه، وكتب عليكم وفادته، فقال سبحانه: ولله على الناس حجّ البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإنّ الله غنى عن العالمين [سورة آل عمران: ٩٧].

٣- ٣ علل الشرائع: ٤١١ ب ١٤٨ ح ١، معانى الأخبار: ١٧٠ ح ١، بحار الأنوار ٩٩: ٢ ح ١ و ٢.

٤- ٤ قال المولى محمد تقى المجلسى رحمه الله: قطع: أى اشتقّ. والمناسبة بين الصفا والمصطفى ظاهرة. وأمّا المناسبة بين المروة والمرأة يمكن أن تكون لفظية أو بإبدال الهمزة واواً، والأوّل أظهر. والمروة لغّة: حجر أبيض براق.

٥- ٥ سورة آل عمران: ٣٣.

٦- ٦ المحاسن للبرقى ٢: ٦٥ ح ١٠٩، الكافي ٤: ١٩٠ ح ١، من لا يحضره الفقيه ٢: ١٩٥ ذ ح ٢١٢١، علل الشرائع: ٤٣١ ب ١٦٥ ح ١،

- روضه المتقين ٤: ٢٣، بحار الأنوار ١١: ١٩٤ ح ٤٨ وص ٢٠٥ ح ٦، و ٩٩: ٤٤ ضمن ح ٣١ وص ٢٣٣ ح ٢، مرآة العقول ١٧: ١٣ ح ١.
- ٧-٧ المحاسن للبرقي ٢: ٥٦ ذ ح ٩٣ وص ٦٥ ح ١١١، من لا يحضره الفقيه ٢: ١٩٦ صدر ح ٢١٢٥، علل الشرائع: ٤٣٥ ب ١٧١ ح ١، مستطرفات السرائر: ٣٥ ح ٤٥، روضه المتقين ٤: ٢٧، بحار الأنوار ٩٩: ٤٣ ذ ح ٢٩ وص ٢٥٤ ح ١٩ و ٢٠.
- ٨-٨ المحاسن ٢: ٦٥ ح ١١٠، بحار الأنوار ٩٩: ٤٤ ح ٣٢.
- ٩-٩ النهاية لابن الأثير ٢: ٢٨٠.

ص: ١٧٦

١٤- باب علّة تسمية منى

١- عن معاوية بن عمّار، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: إن جبرئيل أتى إبراهيم عليه السلام، فقال: تمنّ، يا إبراهيم. فكانت تسمى منى، فسماها الناس منى (١).

٢- عن محمد بن سنان أن أبا الحسن الرضا عليه السلام كتب إليه العلّة التي من أجلها سميت منى منى أن جبرئيل عليه السلام قال هناك: يا إبراهيم، تمنّ على ربّك ما شئت، فتمنّى إبراهيم في نفسه أن يجعل الله مكان ابنه إسماعيل كبشاً يأمره بذبحه فداءً له، فاعطى مناه (٢).

٣- منى بمكّة... سميت بذلك لما يُمنى فيها من الدماء أى يُراق، وقال ثعلب:

هو من قولهم: منى الله عليه الموت أى قدره، لأنّ الهدى يُنحر هنالك... قال ابن شميل: سمى منى لأنّ الكبش يُمنى به أى ذبح. وقال ابن عيينة: اخذ من المنايا (٣).

٤- ابن عباس: لأنّ جبرئيل عليه السلام لما أراد أن يفارق آدم قال له: تمنّ.

قال: أتمنى الجنّة، فسميت منى لأمّتيه آدم (٤).

٥- ومنى مكّة سميت؛ لأنّها تتسع للناس، وقيل: لأنّها يُمنى فيها للأضاحى الذّبح: أى يُقدّر (٥).

١٥- باب علّة تسمية عرفات

١- عن معاوية بن عمّار، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن عرفات لِم سميت عرفات؟

فقال: إن جبرئيل عليه السلام خرج بإبراهيم صلوات الله عليه يوم عرفه، فلمّا زالت الشمس، قال له جبرئيل: يا إبراهيم، اعترف بذنبك واعرف مناسكك، فسميت عرفات لقول جبرئيل عليه السلام: اعترف، فاعترف (٦).

٢- عن عبد الحميد بن أبي الديلم، عن أبي عبد الله عليه السلام: - في حديث طويل - قال: ثم انطلق به إلى عرفات فأقامه على العرف، وقال له: إذا غربت الشمس فاعترف بذنبك سبع مرّات، ففعل ذلك آدم عليه السلام، ولذلك سمى المعرف لأنّ آدم

١- ١ من لا يحضره الفقيه ٢: ١٩٧ ح ٢١٢٦، علل الشرائع: ٤٣٥ ب ١٧٢ ح ١، روضة المتّقين ٤: ٢٨، بحار الأنوار ١٢: ١٠٨ ح ٢٥، و ٩٩: ٢٧١ ح ١.

٢- ٢ من لا يحضره الفقيه ٢: ١٩٧ ح ٢١٢٧، عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ٩١، علل الشرائع: ٤٣٥ ب ١٧٢ ح ٢، روضة المتّقين ٤: ٢٩، بحار الأنوار ٦: ٩٧، و ١٢: ١٠٨ ح ٢٦، و ٩٩: ٢٧٢ ح ٤.

٣- ٣ لسان العرب ١٥: ٢٩٣-٢٩٤- منى.

٤- ٤ القاموس المحيط ٤: ٣٩٢- منى.

٥- ٥ المحيط في اللّغة ١٠: ٤١٧- منى.

٦- ٦ المحاسن للبرقي ٢: ٦٤ ح ١٠٨ وص ٦٥ ضمن ح ١١٠، من لا يحضره الفقيه ٢: ١٩٦ ضمن ح ٢١٢٥، علل الشرائع: ٤٣٦ ب ١٧٣ ح ١، روضة المتّقين ٤: ٢٧، بحار الأنوار ١٢: ١٠٨ ح ٢٧، و ٩٩: ٤٤ ضمن ح ٣٢ وص ٢٥٣ ح ١٧ و ١٨.

ص: ١٧٧

اعترف عليه بذنبه (١).

٣- سميت لأنَّ آدم وحواء عليهما السلام تعارفا بها.

أو لقول جبرئيل لإبراهيم عليهما السلام لما علمه المناسك: أعرفت؟ قال: عرفت.

أو لأنها مقدسه معظمه كأنها عرفت أي طيبت (٢).

٤- عن عبد الحميد بن أبي الديلم، عن أبي عبد الله عليه السلام- في حديث يأتي (٣)- قال: ... ثم انطلق به (٤) إلى عرفات فأقامه على العرفة، وقال له: إذا غربت الشمس فاعترف بذنبك سبع مرّات، ففعل ذلك آدم عليه السلام؛ ولذلك سمى العرفة؛ لأنَّ آدم عليه السلام اعترف عليه بذنبه، فجعل ذلك سنّه في ولده يعترفون بذنوبهم كما اعترف أبوهم، ويسألون الله عزّ وجلّ التوبة كما سألها أبوهم آدم عليه السلام (٥).

١٦- باب علّة تسمية الخيف (٦)

١- عن معاوية بن عمّار، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: قلت له: لِمَ سمى الخيف خيفاً؟

قال: إنّما سمى الخيف؛ لأنه مرتفع عن الوادي، وكلّ ما ارتفع عن الوادي سمى خيفاً (٧).

باب علّة تسمية المزدلفة

١- عن معاوية بن عمّار، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: في حديث إبراهيم عليه السلام: إنّ جبرئيل عليه السلام انتهى به إلى الموقف، فأقام به حتّى غربت الشمس، ثم أفاض به، فقال: يا إبراهيم، ازدلف إلى المشعر الحرام، فسميت مزدلفة (٨).

٢- عن معاوية بن عمّار، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: إنّما سميت مزدلفة؛ لأنّهم ازدلفوا إليها من عرفات (٩).

٣- والمزدلفة موضع بين عرفات ومنى؛ لأنه يتقرّب فيها إلى الله تعالى (١٠).

أو لاقتراب الناس إلى منى بعد الإفاضة (١١).

أو لمجيء الناس إليها في زلفٍ من الليل.

١- ١ علل الشرائع: ٤٠٠ ب ١٤٢ ح ١.

ويأتي الحديث كاملاً مع تخريجاته في أبواب ٢ باب ٥ ح ١.

٢- ٢ القاموس المحيط ٣: ١٧٣- عرف-.

٣- ٣ يأتي في باب علّة وجوب الحجّ والطواف بالبيت وجميع المناسك.

٤- ٤ المراد أنّ جبرئيل انطلق بآدم عليهما السلام.

٥- ٥ علل الشرائع: ٤٠٠ ب ١٤٢ ضمن ح ١، بحار الأنوار ١١: ١٦٧-١٦٨ ضمن ح ١٥، و ٩٩: ٣٠ ضمن ح ٥.

٦- ٦ هو الموضوع الذي فيه المسجد.

قال ابن الأثير في النهاية ٢: ٩٣: الخيف: ما ارتفع عن مجرى السيل وانحدر عن غلظ الجبل. ومسجد منى يسمى مسجد الخيف؛ لأنه في سفح جبلها.

٧- ٧ المحاسن للبرقي ٢: ٧١ ح ١٢٨، من لا يحضره الفقيه ٢: ١٩٧ ح ٢١٢٨، علل الشرائع: ٤٣٦ ب ١٧٤ ح ١، روضة المتقين ٤: ٢٩،

بحار الأنوار ٩٩: ٢٧١ ح ٢ و ٢٧٢ ح ٣.

- ٨-٨ من لا يحضره الفقيه ٢: ١٩٦ ضمن ح ٢١٢٥، علل الشرائع: ٤٣٦ ب ١٧٥ ح ١، روضة الممتقين ٤: ٢٨، بحار الأنوار ٩٩: ٢٦٦ ح ١.
- ٩-٩ علل الشرائع: ٤٣٦ ب ١٧٥ ح ١، روضة الممتقين ٤: ٢٨، بحار الأنوار ٩٩: ٢٦٦ ح ٢.
- ١٠-١٠ النهاية لابن الأثير ٢: ٣١٠- زلف-.
- ١١-١١ المحيط في اللغة ٩: ٥٦- زلف-.

ص: ١٧٨

أو لأنها أرض مستوية مكنوسه، وهذا أقرب (١).

١٨- باب علة تسمية المزدلفة «جَمْعاً»

١- عن عبد الحميد بن أبي الديلم، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: سميت المزدلفة جمعاً؛ لأن آدم عليه السلام جمع فيها بين الصلاتين: المغرب والعشاء (٢).

٢- قال الصدوق: قال أبي رضى الله عنه في رسالته إلى: إنما سميت المزدلفة جمعاً؛ لأنه يجمع فيها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين.

٣- ويقال أيضاً للمزدلفة: جَمْعٌ، لاجتماع الناس فيها (٣).

٤- جَمْعٌ: عَلَمٌ للمزدلفة، سميت به لأن آدم وحواء عليهما السلام اجتمعا بها (٤).

٥- عن عبد الحميد بن أبي الديلم، عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث يأتي (٥)- قال: ثم انتهى به (٦) إلى جمع ثلث الليل فجمع فيها بين صلاة المغرب وبين صلاة العشاء الآخرة؛ فلذلك سمى جمعاً؛ لأن آدم جمع فيها بين صلاتين، فوقت العتمة في تلك الليلة ثلث الليل في ذلك الموضع (٧).

١٩- باب علة تسمية الحج الأكبر

١- عن حفص بن غياث النخعي القاضى، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله تعالى: وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ (٨)

فقال:

قال أمير المؤمنين عليه السلام: كنت أنا الأذان (٩) في الناس.

قلت: فما معنى هذه اللفظة «الحج الأكبر»؟

قال: إنما سمى الأكبر؛ لأنها كانت سنة حج فيها المسلمون والمشركون ولم يحج المشركون بعد تلك السنة (١٠).

٢٠- باب علة تسمية الطائف

١- عن إبراهيم بن مهزيار، عن أخيه، بإسناده، قال: قال أبو الحسن عليه السلام في الطائف: أتدرى لم سمى الطائف؟

قلت: لا.

١- ١ القاموس المحيط ٣: ١٤٩- زلف-.

٢- ٢ علل الشرائع: ٤٣٧ ب ١٧٦ ح ١، بحار الأنوار ٩٩: ٢٦٦ ح ٣.

٣- ٣ الصحاح للجوهري ٣: ١١٩٨- جمع-.

٤- ٤ النهاية لابن الأثير ١: ٢٩٦- جمع-.

٥- ٥ يأتي في باب علة وجوب الحج والطواف بالبيت وجميع المناسك ح ١.

٦- ٦ المراد أن جبرئيل انتهى بآدم عليهما السلام.

٧- ٧ علل الشرائع: ٤٠٠ ب ١٤٢ ح ١، بحار الأنوار ١١: ١٦٨ ح ١٥، و ٩٩: ٣٠ ح ٥.

٨- ٨ سورة التوبة: ٢.

٩- ٩ أى المؤذّن لما بعثه رسول الله صلى الله عليه وآله خلف أبي بكر وأخذ سورة براءة منه ورجع أبو بكر وقال: هل نزل فيّ شيء؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: أمرني ربّي أن لا يبلغ عنّي إلّا أنا أو رجل منّي.

انظر: مسند أحمد بن حنبل ١: ٣ و ١٥١، و ٢: ٢٩٩.

١٠- ١٠ المحاسن للبرقي ٢: ٥٢ ح ٨٢، من لا يحضره الفقيه ٢: ١٩٨ ح ٢١٣٢، علل الشرائع: ٤٤٢ ب ١٨٨ ح ١، معاني الأخبار: ٢٩٦ ذ ح ٥، روضة المتّقين ٤: ٣٢، تفسير البرهان ٢: ٧٣٣ ذ ح ٢٧ وص ٧٣٥ ح ٣٣، بحار الأنوار ٣٥: ٢٩٣ ح ٩، و ٩٩: ٣٢٢ ح ٧ وص ٣٢٣ ح

ص: ١٧٩

فقال: إن إبراهيم عليه السلام دعا ربه عزوجل أن يرزق أهله من كل الثمرات فقطع لهم قطعة من الاردن، فأقبلت حتى طافت بالبيت سبعا، ثم أقرها الله تعالى في موضعها، فإنما سميت الطائف للطواف بالبيت (١).

٢- عن أحمد بن محمد، قال: قال الرضا عليه السلام: أتدرى لم سميت الطائف طائفاً؟ قلت: لا.

قال: لأن الله تعالى لم يدع إبراهيم عليه السلام أن يرزق أهله من كل الثمرات أمر بقطعة من الاردن، فسارت بثمارها حتى طافت بالبيت، ثم أمرها أن تصرف إلى هذا الموضع الذي سمى الطائف، فذلك سمى الطائف (٢).

٢١- باب علّة تسمية الأبطح

١- عن عبد الحميد بن أبي الديلم، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: سُمي الأبطح أبطح؛ لأن آدم عليه السلام أمر أن ينبطح (٣) في بطحاء جمع، فانبطح حتى انفجر الصبح، ثم أمر أن يصعد جبل جمع، وأمر إذا طلعت عليه الشمس أن يعترف بذنبه، ففعل ذلك آدم (٤) عليه السلام، فأرسل الله تعالى ناراً من السماء فقبضت قربان آدم عليه السلام (٥).

٢٢- باب علّة تسمية مسجد الفضيخ (٦)

١- عن أبي بصير ليث المرادي، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: لم سُمي مسجد الفضيخ مسجد الفضيخ؟ قال: النخل سُمي الفضيخ فذلك سُمي (٧). (٨) ٢٣- باب علّة تسمية التليبة

١- عن أبان بن عثمان، عمّن أخبره، عن أبي جعفر عليه السلام، قال: قلت له: لم سميت التليبة تليبة؟ قال عليه السلام: إجابته أجاب موسى عليه السلام ربه عزوجل (٩).

٢- وسميت التليبة إجابة؛ لأنه أجاب موسى عليه السلام ربه عزوجل وقال: لتيك (١٠).

١- ١ المحاسن ٢: ٧١ ح ١٣٠، قرب الاسناد: ٣٦١ ح ١٢٩١، تفسير العياشي ١: ٦٠ ح ٩٧، علل الشرائع: ٤٤٢ ب ١٨٩ ح ١، بحار الأنوار ١٢: ١٠٩ ح ٣٠، و ٩٩: ٧٩ ح ١٨- ٢٠ وص ٨٠ ح ٢١.

٢- ٢ علل الشرائع: ٤٤٢ ب ١٨٩ ح ٢، بحار الأنوار ١٢: ١٠٩ ح ٣١، و ٩٩: ٨٠ ح ٢٢.

٣- ٣ لعل المراد من الانبطاح هنا مطلق التمديد للنوم وإن لم يكن على الوجه، مع أنه يحتمل أن لا يكون ذلك مكروهاً في شرعه عليه السلام.

وقيل: هو كناية عن الاستقرار على الأرض للدعاء لا للنوم.

وقيل: كناية عن طول الركوع والسجود في الصلاة.

٤- ٤ زاد في المحاسن: وإنما جعله اعترافاً ليكون سنّة في ولده، فقرب قرباناً.

٥- ٥ المحاسن للبرقي ٢: ٦٥ ذ ح ١٠٩، الكافي ٤: ١٩٣ ضمن ح ٢، من لا يحضره الفقيه ٢: ١٩٩ صدر ح ٢١٣٤، علل الشرائع: ٤٤٤ ب ١٩٤ ح ١، روضة المتقين ٤: ٣٤- ٣٥، بحار الأنوار ١١: ١٦٦ ح ١٢، و ٩٩: ٤٤ ضمن ح ٣١ وص ٨٠ ح ٢٣، مرآة العقول ١٧: ١٦ ضمن ح ٢.

٦- ٦ قال الطريحي في مجمع البحرين ٢: ٤٤٠: هو مسجد من مساجد المدينة، روى أن فيه ردت الشمس لأمر المؤمنين عليه السلام...



٧-٧ قال المجلسي رحمه الله: الأشهر في وجه التسمية هو أنّ الفضح الكسر، والفضيخ شراب يتخذ من بسر مفضوخ، وكانوا في الجاهلية يفضخون فيه التمر لذلك فيه سَمَى المسجد.

وأما الفضيخ بمعنى النخل فليس فيما عندنا من كتب اللغة، ولا يبعد أن يكون اسماً لنخلة مخصوصة كانت فيه. ويؤيده أن في الكافي: لنخل يسمّى الفضيخ.

٨-٨ الكافي ٤: ٥٦١ ح ٥، علل الشرائع: ٤٥٩ ب ٢٢٠ ح ١، تهذيب الأحكام ٦: ١٨ ح ٢٠، بحار الأنوار ١٠٠: ٢١٤ ح ٥، مرآة العقول ١٨: ٢٧٦ ح ٥، ملاذ الأخيار ٩: ٤٦ ح ٢٠.

٩-٩ علل الشرائع: ٤١٨ ح ٤، وسائل الشيعة ١٢: ٣٧٦ ح ٤، بحار الأنوار ١٣: ١٠ ح ١١، و ٩٩: ١٨٥ ح ١٢.

١٠-١٠ من لا يحضره الفقيه ٢: ٢٣٥ ذ ح ٢٢٨٤، روضة المتقين ٤: ١١٥.

ص: ١٨٠

الهوامش:











ص: ١٨٦

ظاهرة الحجّ

**ظاهرة الحجّ دراسة سوسولوجية**

ظاهرة الحجّ دراسة سوسولوجية

الدكتور حسن الضيقه

مقدمه

إنّ القهر العسكرى والسياسى والاقتصادى الذى مارسه النظام الغربى المعاصر على المجتمع الإسلامى فى القرون الأخيرة، بلغ أوجه فى الفترة التى تلت الحرب العالميّة الأولى... فقد تمكّن النظام الغربى أثناء هذه الفترة من إحكام سيطرته على الجزء الأكبر من المجتمع الإسلامى عبر قواه المباشرة أو عبر القوى السياسيّة المحليّة التى أفرزها فى سياق القهر هذا. وكان من الطبيعى أن تنمو وتزدهر فى ربوع العالم الإسلامى كلّ المدارس الفكرية المولعة بتبرير وتدعيم وتسويق نظام القهر هذا. طبعاً هذا لا يعنى أنّ الحالة الإسلاميّة آلت إلى الفناء، بل انكشفت ململمة جراحها العميقة وجاهدة فى استيعاب دروس المعركة الكبيرة، التى أدت إلى هزيمة العالم الإسلامى أمام جبروت المجتمع الغربى المعاصر، ممهّدة الطريق لنهضة جديدة، انتقلت تدريجاً من حالات المقاومة عبر هذه النقطة أو تلك وصولاً إلى حالة النهوض الشامل وعلى كلّ المستويات. والنهوض الشامل يعنى قدرة العالم الإسلامى على بلورة حركة إسلاميّة متكاملة قادرة على فرض نموذجها



ص: ١٨٧

الإسلامى الأصيل على مستوى جميع التحديات التى يواجهها الفرد أو الأمة. ولعلّ أحد تعبيرات هذه الحركة الإسلامية المتكاملة تدشين العالم الإسلامى بدايةً جديدةً لنشاطه الإبداعي التوحيدي فى مجال علوم الإنسان، تعيد مسيرة الفكر الإسلامى إلى نصابها الطبيعى متخطيةً بذلك حالة الوهن والضعف السابقتين أو حالة المقاومة السلبية - رغم أهميتها الكبيرة فى فترة الهزيمة - إلى حالة من النمو والتفتح الإيجابى الذى ينسج يوماً بعد يوم مزيداً من خيوط الانعتاق والحرية حول محور التوحيد ومحور الإسلام. ثم ليتقدّم بعد ذلك معلناً الخروج على الفلسفات الوثنية المعاصرة مفنداً إياها، مظهراً تناقضاتها متجاوزاً إياها تجاوزاً توحيدياً خالصاً.

إنّ تثبيت الحالة الإسلامية والارتقاء بها إلى مستوى الأمة، يضع بين أيدي الجيل الذى نحن منه كثيراً من الخبرات الفكرية التى تحثنا للعمل على بلورة آفاق عملنا الفكرى بما يتناسب ويواكب حركة الأمة ونهضتها المباركة.

وليس ما يمنعنا من أن ننكبّ على دراسة الحالة الإسلامية الضاحجة بالحياة، هادفين إلى الإسهام ولو بنصيب فى عملية تحرير الشخصية الفكرية للأمة الإسلامية من قيود الفكر الوثنى المعاصر على هدى خطّ التوحيد والعدل، خطّ العبودية لله والخروج على طواغيت العصر.

إنّ السموم والآفات والاختلالات المختلفة التى زرعتها الفلسفات الغربية المعاصرة سواء كانت ليبرالية أم قومية اشتراكية أم شيوعية فى جنبات الأمة الإسلامية، لا بدّ أن تتعمق وتتركز مواجعتها لها ليس على المستوى العقائدى والفلسفى فقط، بل أيضاً على مستوى تعبيرات حركة الأمة ونهضتها فى معادل العلوم الإنسانية المختلفة وتفاصيل أبنيتها الجزئية كى نحكم المعركة باتجاهين: الأول: سدّ جميع الثغرات حتى التفصيلية منها، والتى يمكن أن تشكل أماكن تسرب لوحوش الوثنية المعاصرة.

ص: ١٨٨

والثاني: لاستكمال أدوات الصراع الفكرى فى مواجهة طغيان الفكر الفرعونى المعاصر.

من هنا نرى أنّ تعميق فهمنا لظاهرة الحجّ، بهدف تكوين أفق موسوعى، يسدّ ثغرة كبيرة فى الذاكرة الفكرية ويعطى للمزاج الإبداعى الإسلامى دفعة مهمة للأمام تحسباً لشخصيتنا الفكرية وتدعيماً لقوتها فى مواجهة جميع الأفكار الخبيثة التى بثتها الوثنية المعاصرة فى ثنايا الجسد الإسلامى حول عقيدته وفكره وشخصيته.

المجتمع التوحيدى (تعريف)

المجتمع التوحيدى، هو المجتمع الذى يستمدّ من القرآن الكريم أسس وقواعد تكوينه الكلية، ويحاول التواصل مع هذا النصّ فى عقيدته وعبادته، فى تشريعاته ونظامه، وفى نظمه الخلقية والسلوكية. كما يستمدّ المجتمع التوحيدى من القرآن الكريم «منهجاً» و «نظرة» محددين؛ بهما يواجه هذا المجتمع قضاياها المختلفة، وعلى هديهما يتعامل مع الآخرين.

إنّ هذه العقيدة وهذا المنهج يزودان المجتمع التوحيدى بنظرة معينة للإنسان والأمة، والوجود والكون، والقضايا المختلفة التى يواجهها. بذلك لا يكون المجتمع التوحيدى عبارة عن مجموعة «المسلمين»، بل يتخطى ذلك إلى حالة اجتماعية تاريخية كلية، تعبر عن نفسها فى مختلف المجالات والميادين العقيدية والثقافية والاقتصادية والسياسية والفنية والفقهية «إنّ التصور الإسلامى للألوهية وللوجود الكونى وللحياة، وللإنسان... تصوّر شامل كامل. ولكنّه كذلك تصوّر واقعى إيجابى».

– «لا إله إلاّ الله»:

أى ردّ الحاكمية لله فى أمرهم كلّ، طرد المعتدين على سلطان الله بادعاء هذا الحقّ لأنفسهم، إقرارها فى ضمائرهم وشعائرهم، وإقرارها فى أوضاعهم وواقعهم.

ص: ١٨٩

إن الحكم إلهي أمر ألتعبدوا إلهي إياه ذلك الدين القيم... (١) ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون (٢).  
 فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول (٣).  
 وخلق كل شيء فقدره تقديراً (٤).  
 ملاحظة أولية

١- يعتبر المسلمون أن القرآن الكريم وحى إلهي يخطط (نظاماً شاملاً) لحياتهم. ولكن المجتمع الإسلامي التاريخي، رأى في «حواره» مع النصّ القرآني الكريم إطارين:  
 الإطار الأول: يشمل مجموع العقائد والكليات والأسس.  
 وإطاراً ثانياً: ينطوي على جملة فرائض وتشريعات تفصيلية.  
 وهذا ما يطرح على الباحث سؤالاً وهو: كيف تعامل المسلمون مع العقائد والكليات والأسس العامة؟  
 يرى المسلمون أن المشكلة محسومة فيما يخصّ الفرائض والتشريعات، ولكنه يطرح الإشكال فيما يخصّ الإطار الأول، أي مجموعة العقائد والكليات والأسس، إذ كيف يمكن للمسلمين في «الزمان والمكان» أن يستلوا من هذه الكليات قواعد تفصيلية زمنية؟  
 ٢- يعتبر المسلمون أن التجربة المحمدية التاريخية، هي الشكل الأرقى للحوار ما بين المسلم وبين كليات النصّ القرآني الكريم، إذ بلور وجسد الرسول في دعوته وممارساته المختلفة، نهجاً وقواعد تاريخية، إليها يرجع المسلمون في الزمان والمكان، ليتشكلوا منهاجاً وعقيدة وسلوكاً بما يسمح لهم بالتواصل مع النصّ القرآني بأرقى الأشكال التي عرفت في التاريخ الإسلامي.  
 إذاً هنا تتوسط التجربة المحمدية العلاقة ما بين المسلمين في ظروفهم التاريخية المختلفة، وما بين النصّ القرآني الكريم، تشريعاً، ومنهاجاً وسلوكاً.

١-١ يوسف: ٤٠.

٢-٢ المائدة: ٤٤.

٣-٣ النساء: ٥٩.

٤-٤ الفرقان: ٢.

ص: ١٩٠

وبذلك يتقدم المجتمع التوحيدى خطوات كبيرة فى حلّ إشكالية العلاقة ما بين الظرفى والزمنى والمحدود والخاص (أى التاريخى) وما بين الكلى والمطلق والعام (القرآن الكريم).

٣- يطرح المسلمون سؤالاً حول كيفية حلّ المعضلات التى لم يواجهها الرسول فى عمره، وواجهت المسلمين فيما بعد. هنا يرجع المسلمون إلى مقولتى:

الإجماع والاجتهاد.

٤- الإجماع: «هو اتفاق المجتهدين من هذه الأمة فى عصر من العصور على كلّ حكم شرعى، والاتفاق هو الاشتراك فى الاعتقاد أو القول أو الفعل».

٥- الاجتهاد أى الاجتهاد فى الظرف والمكان، على ضوء ما تقدّم من نصّ وسنّة وإجماع، وفق شروط و مقاييس محدّدة. الحجّ كظاهرة

يحتلّ الحجّ كفريضة موقعاً أساسياً فى بناء وحركة المجتمع التوحيدى، إذ تعتبر هذه الفريضة أحد أركان الإسلام، فالجماعة المسلمة تتعامل مع الحجّ باعتباره فريضة على كلّ مسلم ومسلمة إلى «يوم الدين»، مهما تغيّرت الظروف وتقلبت الأحوال.

ولله على الناس حجّ البيت من استطاع إليه سبيلاً ومن كفر فإنّ الله غنى عن العالمين (١).

ويتواصل الحجّ مع منظومة عبادات لدى المسلمين، تبدأ بالصلاة والصوم، وتتوج بالحجّ. إلّا أنّ هذه العبادات المختلفة، رغم ما يجمعها من خصائص مشتركة، يبقى لكلّ منها خاصية وفردة، تتطلّب من الباحث والعالم أعمال الفكر من أجل تحديد هذه الخاصية؛ لذا فالحجّ، كظاهرة يمكننا القول: إنّها فى الوقت الذى تدرج فيه ضمن نظام أعم من العبادات تحمل منطقتها وقواعدها ووظائفها المميزة، إلّا أنّنا معيّون فى الوقت نفسه بكشف أبعاد وخصائص وسمات هذه

ص: ١٩١

الظاهرة بالذات؛ لحجّة منطقتها الذي تتواصل فيه مع غيرها من العبادات من جهة، ولحجّة فرادتها وتميزها من جهة أخرى. إنّ هذه المنظومة من العبادات تبدى للوهلة الأولى بالنسبة للباحث، على أنّها مجموعة عبادات فردية متناثرة، لا يجمعها جامع، وبالتالي، فيامكاننا مواجهتها معرفياً، كممارسة فردية، انطلاقاً من منهج نفسى - ثقافى، نظراً «لطبيعتها» هذه أو على أنّها امتداد لتجربة مجتمع فى مرحلة معينة من التاريخ على المستوى الأيدولوجى. وبالتالي فإننا إنّما أن نعتبرها ظاهرة تاريخية انتهت بانتهاء المرحلة التى ولدتها، وإما أن نعتبرها استمراراً لبعض الشعائر والمعتقدات التى كانت سائدة فى مرحلة معينة من تاريخ المجتمع الذى ولد هذه الممارسة.

ولكن مراجعة دقيقة لمعطيات الواقع المعاش من قبل المسلمين وغير المسلمين من جهة، ولمعطيات الحقب التاريخية المختلفة، تكشف لنا أنّ ظاهرة الحجّ، تتسم بالاستمرارية التاريخية من جهة، وبتعدد الأبعاد الاجتماعية التى تنطوى عليها هذه الظاهرة من جهة أخرى، بحيث تغدو هذه الظاهرة إحدى الظواهر الأساسية، التى يتكثف فيها وعبّر أشكالها المختلفة المنطق العام أو الأوليات العامة، التى تنظم البناء المجتمعى التوحيدى بكليته، من عقائد وفقه، واقتصاد وسياسة، وفنون ومعاناة فردية وجماعية معاشة. أى أنّها ظاهرة متعدّدة الأبعاد، يمكننا أن نطال بالدراسة لها البعد العقدى والاجتماعى، والاقتصادى والسياسى والنفسى، والجمالى. كما يمكننا أن نخطو خطوة أخرى من أجل تحديد بنية هذه الظاهرة والعناصر المختلفة المكونة لهذه الظاهرة فى «ثبوتها» وحرّكيتها، فى شكلها ومضمونها.

ومن جهة أخرى، يمكننا انطلاقاً من الحيز الذى تحتله هذه الظاهرة فى البناء الاجتماعى العام، وانطلاقاً من جملة العلاقات والممارسات والأسس المتميزة التى تطبع هذه الظاهرة؛ فى تدعيم وجود واستمرارية المجتمع الإسلامى ككلّ،

ص: ١٩٢

واستمرار «الحالة الإسلامية»، على مستوى الأفراد والجماعات من جهة أخرى، في مجتمع تاريخي محدد يحتضن هذه الظاهرة. إن ما تقدّم، يسمح لنا بالتحرّر من المناهج السائدة في ميادين علم النفس الغربي، والتي ترى في ظاهرة الحجّ ظاهرة عبادية فردية ومنفصلة عن ميادين الحياة الأخرى، وتعيش على هامش البناء الاجتماعي للجماعة المسلمة؛ كي تتعامل مع هذه الظاهرة بوصفها إحدى الركائز المكوّنة والخاصّة لمختلف السمات والخصائص والبنى التي تشكّل مجتمعه، البناء الاجتماعي الكلي للجماعة المسلمة. إنّ إحالة هذه الظاهرة إلى مجموعة طقوس وشعائر تمارس من قبل العجائز والأميين في كثير من الكتابات الاجتماعية أو في الرأي الشائع، تكشف لنا رؤية أيديولوجية خاطئة وعدائية في آن واحد، تحاول تجزيي هذه الظاهرة واختزالها إلى معطى ثقافي أو «تراثي» يتموضع داخل طبقات البنية الثقافية العامّة للمجتمع.

وتذهب المدرسة الماركسيّة من جهة والمدرسة الاجتماعية الفرنسيّة من جهة أخرى (أوغست كونت، دوركهايم) إلى أبعد من ذلك، حيث ترى الماركسيّة هذه الظاهرة مخلفات وعى غير علمي ينتمي إلى حقبة تاريخية ماضية، وهو يستمرّ بحكم العادة أو التأخر ويلعب دور معيق للنمو الفكري العام، وبالتالي يجب العمل على تدمير هذا النمط من الظواهر.

وهذا ما يؤدّي عند أتباع هذه المدرسة أو المتأثرين بها إلى منزلقين خطيرين:

الأول: ذو طابع فكري يعمل على طمس وتغييب أبعاد هذه الظاهرة.

والثاني: ذو طابع أيديولوجي سياسي تتولّد منه مواقف وممارسات سياسية ذات طابع عدائي في مواجهة المسلمين.

أمّا المدرسة الاجتماعية الفرنسيّة (أوغست كونت، دوركهايم...) فترسى منهجاً معيناً يرى في هذه الظاهرة إمّا وعياً غير علمي أو فكراً ذا طابع قهري تفرضه المجتمعات على أفرادها، وما يؤدّي إليه ذلك من عملية اغتراب ومسح

ص: ١٩٣

لشخصية الفرد في مواجهة القهر الاجتماعي العام.

إنّ تبني هذه المناهج، أو الاستناد إليها في دراسة ظاهرة الحجّ، يجعل من الباحث أو المفكر أداةً طيعةً تعمل على إبعاده عن رؤية الواقع كما يعبر عن نفسه فعلياً، بعيداً عن كلّ تصوّر مسبق للمعطيات التاريخية التي تعيشها وتبينها المجتمعات أفراد وجماعات. التزوّد بمنهج ومفاهيم أدوات صالحة للعمل البحثي:

بعد التوصل إلى وضع تصوّر ومنهج ملائم لدراسة الظواهر المختلفة التي يحتضنها المجتمع التوحدي، أو الحالة التوحيدية (في حال عدم وجود مجتمع توحدي كامل) وما يستتبع ذلك من تطوير وبناء مفاهيم وأدوات منهجية مختلفة، تسمح لنا بالتقاط وتفسير مختلف عناصر وجزئيات الظاهرة التوحيدية (منها الحجّ)، علينا أن نتقدّم خطوة أخرى من أجل معرفة ما تقدّم، كما يمارس ويعاش ويعمل في الواقع التاريخي، حيث تأخذ الظاهرة التوحيدية (الحجّ) أشكالها المحددة ومضامينها المميزة، في الزمان والمكان، وفقاً للخصائص المميزة للمجتمع الإسلامي المعنى بالدراسة.

ففي الواقع التاريخي، على اختلاف حقه، تأخذ هذه الظاهرة بالتداخل والتفاعل والصراع مع معطيات وظواهر أخرى متعددة، مشدودة إلى أطر ومرجعيات تاريخية مختلفة، تتعايش وتتصارع وتتكيف وتكيف النسق التوحدي العام.

فالانتماءات العصبية، والقومية، والسلطوية، وغيرها من الظواهر، تفعل فعلها في الواقع المعاش، باتجاه الانفعال أو الفعل في علاقتها بالظواهر التوحيدية المختلفة على مستوى الفرد، والجماعة، والأمة، ممّا يعطى لهذه الظاهرة لونها المجسد. بهذا نكون قد تمكّنا من جهة، من بلورة أدوات نظرية ومفهومية قادرة على

ص: ١٩٤

ضبط ومعرفة واقع الظاهرة وحرّكيتها، كما تحصل في التاريخ، بكلّ أبعادها وبكلّ تناقضاتها المعاشة في مرحلة تاريخية محدّدة. وبذلك نكون قد اقتربنا من إمكانيّة صياغة استنتاجات مقارنة ومعبرة عن واقع التجربة أو الظاهرة موضوع الدراسة.

إنّ هذا الجهد يسمح للمسلمين بمواجهه أنفسهم، عبر مواجهه تجربتهم التاريخية الخاصّة بالتحليل والتقييم. فالتجربة التاريخية للمجتمع الإسلامي ليست ذات طابع مقدس، كما أنّها بالمقابل ليست تجربة منحرفة خارجة على المرجعيّة التوحيدية. فمما لا شك فيه أنّ التجربة التاريخية للمجتمع الإسلامي مرجعها الأساسى النموذج التوحيدي، أمّا فيما يتعدى ذلك فإنّ هذه التجربة تجاذبتها نماذج اختلائية عدّة (الملك، القهر، الفساد، الظلم، العصبية...)، والتعمّق في فهم أبعاد وخلفيات هذا الواقع يفسح المجال واسعاً لاستخلاص الدروس الفكرية والمنهجية والسياسية بما يخدم متطلبات النهضة الإسلامية المعاصرة على طريق تواصلها مع النموذج التوحيدي، وتصفيه أسباب الاختلال والتحلل العائدة إلى تجربتها الخاصّة قبل أيّ شيء آخر. فمع قناعتنا الكاملة بأنّ الوضعيّة الراهنة للمسلمين تتحكّم بها أساساً علاقات السيطرة الدولية، إلّا أنّ مشروع النهضة الإسلاميّة يجد نفسه مسؤولاً في آن واحد عن مواجهه المستعمر ومواجهه الاختلالات العائدة إلى التجربة التاريخية الإسلاميّة. إنّ وضع اليد على نقاط الضعف والانحراف لا يضرّ الإسلام بشيء، بل يحزّر المسلمين من كثير من الأوثان والانحرافات التي لازمت تجربتهم التاريخية الرائدة، والتي أوجدت فيها ندوباً سمحت لمشاريع القهر الخارجيّة بالفاذ وإيجاد التربة الملائمة لتأسيس قواعد سيطرتها داخل المجتمع الإسلامي نفسه.

الحجّ ظاهرة عالمية

عند كلّ ديانة من الديانات، أماكن مقدّسة يؤمها أتباع الديانة وفق تقاليد وطرق وآداب محدّدة وفي مناسبات مختلفه، فالديانات اليهودية ومن بعدها الديانة



ص: ١٩٥

المسيحية، تعتبر أنّ بيت المقدس وما حوله من آثار ومشاهد مركزها الروحي الأصيل. فقد جاء في «دائرة المعارف اليهودية» (١) ما يلي:

«إنّ الحجّ إلى بيت المقدس الذي كان يدعى بالزيارة يؤدي في زمن ثلاثة أعياد (وهي عيد الحصاد، وعيد الفصح، «اليهودي»، وعيد المظال) وكان الحجّ فريضة على جميع اليهود، باستثناء الصغار الذين لم يبلغوا الحلم، والإناث، والعميان... وكانت الشريعة الموسوية توجب على كلّ «حاج أو زائر» أن يأخذ معه «تقدمة للرب»... وهناك مشاهد وضرائح وأمكنة، تُشد إليها الرحال في كلّ قطر وبلد». كذلك في الديانة المسيحية، فإنّ الحجّ (٢) «اسم للرحلة التي يقوم بها الإنسان لزيارة المشاهد المقدسة، مثل مشاهدة الحياة الدنيوية لسيدنا عيسى عليه السلام في فلسطين، أو مراكز زعماء الدين المقدسة في «روما» أو الأمكنة المقدسة التي تنسب إلى المقبولين من الزهاد، والشهداء».

«وقد شاعت زيارة مشاهد روما من القرن الثالث عشر على حساب زيارة الأرض المقدسة، وإن لم تنقطع زيارة الأرض المقدسة بتاتاً، وكانت «روما» المدينة التي تلي بيت المقدس في الأهمية».

أمّا الديانات الهندية (كالبودية والبرهمية) فقد كثرت فيها المشاهد والمعابد «وأكثر هذه المشاهد والأمكنة المقدسة على ساحل نهر «الكنج» المقدس، يجتمع فيها أهل البلاد في عدد هائل للاغتسال في النهر المقدس، ومنها ما يجتمعون فيها سنوياً، أو عدّة مرات في السنة...» (٣).

إنّ ظاهرة الحجّ والزيارة لدى كلّ من هذه الديانات وغيرها، تتميز بخصائص وسمات محدّدة انطلاقاً من الموقع الذي تحتله في النظمّة العامّة للديانة المعينة، كما تلعب هذه الظاهرة في كلّ من هذه الديانات والأمم أو الشعوب التي

١-١ أبو الحسن الندوي الأركان الأربعة: ٢٧٩.

٢-٢ المصدر نفسه: ص ٢٨٢.

٣-٣ المصدر السابق: ٢٨٥.

ص: ١٩٦

تعتنقها أدواراً متعدّدة تطال مختلف المستويات والبنى الاجتماعية التي تشكّل مجتمعه البناء الاجتماعي العام.

الحجّ في المجتمع التوحدي

وأذن في الناس بالحجّ يأتوك رجالاً وعلى كلّ ضامر يأتين من كلّ فجّ عميق ... (١).

المنظومة الفقهيّة الضابطة

إنّ القيام بالحجّ، ليس أمراً عفويّاً يقوم به المسلم كيفما اتّفق، انطلاقاً من قناعاته الفرديّة، أو تأثيراً بالمناخ الحقوقي والقانوني الذي ينظم العلاقات الاجتماعية المختلفة في البلد الذي يعيش فيه، ولا انطلاقاً من العرف الذي يحكم القبيلة أو الطائفة التي ينتمي إليها. فالحجّ تحكمه منظومة فقيّهة تفصيليّة، يتعامل معها المسلمون على أنّها شروط إلهيّة ورسائيّة، لا يحقّ للفرد أو الجماعة أو الأمة، في أيّة مرحلة من مراحل التاريخ وفي أيّة بقعة من بقاع الأرض، أن يُجروا أيّ تعديل عليها، مهما كان الموقع الذي يتبوّنه في السلطة وفي الحياة العامّة.

إنّها نظمة فقيّهية متكامله، يحكمها منطق متكامل مقصود بذاته فيما يتخطى ارتباطات الأفراد والجماعات والشعوب.. هذه النظمة الفقهيّة، سواء درسناها في كليّاتها أو في جزئياتها، نجدها تتضافر وتتفاعل لتعطي للظاهرة بعداً فقيهاً توحيدياً، يتجاوز مجموع انفعالات وقناعات وممارسات الذين يحجّون، دون أن يشكل بذلك قطيعة أو حالة تعارض وانقطاع مع فعل الحجّ هذا، بل تشكل هذه النظمة نقطة بداية ووصول لحالة «الفطريّة البشريّة» التي تشكل المنظومة الفقهيّة المذكورة «نموذج قياس» بالنسبة لها، تعيد على أساسه وزن سلوكها الخاص والعام وانطلاقاً منه ورجوعاً إليه، إذ بذلك يعتقد المسلمون أنّهم يسرون على الطريق المؤدى إلى نمو وازدهار شخصيتهم وحياتهم عبر التاريخ وفق المنهج والرؤية

ص: ١٩٧

التوحيدية.

إنّ التعمّق في فهم معاني ودلالات المنظومة الفقهيّة الناظمة لظاهرة الحجّ، له فوائد معرفيّة جمّة فيها يخصّ مختلف فروع المعرفة الإنسانيّة المتعلقة بالقانون:

فلسفة القانون، علم القوانين، علم السياسة، علم الاجتماع القانوني، القانون التاريخي المقارن... ففلسفة القانون الغربي والوضعي عموماً، تستند في أساسها إلى مبدأي القوّة والغلبة الزمنيين.

فالقانون في التحليل الأخير، هو فرض الحدود والتوازن على قاعدة قوّة زمنيّة ما، قبيلة كانت أو فئة اجتماعيّة ما، أو سلطة ملك أو دولة ما. أي أنّ الاختلال متضمّن في نقطة الانطلاق هذه؛ لأنّ الحدود المفروضة هنا هي حدود القوّة الزمنيّة القاهرة. «والتوازن» المفروض،

هو توازنات مصالح القوى الغالبة بحيث يغدو مبدأ المساواة هنا متعلقاً بمعطى تجزيئي زمني، يطرح نفسه ناظماً لمبادئ كليّة وعامّة.

فالوحدة هي شأن تابع لمعطى أصيل أساسه التجرؤ والغلبة بالقوّة. بينما نجد بالمقابل أنّ الإسلام يطرح التوحيد والوحدة كأصل وكهدف. فالوحدة في المفهوم الإسلامي، ليست وحدة القوّة الجزئيّة الغالبة على الأجزاء والمتحكّمة بها. بل هي وحدة المدار

التكويني للإنسان، والاختلال هو العنصر الطارئ عليها. وهذه الوحدة التكوينيّة ليست قهريّة؛ لأنّ لحمتها لا تقوم على أساس تجزيئي بل تتعلّق بتجليات المحور التوحيدي منذ البداية.

يترتب على ما تقدّم إعادة فتح النقاش حول كثير من الموضوعات الفكرية السائدة على المستوى العالمي حول أسس التشريع وموقع الإنسان منها، وحول تاريخيّة النظم القانونيّة وعلاقتها بحركة الناس والأمم في الزمن الوجودي المعاش.

إنّ ديمومة النظم الفقهيّة الإسلاميّة وثبات مدارها، هما الوجه الآخر لديمومة السعي للانعقاد من ذلّ العبوديّة. فالتشريع الإسلامي بهذا المعنى، يطرح ثوابت للانعقاد من الوحدة الوثنيّة على طريق الوحدة التوحيدية إن جاز التعبير.

ص: ١٩٨

فالثبات بهذا المعنى هو عين الحركة الآيلة إلى دفع الإنسان نحو التعلق بقيم التوحيد المتعالية، يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقية (١).

البعد العقائدى: التوحيد والتنزيه

يرسى الإسلام كعقيدة فى وعى وممارسة أتباعه «تصوراً» للخالق، مفاده أن الله متعال عن كل الصفات والتشبيهات التى يمكن أن تتراءى للمسلم فى تجربته وواقعه المعاش، أى أن الله لا يمكن تجسده وفق شكل ومظهر محدّد. وهذا ما يقابله بالنسبة للإنسان أن يركن إلى علاقة مع الله لا توسط فيها، مهما كان الشكل الذى يمكن أن يأخذه هذا التوسط: صور، أصنام، هياكل، طبقه كهان، أو أية فئة بشرية بعينها سواء اتخذت شكل فرد أم طبقه أم طائفة أو أى شكل مجتمعى آخر، وهذا ما تؤكده الآية التى تقول:

وإذا سألك عبادى عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون (٢).

إن الإسلام يفرض على أتباعه - ضمن هذا الفهم - مستوى من التجريد بالنسبة لأى واقعه بعينها، تسمح لهم بالانعتاق والتحرر من أى من الوقائع الطبيعية والبشرية بغرض التواصل مع «الواحد المتعال»، عن أى من مخلوقاته.

ولكن هذا التعالى المطلق لا يحيل الخالق إلى معطى فارق ومفصول عن الوجود.

بل إن آياته ماثلة فى الوجود كل الوجود. ومن هنا يبدأ المسلم فى إقامة علاقة توازن - صراع - توحيد مع محيطه الطبيعى والبشرى. دون أن يجعل من أى من هذه المظاهر نقطة قياس متعالية، بل يرى فيها النسبى والزمنى والمتغير والجزئى الذى يتوازن ويقاس إلى مثل الأعلى اللامتاهى...

وبحكم أن الله هو المطلق، إذن الطريق أيضاً لا ينتهى، هذا الطريق طريق الإنسان نحو الله هو اقتراب مستمر بقدر التقدم الحقيقى نحو الله، ولكن هذا الاقتراب يبقى اقتراباً نسبياً، يبقى مجرد خطوات على الطريق من دون أن يجتاز هذا

١- ١ الانشقاق: ٦.

٢- ٢ البقرة: ١٨٦.

ص: ١٩٩

الطريق... أى أنه ترك له (للإنسان) مجال الإبداع إلى اللانهاية، مجال التطور التكاملى إلى اللانهاية...» (١).  
فى هذا المناخ العقائدى، تندرج جملة الشعائر التى يقوم بها المسلمون، تقرباً وتعظيماً لله وخروجاً على كل ما يتعارض ويعيق هذا المسار التوحيدي. فالقيام بالشعائر ليس تعظيماً للشئ بعينه، بقدر ما هو تقرب إلى الله تعالى:

ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب (٢).

بهذا المعنى تأخذ شعيرة الحجّ معنى وسلوكاً توحيدياً شمولياً، يمارسها المسلم بالشكل والمعاناة، بسلوكة السياسى والاقتصادى، بنظرته لنفسه وللآخرين...

الحجّ عامل تزكية وتوازن نفسى وعقلى وعاطفى

- والذين آمنوا أشدّ حباً لله (٣).

- قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهادٍ فى سبيله فترتبصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين (٤).

ينظر الإسلام إلى الإنسان- بالمعنى الفردى والاجتماعى- باعتباره مشدوداً دائماً إلى جملة العلاقات والمواقع الاجتماعية التى تحيط به. فالإنسان ليس «مجرداً أو مطلقاً خارجاً عن النظام المادى والعلل والعوامل العينية والعملية... ولكنه (أى الإنسان) يستطيع استغلال الجبر الطبيعى والوراثة والتاريخ والمجتمع، ويكون مدبر الدنيا المادية، أى صاحب السيادة على الوجود، ويقطع هذه المسيرة العلمية من «التراب» إلى «الله»... وفى هذا المسير تجد فلسفة بناء الذات وجهتها وفلسفتها.

ليس بناء الذات فى الإسلام «رياضة سلبية»، لكنها، «تربية إيجابية» (٥).

إنّ الحجّ كسلوك فردى وجماعى، يمكن أن يندرج ضمن هذه الوجهة التى تحاول تحويل وضع الإنسان المسلم من ظاهرة سلبية تكون محصلة لولائه العائلى

١- ١ محمد باقر الصدر: مقدّمات فى التفسير الموضوعى للقرآن، دار التوجيه الإسلامى، ١٩٨٠: ١٥٢.

٢- ٢ سورة الحجّ: ٣٢.

٣- ٣ البقرة: ١٦٥.

٤- ٤ التوبة: ٢٤.

٥- ٥ د. على شريعتى: بناء الذات الثوريّة، من كتاب الثورة الإيرانية: الجذور الأيديولوجية، جمعها، د. إبراهيم الدسوقي شتا، الوطن

العربى، ١٩٧٩: ٨٩.

ص: ٢٠٠

أو الطبقي وما شابه من علاقات اجتماعية مختلفة إلى ظاهرة إيجابية قادرة على استيعاب وضعيتها هذه وتخطيها، انطلاقاً من عقيدتها التوحيدية ومن المؤسسات التوحيدية المختلفة التي تشكل دوائر متكاملة ضمن المسار نفسه.

بهذا المعنى يحتلّ الحجّ موقعاً متميزاً في عمليته بناء الذات المسلمة، بموجب أهداف محدودة ووسائل تاريخية محدّدة.

فالحجّ توجه يحاول إرساء علاقات وممارسات محدّدة تتخطى حدود العلاقات والممارسات التي يعيشها المسلم في مجتمع ومحيط معينين.

فعندما يأخذ المسلم قراراً بتأديته فريضة الحجّ، يكون قد دخل في مسار سلوكي يحتم عليه اتخاذ جملة من القرارات الواعية، تبدأ بتنفيذ شروط القيام بالحجّ وما يستلزمها من دفع الزكاة والخمس، والبداة بمراقبة حازمة لسلوكه إذ يضع نفسه في موضع المراقب من قبل نفسه والجماعة المحيطة به. هذا المناخ الجديد يلاحقه، من لحظة توجهه إلى الحجّ وفي أثناء الحجّ وفي المرحلة اللاحقة، والتي تمتدّ إلى آخر العمر (١) في مجمل علاقاته مع الناس.

إنّ هذا القرار الواعي بتأديته فريضة الحجّ، يستتبع جملة من الممارسات الواعية في مراحل الحجّ المختلفة.

إنّ السفر وما يمكن أن يكتنفه من متاعب وهجر لمجمل العلاقات العائلية والاجتماعية المختلفة، التي يكون قد استقرّ عليها المسلم، تخلق في نفسه مناخاً جديداً، متحرراً من ضغط الولاءات المعاشة، ومنخرطاً في عمليته معاناه تحريرية تضع عبوديته لله من جديد في الموضوع الأول، وذلك في مواجهة العبادات «الوثنية المختلفة من سلطة ومال وجاه... ففي الإحرام ينزع عنه ثيابه، ويتخفف في الملابس مجارياً بذلك الحجاج الآخرين، إلى أيّ مجتمع انتموا، وإلى أيّة فئة انتسبوا. ونزع الثياب هنا كشكل ذو دلالة رمزية، تؤكد نزاع الملابس والامتياز السلطوي أو المالي الذي يرمز إليه، مؤكداً انتماءه إلى الله وتساويه المطلق مع باقي المسلمين.

١- ١ نلاحظ في الوعي الشائع، النقد القاسي الذي توجهه العامة لأيّ حاجّ اقتترف خطأ ما في الوقت الذي تنهون أمام شخص عادى ارتكب نفس الخطأ.

ص: ٢٠١

كذلك امتناعه عن جملة من الاحتياجات النفسية والبيولوجية (المجمعة، والزواج) تركز في ذهن المسلم مفاهيم التوازن والقدرة على التحمل والحرمان، والقدرة على التضحية والإيثار، وتصليب الإرادة والجسد في وجه احتياجاته المادية والنفسية المختلفة، أى بجملة تأكيد وممارسة نهج تربوي، فردي وجماعي على قاعدة التوحيد، قادر على تجاوز الحالة السلبية التي يعيشها الإنسان تجاه حاجاته وممتلكاته المختلفة.

وفي الحج تنمية وتطوير للطاقات العاطفية الإيجابية نحو الآخرين، وتأكيد لقدرة الإنسان على تجاوز عواطفه الفردية والتضحية بها من أجل المجموع.

تلك هي دلالات قصة إبراهيم الخليل وزوجته هاجر، والتجربة التي خاضها في مراحل مختلفة في الهجرة إلى هذا المكان النائي (مكة)، وفي سعيها لإيجاد الماء، وفي قرار ذبح ولده إسماعيل...

استحضار التاريخ

قصة إبراهيم في القرآن:

«ولد إبراهيم في بيت سادن من أعظم سدنة البلد، ينحت الأصنام وبيعهها ويقوم على الهيكل الكبير، ويتصل به عن طريق العقيدة، وعن طريق الخدمة...».

ولكن في هذا المناخ السلطوي الوثني، قام إبراهيم بتحطيم الأصنام... وما تبع ذلك من أحداث (١)... أدت إلى رحيله إلى بلاد الشام... ومن ثم أمر بالتوجه إلى واد ضيق، أحاطت به الجبال الجرداء من كل جانب، وقسا عليه الجوع، يؤمر بترك زوجته والمولود الصغير... فيرضى بالأمر الواقع، ويغلب على الطفل العطش، مما يدفع الأم للبحث عن الماء، معتبرة أن «البحث عن الأسباب لا ينافي الإيمان والثقة بالله، فهي مضطربة في غير يأس، ومؤمنة في غير تعطل وتواكل» (٢).

١-١ راجع حول ذلك: أبو الحسن الندوي: الأركان الأربعة: ٢٥١.

٢-٢ المرجع السابق: ٢٥٣.

ص: ٢٠٢

إنّ حركة هاجر هنا مزيج من الإيمان والثقة بالله، والاتكال على النفس، والمجاهدة بحثاً عن الماء. في هذه القصّة دلالات متعدّدة، نفسيّة وعاطفيّة وعقليّة، تلاحظ في أوج تفتّحها واشتغالها على يد امرأة في أرض نائية مجدبة. كذلك في قصّة نبيّه ومبادرة إبراهيم لذبح ابنه إسماعيل، ثم افتدائه، «إذ لم يكن المقصود ذبح إسماعيل، إنما كان المقصود ذبح الحَبّ الذي ينازع الحَبّ الإلهي ويقاسمه، وقد ذبح (هذا الحَبّ) بوضع السكين على الحلقوم، إنّما ولد إسماعيل ليعيش ويزدهر وينسل، ويولد في ذريته آخر الأنبياء» (١).

إنّ مختلف القصص التي وردت في القرآن تعكس خط التواصل الذي أرساه الإسلام فيما بين الدعوة المحمّديّة وخط التوحيد والخروج على الوثنيّة والتسلط وعبادة الأوثان، سواء اتخذت شكل جماد أو شكل بشر.

إنّ خط التوحيد في نظره للتاريخ - كما تعبّر قصّة إبراهيم وغيرها - يرسى منهجاً واضحاً قائماً على عدم وجود انقطاع كليّ فيما بين مختلف الحقب التاريخيّة التي مرّت بها البشريّة. فلا ينظر الإسلام إلى نفسه على أنّه انقطاع كليّ ونوعى عمّا سبقه من تجارب ووقائع تاريخيّة، بل يعتبر نفسه تكمله وتويجاً لخطّ الصدام والصراع مع مختلف المؤسسات والقوى والأعراف والعادات، التي حاولت أن تضرب خطّ التوحيد لترمي خطّ الإشراك والوثنيّة، الذي يعبر عن نفسه بأشكال عدّة، تلتقى حول جعل وثن، أو فرد، أو جماعة محدّدة، مركز الكون ومصدر سلطته.

إنّ الرؤية الإسلاميّة لحركة التاريخ على ضوء ما تقدّم ترفض عمليّة تحقيب التاريخ إلى مراحل متميّزة نوعياً انطلاقاً من مقياس تجزيئيّ ما، يؤدّي إلى جعل كلّ مرحلة لاحقاً نفيّاً للمرحلة التي سبقتها، كما يؤدّي إلى رسم خطّ تطوريّ لحركة التاريخ على قاعدة المميزات التي استجدت على واقع التجربة الصناعيّة في المجتمع



ص: ٢٠٣

الغربي المعاصر.

فالمدرسة الماركسية ترى في مستوى تطور القوى التقيية معياراً للتقدم والتأخر، والمدرسة الاجتماعية ترى أنّ الحالة الفكرية مقياس لخطّ التطور التاريخي.

وعلى قاعدته ما تقدّم ترسي نظرة اختلائية لمقاييس التقدّم والتقهر، تفصل بين مقاييس العدل ومقاييس القوة (التكنولوجيا، العلوم)، لتذهب أبعد من ذلك حيث تجعل مقاييس العدل ملحقّة بمقاييس القوة أو تابعة لها. من هنا نفهم تحوّل هذه المدرسة تدريجياً إلى أداة بيد المجتمعات الصناعية في مواجهة المجتمعات المستتبعه، تعمل على تبرير ما تقوم به الأولى من تخريب بحقّ المجتمعات الأقلّ تطوراً على مستوى القوة والثروة. حتّى إنّ المرء يشكك فيما إذا كانت الفلسفات الغربية المعاصرة، قد استنسبت المقاييس التي يمتاز بها المجتمع الصناعي؛ وجعلتها ميزاناً للحقّ والعدل أي حقّها هي وعدلها هي بالذات. من هنا نجد سهولة تحوّل هذه الأيديولوجيات إلى لغة تبريرية لعنف المجتمعات الصناعية في مواجهة المجتمعات المستتبعه. ألم يحتل نابليون مصر تحت شعارات الثورة الفرنسية؟ ثمّ ألم يجتج الاتحاد السوفياتي أفغانستان تحت شعار التقدّم والاشتراكية؟... إنّ هذه الفلسفات تأكل شعاراتها أثناء الطريق بعد أن تكون قد جعلت منها ترسا حصيناً تحمي به جسمها. فمبدأ المساواة في الفكر اللبرالي، ومبدأ ضرب الاستغلال في الفكر الماركسي، تمّ التهامهما من قبل هاتين المدرستين على طاولة الآلة وحرية السوق. فالمساواة والحرية هنا، هما حرية مالك الآلة ومالك السوق... لا يمكن بأيّ حال من الأحوال أن يتصالح الفكر الإسلامي مع هذه الفلسفات. إذ لا يمكن بحال من الأحوال أن ينظر المسلمون إلى المجتمع الفرعوني على أنّه متقدّم عن مجتمع إبراهيم الخليل، بسبب القوة المديية والمائية التي يتمتّع بها المجتمع الفرعوني.

ص: ٢٠٤

كما لا يمكن للمسلمين أن يروا في المجتمع العباسي وقبله الأموي نموذجاً متقدماً على نموذج دولة المدينة التي أسسها رسول الله، لا لسبب إلّا أنّ هذين المجتمعين متقدّمان مادياً وتقنياً بما لا يقاس مع مجتمع المدينة. فالمسلمون يرون في دولة الرسول الكريم نموذج القياس الذي تقرأ على أساسه التجارب اللاحقة وبغض النظر عن مقدار القوّة التي تملكها أيّ منهما.

هنا تبقى مقاييس العدل والتوحيد والتقوى، هي العنصر الثابت في قراءة طبيعته انشدادتها. طبعاً هذا لا يعني بأيّ حال من الأحوال أنّ الإسلام يطرح تناقضاً مبدئياً وعلى الدوام مع المقاييس الأخرى، بل جلّ ما في الأمر أنّه ينظر إلى ميزان التوحيد على أنّه المحور الناظم والمهيمن والمتحكم بموازين القوّة التي تقرأ على قاعدة خطّ التوحيد والعدل. فهي إمّا متواصلة معه أو مختلفة عنه أو مناقضة له. وبذلك يمكننا أن نفهم لماذا ينظر المسلمون إلى تجربة المدينة على أنّها مقياس قراءة التجارب اللاحقة لها باعتبارها متقدّمة بمقياس العدل والتوحيد رغم كونها مختلفة بمقاييس المدينة والقوّة الماديّة؟

وبذلك يكون الإسلام قد قدّم تصوراً لا يغدر بأيّ حال من الأحوال بأفراد المسلمين أو بكتاب الأُمّة الإسلاميّة أو بعالم المستضعفين على المستوى العالمي.

لهذه الأسباب نقول: إنّ الإسلام لا ينفى ما قبله وبالتالي لا ينفى ما دونه، بل يخلق عند أتباعه رؤية ومنهجاً في التعامل مع الوقائع والأحداث تسمح لهم بعملية فرز التجربة التوحيدية عن التجربة الوثنية. وتمثل استيعاب المسلك التوحيدي ونبذ المسلك الوثني. ممّا يبرر هذا النهج وهذه الرؤية ما كان عليه الحجّ عشية الدعوة، وكيف تعامل معه الإسلام. فمن ذلك أنّ قريشاً لم يكونوا يدخلون عرفات مع الحجّ، بل يقفون في الحرم، ويقولون: نحن أهل الله في بلدته وقطان بيته، ويقولون: نحن الحمس، وما إلى ذلك إلّا لتمييزوا عن سائر الناس، ويحافظوا على مركزهم

ص: ٢٠٥

الجاهلي، وعلى ما كانوا يتخيلونه من سموّ وامتياز، فأبطل الله هذا الامتياز الجاهلي، وأمرهم بأن يعملوا كما يعمل الناس، ويقفوا بعرفات وقال: ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس (١).

ومن سمات الحجّ في الجاهليّة، أنّه كان عيداً من أعيادهم، ومكاناً للمفاخرة بالأنساب القبليّة ومآثر الآباء، وللّهو والخصام، فرفض القرآن ذلك في الآية التي تقول: فلا رث ولا فسوق ولا جدال في الحجّ (٢).

إنّ هذا المنهج في مغالبة المنحى «الاشراكي» تبدو معالمه جيلة فيما أرسى من ممارسات معينة ونبذ أخرى كانت سائدة، بهدف رسم مسار توحيدى خالص للحجّ بهدف تخليد خصائص تجربته إبراهيم ومآثره، وتجديد دعوته وتعليمه، عقيدة وممارسة.

هذا التواصل مع الخطّ التوحيدى السابق للرسالة الإسلامية، نجد له استمراراً بعد ثلاثة عشر قرناً في تجربة الحجّ لدى مسلمين في القرن العشرين. ففي توصيف لمحمّد أسد حول تجربته في الحجّ يقول: «... وإذا وقفت على رأس التلّة أهدق إلى أسفل نحو سهل عرفات الغائب عن ناظري، شعرت كأنّ زرقه الأرض أمامي، التي كانت ميتة منذ لحظة، قد دبّت فيها الحياة من جديد بتلك التيارات من الأنفس البشرية التي مرت عبرها، وامتألت بالأصوات الغريبة تصدر عن ملايين الرجال والنساء الذين مشوا أو ركبوا ما بين مكّة وعرفات في أكثر من ألف وثلاثمائة حجة... إنّ أصواتهم وخطواتهم، وأصوات حيواناتهم، وخطواتها، تستيقظ وتسمع من جديد: إنّي أراهم يمشون ويركبون ويتجمعون، كلّ تلك الملايين من الحجاج بثيابهم البيضاء عبر ألف وثلاثمائة عام... إخوان لي عن اليمين، وإخوان لي عن اليسار، كلّهم لا أعرفهم، ولكنّ واحداً منهم ليس غريباً عنّي» (٣).

وفي تجربة حجّ آخر نقرأ: «إنّ الإنسان عندما يتواجد في مكّة المكرّمة منطلق

١-١ البقرة: ١٩٩.

٢-٢ البقرة: ١٩٧.

٣-٣ محمّد أسد، الطريق إلى مكّة، دار العلم للملايين: ٤٠٤.

ص: ٢٠٦

الدعوة الإسلامية المباركة وفي المدينة المنورة، دولة الإسلام الأولى، يعي من الذكريات في أرضها انطباعات روحية كبيرة: هنا نزل الوحي، ومن هنا انطلق الرسول صلى الله عليه وآله، داعياً ومبشراً ونذيراً، وفي هذه الأمكنة عُذِب دعاة الإسلام الأوائل واستشهد بعضهم مواجِهين الطاغوت... وعلى الطريق هاجر المسلمون من مكة إلى المدينة...» (١).

وكما تتواصل تجربة الحجّ مع النسق التوحيدية في التاريخ، استمر الصراع ما بعد الدعوة الإسلامية بين خط الممارسة التوحيدية وخط الوثنية والتسلط. ففي تاريخ هذه الظاهرة وواقعها الراهن نلاحظ جملة من الظواهر والممارسات التي تحاول ضرب هذه التجربة، أو على الأقل إضعافها وجعلها ممارسة شكلية.

ففي كثير من العهود التاريخية اللاحقة لمرحلة الدعوة، نلاحظ انعكاسات الاختلال العام في بنية المجتمع الإسلامي على ظاهرة الحجّ. إذ ظهرت تجربة تعيين أمير الحجّ من قبل السلاطين، وما استتبع ذلك من امتيازات وممارسات مختلفة أدت إلى جعل هذا المنصب فرصة للترقى وجمع المال وتوظيف شرعية هذا الموقع من أجل مكاسب ومنافع مختلفة. كما أدى الاختلال العام في حقب معينة إلى تعيين عدة أمراء للحجّ، وبالتالي خلق فجوة وشرخ فيما بين الحجيج ذات طابع جغرافي أو عرقي أو مذهبي (٢).

أضف إلى ذلك، هجمات عصابات متعدّدة على طريق الحجّ، للاستيلاء على قوافل الحجيج وسلبهم. كذلك محاولة التجار والبدو في مكة فرض أسعار عالية جداً على ما يبيعونه من ماشية.

وفي الوقت الراهن نلاحظ ما للحدود السياسية للدولة التي يعيش فيها المسلمون من أثر كبير على حرية الحجّ خاصة بالنسبة للدولة التي تقع مكة فيها.

فهناك قيود ومراقبة أمنية وسياسية وتداخلات لمنع الحجيج من التفاعل والتواصل بهذا الشكل أو ذاك.

١-١ محمد الخنسا، مجلّة الحكمة، عدد ٤: ٧٠١.

٢-٢ دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الرابع، مادة: أمير الحجّ.

ص: ٢٠٧

ومع ذلك تستمر هذه الظاهرة بالعيش وتزداد قوة واتساعاً. (بلغ عدد الحجاج عام ١٩٨٠ قرابة المليون، بينما لم يبلغ عام ١٩١٤ سوى ٧٠ ألفاً) (١) وبالتالي يستمر الصراع بين هذه الظاهرة وبين كافة الظواهر والعلاقات المعيقة لها بهذا الشكل أو ذاك.

البعد السياسي للحج

كانت القبائل عندما تؤم مكة في موسم الحج، تحمل كل منها أعلامها المميزة وأصنامها ولباسها، مؤكدة بذلك على تمايزها القبلي أو على رتبها وعلو شأنها بين القبائل الأخرى. ولكن الحج بعد الدعوة، أرسى مؤسسة جديدة تتعارض بل تلغى كل هذه الممارسات والشعائر. خالقه حالة توحيدية خالصة، تؤمن للمسلمين إحدى الدعائم التي تجعلهم قادرين على مقاومة الانشادات المختلفة من قومية وقبلية وما إلى ذلك. «فالمسلمون لا تبتلعهم القوميات، كما ابتلعت أمماً كثيرة، ولا يصبحون ضحيتها، ولا تكون بلادهم التي يحبونها بسائق الفطرة والعاطفة والعصبية، قبله يتوجهون إليها، وكعبه يحجون إليها، إنما هي قبله واحدة يتوجه إليها الشرقي والغربي، والعجمي والعربي، وإنما هي كعبه واحدة يحج إليها الهندي والأفغاني والمسلم والأوروبي والأمريكي... فالحج انتصار على القوميات الوطنية والعنصرية واللسانية، التي قد يصبح بعض الشعوب الإسلامية فريستها تحت ضغط عوامل كثيرة، فتتجرد جميع الشعوب الإسلامية من جميع ملابسها وأزيائها الإقليمية، التي تميز بعضها عن بعض ويتعصب لها أقوام، وتظهر كلها في مظهر واحد يسمى (الإحرام) في لغة الدين والفقهاء، وفي مصطلح الحج والعمرة، حاسرة رؤوسها ما بين رئيس ومرؤوس، وصغير وكبير، وغنى وفقير، وتهتف كلها لغة واحدة ونعمة واحدة: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك» (٢).

والطواف حول الكعبة يرى فيه الإمام الخميني رمزاً لحرمة «الطواف

١- ١ دائرة المعارف الإسلامية، عدد: ١٠٣، ١٩٧٥، القاهرة، مادة: الحج.

٢- ٢ أبو الحسن الندوي، المصدر السابق: ٢٦٣-٢٦٤.

ص: ٢٠٨

والسعى حول (أية مبادئ) غير مبادئ الله، وإن رجم الشيطان هو رمز لرجم كلّ شياطين الإنس والجنّ في الأرض. أيها الحجّاج... احمّلوا من ربّكم نداءً إلى شعوبكم، أن لا تعبدوا غير الله وأن لا تخضعوا لغيره» (١).

ويندرج الحجّ ضمن سلسلة اجتماعات المسلمين، بحيث يأتي تتويجها لها، وأهمها لجهة الشمول والاتساع:

أما أوّل هذه الاجتماعات فهو «على مستوى أهل الحى الواحد من البلد، يتكرّر في اليوم خمس مرات وقد شرع الله صلاة الجماعة.

وأما ثانيهما فاجتماع على مستوى أهل البلدة الواحدة، يتوالى مع كلّ أسبوع، وقد شرع له صلاة الجمعة.

وأما ثالثهما فاجتماع على مستوى العالم الإسلامي أجمع...» (٢).

حيث يتلاقى المسلمون من شتى بقاع الأرض؛ ليتعارفوا، ويتبادلوا الآراء والخبرات، ويغلبوا وحدتهم على ما يغالبها من انتماءات تاريخية واجتماعية وثقافية مختلفة.

يورد أحمد شلبي معلومات قيمة عن تجربته في الحجّ (٣)، عندما يشير إلى النقاط التالية:

- الحجّ اجتماع عام للمسلمين «لم يختر له مندوبون يمتازون بالحجيج والجدل، بل ترك الباب مفتوحاً لمن يستطيع أن يأخذ في هذا

المؤتمر الشامل بنصيب، والحجيج على هذا يمثلون كلّ الأقطار بل كلّ القرى، ويمثلون كلّ الثقافات وكلّ الطبقات.

- ومن مآثر الحجّ كذلك التعارف بين طوائف شتى جاءت من كلّ ربوع العالم الإسلامي، وطالما جلست وأنا أؤدّي هذه الفريضة مع

رفاق من هنا وهناك وتدارسنا مشكلات العالم الإسلامي» (٤).

- «وهنا مآثره مهمّة للحجّ أدركت عمقها من صلاتي ببلاد شتى بالعالم

١-١ رسالة الإمام الخميني قدس سره إلى الحجّاج عام ١٣٩٩ هجرية.

٢-٢ د. محمد سعيد رمضان البوطي: مقدّمة كتاب مناسك الحجّ والعمرة: ١٢.

٣-٣ أحمد شلبي: الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٩: ١٦٠-١٦٥.

٤-٤ المصدر نفسه: ١٦٣.

ص: ٢٠٩

الإسلامي، ففي كثير من هذه البلدان يوجد اهتمام كبير بلقب «حاج» الذي يحمله من أدى هذه الفريضة، ويبلغ اهتمام الناس بهذا اللقب أن الأبناء يرثونه عن الآباء والأجداد كما يحدث كثيراً في أندونيسيا وماليزيا والسودان، ولا ينسى رجل ذهب للحجّ ثم لزمه هذا اللقب أن يتّجه إلى الطيبة والاستقامة؛ ليكون أهلاً لحمله» (١).

إنّ الدلالات السياسيّة المختلفة التي تتضمّننها ظاهرة الحجّ في المجتمع الإسلامي تنطوي على سمات خاصّة بهذا المجتمع. فالسياسة ليست مؤسسة قائمة بذاتها ومنفصلة عن باقي جوانب وأبعاد الحياة الفرديّة والجماعيّة. بل هي لحظة تدرج ضمن ممارسة شموليّة متعدّدة الجوانب تعطى للنسق السياسي الإسلامي بعداً توحيدياً متميزاً.

ومن هنا خطأ موضوعين شائعتين في فهم دلالات الحجّ عند بعض المحللين والدارسين لهذه الظاهرة:

فالموضوعة التي تحاول أن تختزل الحجّ إلى ظاهرة تعبدية مقتصره على تنفيذ بعض الشرائع والفرائض، منظور إليها على أنّها ممارسات منفصلة عن باقي جوانب الحياة الاجتماعيّة، تجد لها تعبيراً في كثير من الدراسات والمواقف التي تتّخذها مؤسسات سياسيّة مختلفة. وهي بذلك تعكس موقفاً وممارسة تاريخيين، طالما تداخلا وتشابكا مع ظاهرة الحجّ ووسماها بهذا الطابع عبر التاريخ. غير أنّ هذه الوجهة لم تستطع تدجين ظاهرة الحجّ واستيعابها إلّالفتترات معيّنة من التاريخ. وبقيت هذه الظاهرة حيّة تنبض بالحياة وتنتظر المناخ المناسب لتعيد سيرتها الأولى كإحدى ركائز المجتمع التوحيدي الأساسيّة.

والموضوعة الثانية، إحالة الحجّ إلى مؤتمر سياسي سنوي على النمط الذي نلحظه في الممارسة السياسيّة الحديثة. (الاجتماع أو المؤتمر الحزبي وما شابه). إنّ خطأ هذه الوجهة يكمن في إسقاط الفهم المعاصر والسائد لطبيعة المؤسسة السياسيّة على ظاهرة مختلفة، لها أسّها ومنطقها الخاصان بها، واللذان يعبران عن

ص: ٢١٠

أنفسهما في ظاهرة الحجّ الشمولية، والتي يندرج فيها في زمن واحد، المستوى العقدي، والفكري، والنفسي، والاقتصادي والسياسي... مما يعطى لهذه الممارسة خاصية وفراة مميزتين، كما يعطى لكل بعد من أبعاد هذه الممارسة طابعاً مميزاً له أسسه وقواعده ومنطقه اللازم له.

لذا تؤكد ضرورة العمل على كشف المنطق العام الذي يحكم هذه الظاهرة، مستندين إلى منهج شمولي مرن، يسمح للباحث بالانفتاح على حقائق الواقع ومعطياته، دون أن يسمح للروى المنهجية والنظرية المختلفة، أن تكون قالباً جامداً، عاجزاً عن التقاط دلالات وأبعاد هذه المؤسسة. فلا بدّ والحالة هذه من تطوير مفاهيم وأساليب منهجية ونظرية علمية دقيقة تستجيب و تتلاءم مع طبيعة الموضوع المدروس، بغض النظر عن المواقف القيمية والنظرية التي تسود علم الاجتماع العام وخاصة المناهج السائدة في المجتمع الغربي الحديث في تجلياته المختلفة.

فمفهوم التوحيد، والجماعة، والفطرة، والعبادة، والشرع، وما إلى ذلك من موضوعات منهجية ونظرية، كمفهوم العصبية، والقبلية والأمة... كلها مفاهيم أساسية في دراسة التجربة التاريخية والمعاشة من قبل الجماعة التوحيدية. كى يتمكن الباحث من بلورة مفاهيم اجتماعية دقيقة تصلح للتعامل مع طبيئة الواقع ودلالات ممالكة المختلفة.

إنّ المخاض الذي تعيشه الشعوب الإسلامية، والذي بلغ أشده في هذه المرحلة سيفتح الطريق أمام الشخصية الفكرية الإسلامية لأن تستعيد حركتها بعد أن طال زمن الانكماش والسير المتعثر، أى أنّ عمق الجراح وكثافة الأصفاد تستدعى بالضرورة نهضة شاملة لن يستقيم أىّ بنیان منها إلّا عبر التواصل والتآزر مع الأبنية الأخرى.

إنّها بداية امتحان لقدرة المسلمين على المواجهة الحضارية الشاملة في ميادين الجهاد المختلفة.



ص: ٢١١

الهوامش:

**الحجّ في الادب العربي**



ص: ٢١٣

الحجّ في الأدب العربي

إعداد: محمدرضا الأنصاري

قصيدة الحجرة النبوية الشريفة

أنشأ هذه اليتيمة العصماء السلطان عبدالحميد خان بن السلطان أحمد خان عام ١١٩١ هـ، واستحقت بإخلاص ناظمها وحبّه الصادق لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله أن تنقش على الحجرة النبوية الشريفة، وقد استخرجت من كتاب تركي قديم هو: «مرآة الحرمين» لأيوب صبري باشا.

يا سيدي يا رسول الله خذ بيدي مالي سواك ولا ألوى على أحد  
فأنت نور الهدى في كل كائنه وأنت سرّ الندى يا خير معتمد  
وأنت حقاً غياث الخلق أجمعهم وأنت هادي الورى للهذى المدد  
يا من يقوم مقام الحمد منفرداً للواحد الفرد لم يولد ولم يلد  
يا من تفجرت الأنهار نابعة من أصبعيه فروى الجيش ذا العدد  
إنى إذا سامنى ضيم يُرْوَعنى أقول: يا سيّد السادات يا سَندى  
كن لى شفيعاً إلى الرحمن من زللى وامئن علىّ بما لا كان فى خَلدى  
وانظر بعين الرضا لى دائماً أبداً واستر بفضلك تقصيرى مدى الأمد

ص: ٢١٤

واعطف عليّ بعفوٍ منك يشملني فإنني عنك يا مولاي لم أحدِ  
 إنني توسّلتُ بالمختار أشرفٍ من رقي السموات سرّ الواحدِ الأحدِ  
 ربّ الجمالِ تعالى الله خالقه فمثله في جميع الخلق لم أجد  
 خيرَ الخلائقِ أعلى المرسلين ذرّى ذخر الأنام وهاديهم إلى الرشيدِ  
 به التجأتُ لعلّ الله يغفر لي هذا الذي هو في ظنّي ومعتقدي  
 فمدحه لم يزل دأبي مدى عُمرى وحُبّه عند ربّ العرشِ مستندي  
 عليه أزكى صلاةٍ لم تزل أبداً مع السلام بلا حصر ولا عدد  
 والآل والصحب أهل المجدِ قاطبةً بحر السماح وأهل الجودِ والمدد  
 رسالته وقصيدته

تمتلك مكتبة البرلمان الإيراني (كتابخانه مجلس شورای اسلامی) مخطوطات نفيسة ونادرة، منها مجموعة برقم ١٤٤٤٨ (جاء وصفها في الجزء ٣٨ ص ٥٨٩ من فهرس المكتبة) فيها عدّة رسائل وكتب، منها الرسالة المسماة ب (تذكرة ابن عراق)، وهو أبو الحسن علي بن محمّد بن عراق الحجازي المدني الكناني، المتوفى سنة ٩٦٣ هـ، وهو معدود في أعلام الشافعية.  
 أمّا أصل التذكرة فيبدو أنّها قُدمت وبقى لنا منتخبٌ منها، وأدرج جامع المجموعة الجزء الثاني من هذا المنتخب فيها، وهذا المنتخب من التذكرة يحتوي على قصائد ومقطوعات شعريّة ونثريّة، وبعض الرسائل الصغيرة، وقد اخترنا منه رسالة وقصيدته.  
 أمّا الرسالة: فهي تحتوي على وصفٍ للسفرة التي قام بها العلامة الأديب شهاب الدين أبو الثناء محمود بن سليمان إلى الديار المقدّسة، وقد نعت في صدر الرسالة بأنه (كاتب سرّ الشريف بدمشق سنة ٦٨٩ هـ).  
 والرسالة تتضمّن أحاسيس أبي الثناء ومشاعره الجياشة في تلك المواقف

ص: ٢١٥

الشريفة، وخاصية حين زيارته لمثوى النبي صلى الله عليه وآله ورؤيته للمليحة الملفوفة في الخمار الأسود أى الكعبة المشرفة، وقد مزج أبوالتناء بين النثر الرائق والشعر العاطفي، وأبرز من خلال أسلوبه الأخاذ المتردد بين الشعر والنثر عواطفه وأحاسيسه، وهو في الواقع ترجمان لمشاعر كل مسلم تطأ قدمه تلك الرحاب الطاهرة.

والرسالة من ورق ١٥٢ پ إلى ورق ١٥٥ ر من المجموعة.

أما القصيدة: فهي لأحمد بن محمد الزعفراني، ولا نعرف شيئاً عن تفاصيل حياته، سوى ما يستفاد من مطاوى شعره أنه كان عارفاً صوفياً، أو لعله يتظاهر بهما في هذه القصيدة، والقصيدة تحتوي على ١٧ بيتاً، أوردها الجامع في الورق ١٢٧ من المنتخب.

[١٥٢ پ] العلامة الأديب شهاب الدين أبو التناء محمود بن سليمان، كاتب السر الشريف بدمشق المحروسة، كتب إلى بعض أصدقائه لما حج سنة ٦٨٩، يصف فيها ما جرى له:

أما بعد: الله الميسر في البحر، الميسر أداء نسيك الحج؛ مع السلامة من النحر (١). والصلاة على نبيه الذي تشد الرحال إلى حرمه (٢)، وتحذى الآمال إلى روضه كرمه.

فإننا سرتنا لأداء حجة الإسلام، وزيارة (٣) قبر النبي عليه أفضل الصلوة والسلام، نستوطن للشوق الوهاد (٤)، ونؤثر التوم على الفتاد الوثير من المهاد، لا يستقر بنا داره منزل، ولا نبيت بحمي إلالواكري عنا بمغزل.

ونسأل والدار تدنو بنا عن القرب في كل يوم مراراً

وما ذاك إنا سئمتنا الثرى ولكن دنونا؛ فزدنا انتظاراً

وما منا إلامن لبس الدجى، وأدرع النهار، وأرخى ركائب دموعه حتى

١-١ التلف والهلاك.

٢-٢ إشارة إلى الحديث النبوي المشهور: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد...» ومنها مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام، وذلك لأجل درك فضيلة المسجد، وزيارة قبر النبي صلى الله عليه وآله.

٣-٣ إشارة إلى الحديث النبوي الذي رواه أصحاب السنن والمسانيد، أنه: «من حج ولم يزرني فقد جفاني» وقدواظب المسلمون على زيارة قبره صلى الله عليه وآله؛ إما قبل بدء المناسك، أو بعد الانتهاء منها، أو فيهما.

٤-٤ الصحارى والبرارى المقفرة.

ص: ٢١٦

جعلها في أول القطار، وكلما خشيتُ على التوقِ الكلال، وعلى الحداة (١) الملل، أنشدتُ بلسان الحال:

لا تَسْأَمِي يَا نُوقَ طُولَ السَّرَى فَقَدْ بَدَتْ أَعْلَامُ وَادِي الْقَرَى

وَلَا تَمَلِّي قَطْعَ عَرَضِ الْفَلَا وَشِدَّةَ السَّيْرِ وَجَذَبَ الْبَرَى

فَقَدْ عَرَضْنَا الرُّوحَ فِي حُبِّ مَنْ سَرْنَا إِلَيْهِ وَالْحَبِيبُ اشْتَرَى

غَدَاً تَرِينِ الدَّارِ مَا هَوْلُهُ وَحُسْنِ مَنْ تَهْوِينِ قَدْ أَسْفَرَا

فَصَدْتُ مَنْ عَمَّ جُودُهُ (٢) فَاسْتَبَشِرِي مِنْهُ بِحُسْنِ الْقَرَى (٣)

كلما قيل: غداً تدنو الدار، ويقرب المزار، طربتُ على السماع، وتقربتُ الملتقى من ثنيات الوداع (٤)، وكفكفت العبرات، وأضفتُ إلى

ما سلف من الأبيات:

قالوا: غداً ندنو؛ فواحسرتا لو كان بالعمر غداً يُشترى

ياليلاً قد بقيتُ هل ترى أحمدَ في صبحِ دُجَاكِ السُّرى؟

أحسدُ ريحاً خَطَرْتُ بِالْحِمَى وَبَارِقاً فِي سَاحْتِيهِ سَرَى

وحين وصلنا إلى ثنية المدينة النبوية، علمنا أن لمشاركة اسمها استحقت الثنايا التقبيل، ولما انجلت عنه بارقة اللقاء، اتصف بها الاشراق

واتصل، فشاهدنا نوراً خالف العادة إشراقه، وعز على ضوء النهار لحاقه، وخرق العادة دليل الإعجاز، والنور الذي يشرق به القلوب، هو

المستحق لاسم الحقيقة، وما سواه مجاز؛ ففسحت لطرف طرفي في ذلك الأفق مجالاً، وأرسلتُ دمعى سجالاً، وأنشدتُ إرتجالاً:

اللَّهُ أَكْبَرُ أَيُّ بَرْقٍ لَاحَا لِي مِنْ ثَنِيَاتِ الْوَدَاعِ صَبَاحَا

مَلَأَ الْوَجُودَ فَخَلَّتْ أَنْ الشَّمْسُ قَدْ طَلَعَتْ وَمَا نَشَرَ النَّهَارُ جَنَاحَا

يَالِيلاً بِالنُّجُجِ أَسْفَرَ صُبْحُهَا نَفْسِي فِدَاكَ وَإِنْ غَرَمَتْ أَرْوَاحَا

١-١ الذي يحدو للإيل.

٢-٢ هكذا ورد.

٣-٣ الضيافة.

٤-٤ موضع على طريق قباء جنوب المدينة المنورة، كان مُستقبل ومستودع الحجيج.

ص: ٢١٧

وصيحه قد بشرت بمحمد هاك القلوب، ودونك الأرواحا  
هذي التخيل، وهذه الدار التي جبريل كان بها مسا وصباحا  
فعلام لا تطؤ الجفون ترابها ويقل ذلك لو يكون مباحاً

ولما تحدرنا من النصاب، وقدفتنا بطون الأودية من أفواه الشعاب، ولاحت لنا الأنوار النبوية من تلك القباب، وابتدرنا إلى الحرم  
الشريف، والكريم قد فتح الباب، ورفع الحجاب، وملا بالبر الرحاب، فاستعظمتنا الإقدام على المقام، وعجزنا عن أداء ما يجب من  
السلام، فعبرت العبرات عن الكلام، واقتدينا بقاضي قضاء الإسلام (١)، في الوقوف بين يدي ساكنه عليه أفضل الصلاة والسلام،  
وانتظمتنا في زمرة؛ لنسألهم في قرأه، إذ من سنة الرسول صلى الله عليه وآله إكرام الكرام.

وحين فرت بكون مع تلك الزمرة فوزاً عظيماً، وإني دخلت مع تلك الفوجة مدخلاً كريماً، وثقت بعد الاستغفار بالتوبة والرحمة لقوله  
تعالى: ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً (٢)

. وأخذنا في تلاوة القرآن المنزل عليه في حضرته، وشك (٣) كل منّا نفسه جالساً بين يديه، يعرض درسه في سوره، ولما ختمنا  
التلاوة بالدعاء، وأطفأنا؛ بل أضرمنا نيران الشوق بماء البكاء، هنا النفوس ببلوغ المني، وزوال العنا، وأنشدت مغلناً:

بلغت مرادى ونلت المني وزاد السرور وزال العنا

فماذا الذي تزجى بعدها وهذا الرسول وهذا أنا

فبشراك بشراك يا ناظري تمل وإياك أن تعبنا

فحيث التفت رأيت الرسول وآثاره من هنا أو هنا

تمل فهذا مكان الحبيب وهذا التواصل قد أسكنا

وحل الدموع إلى وقتها فإن حسن الدموع عند الهنا (٤)

١-١ أشار كاتب الرسالة في هامش المخطوطة إلى أن القاضي هو شهاب الدين الجويني.

٢-٢ سورة النساء: آية ٦٤.

٣-٣ أي ظن وتخيل.

٤-٤ هكذا ورد.

ص: ٢١٨

فَهَبْتُ عَلَيْنَا نَفْحَاتِ الْقَبُولِ مِنْ ذَلِكَ الْخَبَابِ، وَنَفَحْتَنَا أَرْوَاحَ الرَّحْمَةِ فَاجْتَلَيْنَا (١) الْمَحْبُوبِ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ، وَأَقَمْنَا كَذَلِكَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، وَهِيَ الْعَادَةُ فِي ضِيَاةِ الْعَرَبِ الْكِرَامِ، وَفِي كُلِّ لَيْلَةٍ يَتَجَدَّدُ لَنَا مِنَ اللَّطَائِفِ وَالظُّرْفِ، وَالطَّرَائِفِ وَالزُّلْفِ، مَا تَقْصِيرُ الْأَلْسَنَةُ عَنْ نَعْتِهَا، وَمَا تَرَى مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ اخْتِهَا (٢)

، وَلَمَّا نَشِبْتَ قَلْبِي بِأَهْدَابِ تِلْكَ الْخِيَامِ، وَوَطْنِ نَفْسِهِ دُونَ بَقِيَّةِ الْجَسَدِ عَلَى الْمُقَامِ، خَادَعْتُ مَرَامَهُ، وَأَنْشَدْتُ أَمَامَهُ:

لِلَّهِ أَيُّ هَوَى يُرَامُهُ حَيْثُ الْقُلُوبُ الْمُسْتَهَامَةُ

لَمْ يَبْقَ قَلْبٌ فِي الْحِمَى إِلَّا وَقَدْ أُعْطِيَ زِمَامَهُ

وَلَمَّا اسْتَلْفَتْ نَجَائِبَ الرَّفَاقِ، وَتَهَادَيْنَا تُحْفَ الْأَسْوَاقِ، وَتَشَارَكْنَا رَوْعَةَ الْفِرَاقِ، أَعْدَى الْمَطَايَا تَشَاكِبَةَ الْغِرَامِ، فَلَوْ أَمِنَ مِنْ زَجْرَةِ الْحَادِي رَجَعْنَا بِنَا، وَحِينَ حَمِدْنَا السَّرِيَّ، وَوَصَلْنَا إِلَى أُمِّ الْقَرِيِّ، وَعَلِمْنَا أَنَّ أَضْيَافَ اللَّهِ، فَوَثِقْنَا مِنْهُ بِحُسْنِ الْقَرِيِّ، وَتَبَدَّتْ لَنَا الْكَعْبَةُ الْغَرَاءُ فِي أَسْتَارِهَا، وَتَجَلَّلَتْ عَلَيْنَا الْمَلِيحَةُ فِي أَنْوَارِهَا:

وَضَعْنَا جُبَاهَا فِي الَّذِي قَدْ تَهَلَّلَتْ أَسَارِيرُهَا مِنْهَا وَزَادَ سُورُورُهَا

وَطَفْنَا بِهَا سَبْعًا وَرَقَّتْ ظِلَالُهَا عَلَى خَائِفٍ مِثْلِي أَتَى يَسْتَجِيرُهَا

وَحِينَ وَقَعَ نَظْرِي عَلَيْهَا، وَمِثَلْتُ لَدَيْهَا، أَنْشَدْتُ بِلِسَانِ الْخُضُوعِ، وَكَتَبْتُ بِمَاءِ الدَّمُوعِ:

يَارَبَّ ذَا الْبَيْتِ قَدْ وَافَيْتُ سَاحَتَهُ خَجَلَانٌ أَحْمِلُ بَيْنَ النَّاسِ أَوْزَارِي

فَاجْعَلْ قِرَايَ وَإِنْ لَمْ اسْتَحَقَّ قَرِيٌّ بِمَا تَحَمَّلْتَهُ عَثَقِي مِنَ النَّارِ

وَحِينَ أَخَذْنَا فِي طَوَافِ الْقُدُومِ، عَجَّلْنَا لَنَا الْحَقَّ الْكِرَامَةَ بِمَوْجُودِهِ عَلَى الْمَعْدُومِ، فَجَادَتِ السَّمَاءُ بِمَائِهَا، وَسَيَّحَبَ الرَّحْمَةُ مِنْ أَرْجَائِهَا، وَقَضَيْنَا الْمُنَاسِكَ مَهْتَدِينَ بِقَاضِي

١-١ كشفنا.

٢-٢ سورة الزخرف: آية ٤٨.



ص: ٢١٩

القُضَاءُ فِي قِضَائِهَا، مَقْتَدِينَ بِعَلْمِهِ فِي مَشْرُوعِ آدَابِهَا، وَعُيِدْنَا إِلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ نَطُوفُ بِهِ وَنَسْتَلِمُ، وَنُقَبِّلُ أَرْكَانَهُ وَنَلْتَزِمُ، وَنَصِيرُ عِنْدَ اسْتِلَامِ الْحَجَرِ عَلَى اصْطِلَاءِ الْاصْطِرَامِ، وَنَعْتَزِلُ الزَّحَامَ عِنْدَ الْوُرُودِ عَلَى مَنْهَلِهِ، وَالْمَنْهَلُ الْعَذْبُ كَثِيرُ الزَّحَامِ، فَكَمْ بَتُّ فِي صِدْحَتِهِ لِيَالِي أَيَّامِ الْكَعْبَةِ، نَسْتَنْزِلُ الْأَلْطَافَ بِالْمَطَافِ، وَنَلْدُ الْمُقَامَ بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ، وَعَرَضْتُ عَلَى سَمْعِهِ الْكَرِيمِ قِصِيدَهُ فِي الْكَعْبَةِ، مِنْ جُمَلَتِهَا:

تَبَدَّتْ وَقَدْ مَدَّتْ عَلَيْهَا سُتُورَهَا وَلَوْ سَفَرْتُ، أَعْنَى عَنِ الْحُجْبِ نَوْرَهَا

مَمْتَعَةٌ لَا عِزَّ إِلَّا جَارَهَا وَلَيْسَ الْغِنَى الْمَحْضُ إِلَّا فَقِيرُهَا

تَجَلَّتْ فَأَخْفَى مَا عَلَيْهَا مِنَ الْحَلِيِّ سَنَاهَا كَمَا تُخْفَى اللَّيَالِي بِدَوْرَهَا

يَطُوفُ بِهَا الْأَمْلَاكُ فِي كُلِّ سَاعَةٍ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْأَنَامِ مُرُورَهَا

وَيَسْجُدُ مِنْ كُلِّ الْجِهَاتِ لَوَجْهِهَا سِوَاءَ تَرَاءَتْ أَوْ تَوَارَتْ قُصُورَهَا

قَطَعْنَا إِلَيْهَا الْبَيْدَ لَيْسَ يَرُوعُنَا سُهُولُ الْفِيَا فِي دُونِهَا وَوُعُورَهَا

وَهَلْ تَزْهَبُ الْأَخْطَاءَ نَفْسٌ مَشُوقَةٌ تَبِيَّتْ وَلَيْلٌ بِالْحَمَى تَسْتَزِيرُهَا

وَكَيفَ يَخَافُ النَّفْسُ مِنْ دُونِهَا الرَّدَى وَقَدْ قَصَدَتْهَا وَالنَّبِيُّ خَفِيرُهَا

وَحِينَ طَفْنَا طُوفَ الْوُدَاعِ، وَتَعَيَّنَ الْعَزْمُ عَلَى الْأَزْمَاعِ (١)، وَدَعْنَا الْبَيْتَ الْحَرَامَ، وَالْدُّمُوعَ تَسْتَوْقِفُ الْقَطَارَ، وَتَسْتَوْكِفُ الْأَمْطَارَ، وَلَمَّا

وَصَلْنَا إِلَى رَأْسِ وَادِي الْعَقِيقِ (٢)، وَتَرَاءَتْ لَنَا بَعْدَ الْبَعَادِ أَعْلَامَ ذَلِكَ الْفَرِيقِ، أَعْجَلَنِي فَرَقَ الْفِرَاقِ عَنِ اسْتِكْمَالِ الْخَطِّ مِنْ فَرَحِ التَّلَاقِ،

فَأَنْشَدْتُ قِصِيدَهُ مِنْ جُمَلَتِهَا:

ذَاكَ الْفِرَاقُ وَإِنْ أَصَمَّ مَسَامِعِي لَمْ يَخُلْ مِنْ هَذَا اللَّقَاءِ مَطَامِعِي

فَلِذَاكَ لَمْ يَبْلُغْ بِي الظُّمَأُ الْمَدَى حَتَّى أَعَادَ إِلَى الْعَذِيبِ مَشَارِعِي

لَمْ يَبْقَ بَعْدَ الْبُعْدِ إِلَّا أَنْتِي فَارَقْتُ أَحْبَابِي بِنِيَّةٍ رَاجِعِ

مَا الشَّأْنُ فِي بَيْنِ تَوَقُّعِ اللَّقَاءِ فِي مَنْتَهَاهُ، فَكَانَ أَقْرَبَ وَقَعِ

١-١ المضاء في الأمر والعزم عليه.

٢-٢ من الوديان المشهورة ببساتينها ونخلها وزرعها بأطراف المدينة المنورة وهي تقع في الشمال الغربي منها.

ص: ٢٢٠

الشأن في هذا الذي أخشى به إن الحمام يكون عنهم قاطعي  
لو لم اعلل مهجتي بلقائكم لم يستقر القلب بين أضلاعي (١)  
خلوا فؤادي في الحمى وحشاشتي كزماً لأذكر عندكم بوداعي  
وتشارعنا إلى الروضة الشريفة، وكنا ظننا أن الدموع نعدت، وأن نيران القلوب خمدت، فتراكمت من العيون سجيها، وتزايدت من القلوب  
لهيها، وأخذنا بعد السلام في شرح الأشواق، وإن كانت الإحاطة بوصفها ما لا يطاق، وبتنا نطفئ نيران الأشواق بماء العبرات، وننادي  
رسول الله صلى الله عليه وآله من أمام الحجرة؛ لا من وراء الحجرات، وخزجنا بتيه العود قبل الرحيل، وعزمنا على الرجعة والقدر يتلو،  
ونحن على ذلك الحال وحيل، ومنعنا دخول الحرم لتوقع السفر، وزعموا أن من خطر له الدخول كان على خطر، فانقطع بي الرجاء،  
وضاقت بي الأرجاء، وأنشأت من الأبيات المقدم ذكرها:

قالوا: الرحيل، وما تملت باللقا عيني، ولا امتلأت بغير مدامعي  
فتيقنت روعي بأن مقالهم أن يصدق الحادي أشد مصارعي  
فوقفت بين تأمل وتململ يبدو الشورور على فؤادي الجازع  
خيران لا أدري لقرب رائق أذرى المدامع، أم لبعدي راجع  
تمت الرسالة.

وإليكم القصيدة:

لأحمد بن محمد الزعفراني، قال وقد حجج:  
إليك حجتي لا للبيت ذي المدر وأنت قصدي لمحو الوهم والأثر  
وأنت ركني لا أبغى به بدلاً ولا أحجج إلى حجر ولا حجر

١-١ هكذا ورد.

ص: ٢٢١

وَصَفَوْتِي فِيكَ أَنْ أَصْفُو مِنَ الْكَدْرِ وَمَرَوْتِي أَنْ يَمَرَ الْكُلُّ عَنِ نَظَرِ  
 وَزَمَزَمِي زَمَّ قَلْبِي عَنِ هَوَايَ وَمَا أَخَافُ مِنْهُ عَلَى خَدَيَّ مِنْ بَصَرِ  
 وَالسَّعَى سَعِيَانِ: سَعَى الْقَلْبِ أَشْرَفُ مِنْ سَعَى عَلَى قَدَمٍ مَذْمُومَةٌ الْخَطَرِ  
 وَالْحَجُّ حَجَّانِ: حَجُّ مَفْرَدٌ نُسْكَاً وَقَارُنٌ عُمَرَةٌ بِالْوَرْدِ وَالصَّدْرِ  
 وَكَوْنُهُ مُفْرَدًا أَعْلَى لِرُتْبَتِهِ لَفْظًا وَمَعْنَى وَعِنْدَ الْبَحْثِ وَالنَّظَرِ  
 وَزُلْفَتِي غَيْرَ مَا سَمَّوهُ مُزْدَلِفًا بِالْقُرْبِ مِنْكَ وَهَدَيْتِي الرُّوحَ لِلْحَزْرِ  
 وَفِي مَنِي لِي أَمَانٌ لَسْتُ أَنْكَرُهَا عِنْدَ الْمَعْرِفِ أَقْضَى فِيهِمَا وَطَرِي  
 وَمَا جِمَارِي أَحْجَارٌ بِلَا شَرِّ مِنْ حَرِّ جَمْرِ فَوَادٍ دَائِمِ الشَّرِّ  
 وَمَسْجِدُ الْخَيْفِ خَوْفُ الْفَوْتِ مَنْ أَمَلِي وَأَهْ آهٍ عَلَى قَلْبِي مِنَ الْحَذْرِ  
 وَأَيْنَ لَا أَيْنَ لِي زَادٌ يُبَلِّغُنِي غَيْرَ الرَّجَاءِ الَّذِي أَحْدُو بِهِ سَفَرِي  
 لَقَدْ حَجَجْتُ وَمَا قَرَّبْتُ رَاحِلَهُ غَيْرَ الْيَقِينِ، وَفِيهِ أَيْ مُعْتَبِرِ

ص: ٢٢٢

زادى اليقين، ومائى عَبرتى أسفاً خوفاً من الرّد، والإشفاقُ من عَررى  
يا زعفرانئى صَحح ما نَطَقْتَ به وامهد لِنَفْسِكَ قَبْلَ المَكثِ فى الحُفْرِ  
وَحاسِبِ النَّفْسِ فى الأوهام، وابكِ على ما كانَ مِنْكَ، وإِلا فابكِ لِلعُمرِ  
اسْتَغْفِرِ اللهَ مِنْ قولٍ بلا عَمَلٍ وَمِنْ مقامى على الإنكار مع كبرى  
\*\*\* الهوامش:



ص: ٢٢٤

مهمّات مشبوهة في الديار المقدّسة (٦)

**مهمّات مشبوهة في الديار المقدّسة (٦)**

مهمّات مشبوهة في الديار المقدّسة (٦)

حسن السعيد

بورتون؛ ضابط مخبرات متنكر يطالب باحتلال مكّة!

في الحلقات السابقة من هذا الموضوع، تطرّق الحديث إلى ظاهرة قيام عدد من الغربيين بالمجيء إلى المنطقة الإسلامية، خاصّةً الحجاز بغية استكشافها والأطلاع عليها عن كثب.

كانت البدايات المتردّدة الخجول مطلع القرن السادس عشر؛ لتغدو لاحقاً ظاهرة مثيرة للانتباه، لاسيّما في أعقاب حملة نابليون على مصر (١٧٩٨ م)، عبر الحضور المكثف لشتى الدول المتنافسة على إيجاد مواطني قدم..

وفي غمرة تصاعد التنافس الاستعماري.. أمست جزيرة العرب بشكل عام، والحجاز خاصّةً، مسرحاً لمغامرات عديدة، قام بها دبلوماسيون وضباط وموظفون ومغامرون وجواسيس، مع حرص شديد على إخفاء هويّاتهم الحقيقيّة، والتظاهر بأنهم مسلمون يؤدّون فريضة الحجّ، منتحلين أسماءً إسلاميةً إمعاناً في التمويه، بل ذهب بعضهم إلى الزعم بأنّه من سلالة الأشراف! هنا نواصل رصد هذه الظاهرة، من خلال التعرّف على أبرز شخصها،

ص: ٢٢٥

محاولين تسليط الضوء الكاشف على الجزء الطافي من مهماتهم المشبوهة.

\*\*\* (الحاج) بورتون!

صبيحة يوم الخامس والعشرين من تموز (يوليو) ١٨٥٣ م، وصل المدينة المنورة بريطاني متنكر باسم «الحاج عبدالله»؛ ليغدو أحد أبرز الرحالة الأوروبيين الذين قاموا بمهمتهم المناطة بهم خير قيام.

ولم يكن هذا (الحاج) سوى «السير ريتشارد فرنسيس بورتون» الموظف في شركة الهند الشرقية المعروفة، وقد حظي «بورتون» من الشهرة الواسعة، بسبب مهمته تلك، حتى إن العديد من الأوساط قد أولته اهتماماً خاصاً، إذ لم يكتب عن أحد بقدر ما كتب عن رحلة «بورتون» إلى جزيرة العرب (١).

هذا الاهتمام الخاص لم يولد من فراغ، كما لم يكن محض تقليد بريطاني إزاء رجالها المغامرين الكبار، بقدر ما يتعلق الأمر بالديناميكية التي اتسم بها بورتون. فليس هناك بين جميع الرحالة الذين ذهبوا إلى الوطن العربي من هو أكثر نشاطاً أو أغزر قلماً من الرحالة الفيكتوري، في أواسط القرن التاسع عشر وريتشارد بورتون. ما من رحالة في جزيرة العرب، باستثناء تي.

إس. لورنس، كتبت سيرته حياته مرات أكثر منه، بل إن أول سيرته نُشرت عنه قبل عشر سنوات من وفاته. لقد رحل إلى أفريقيا والهند وسوريا وشمال أفريقيا والبرازيل وجزيرة العرب التي ظلت بين هذه جميعاً، كما قال هو نفسه:

«البلاد التي تولعت بها» (٢).

كتب بورتون تقريباً في كل المواضيع من تربية الصقور، إلى المناجم، إلى الآثار، إلى الطب، إلى الهندسة، إلى تسلق الجبال إلى آخره. وكتب عن رحلاته في كل مكان من الأرض تقريباً، ووضع عن أفريقيا وحدها ١٣ كتاباً تقع في ٤٦٠٠ صفحة، غير أن الجزيرة العربية ورحلته إليها ظلت، كما قال أفضل ما فعله في حياته (٣).

وإذا كانت مقولة «المرء ابن بيئته» تحظى بقدر كبير من المصداقية، فإن بورتون سيكون بالتأكيد ابن عصره الفيكتوري [نسبة إلى عهد حكم ملكة

١- ١ سمير عطا الله؛ «قافلة الحبر: الرحالة الغربيون إلى الجزيرة والخليج ١٧٦٢-١٩٥٠ م، دار الساقى، لندن، ١٩٩٤ م: ٨١ وصحيفة الحياة ط لندن: الاثنين ٤ أيار مايو ١٩٩٢ م، مقال مسلسل؛ «أوروبيون في الشرق-٧» لرلى الزين.

٢- ٢ د. حلمي خضر ساري؛ «صورة العرب في الصحافة البريطانية»، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٨ م: ٤٣.

٣- ٣ قافلة الحبر؛ مرجع سابق: ٨١.

ص: ٢٢٦

بريطانيا فيكتوريا الممتدّ من ١٨٣٨ - ١٩٠١ م] والذي اتّسم بتصعيد وتأثر التطلّع الاستعماري، في الغرب عموماً، وفي بريطانيا بشكل خاصّ.

من هنا؛ كان مستشرق القرن التاسع عشر إمّا باحثاً (مختصّاً بالصين، أو بالإسلام، أو بالدراسات الهندو-أوروبية)، أو متحمّساً موهوباً (مثل هوغو في «الشرقيون»، وغوته في «الديوان الغربي الشرقي»)، أو كلا هذين (مثل ريتشارد بورتون، ادواردلين، فردرك شليغل) (١)، وقد كان بورتون - كرحالة - مغامراً حقيقياً، كما كان - كباحث - قادراً على الوقوف ندّاً لأيّ مستشرق جامعي في أوروبا، وكان - كخصيته - واعياً وعباً تاماً لضرورة التصادم بينه وبين المعلمين الرسميين، الذين أداروا أوروبا والمعرفة الأوروبية بهذه اللاهوية الدقيقة وتلك الصرامة العلمية. ويشهد كلّ شيء كتبه بورتون، لهذا الاستعداد للصدام، بازدياد لمنافسيه نادراً ما بلغ الدرجة التي بلغها في تمهيدته لترجمته لألف ليلة وليلة. ويبدو أنّه قد وجد نوعاً خاصّاً من المتعة الطفولية في إظهار أنّه كان ذا معرفة تفوق معرفة أيّ باحث محترف، وأنّه قد اكتسب تفاصيل تفوق كلّ ما اكتسبوه، وأنّه كان قادراً على التعامل مع المادّة بفطنة وكياسة وطراوة هم عنها عاجزون.

وقد اعتبر بورتون بحقّ الأوّل في سلسلة من الرحالة الفيكتوريين إلى الشرق الذين كانوا فرديين بعنف (٢).

وسيكون لتصاعد روح الثقة بالنفس والشعور بالقوّة في أوروبا القرن التاسع عشر مع تقدّم عقود القرن، أثره في نوع الرحالة ومهمّاتهم ومقدار تصميمهم.

وسنجد في هذا العصر رجلاً مثل بورتون يتجوّل في طول الجزيرة وعرضها، غير متورّع عن ارتكاب جريمة القتل بعد شكّ أحد الأهلالي بأنّ عبد الله ليس سوى رجل نصراني لا يحسن المعرفة بالإسلام أو اللغّة العربيّة. ولكنّ (الحاج) عبد الله سيعود ليغذّي المخيلة العربيّة من خلال أوراقه التي نشرتها زوجته بعد وفاته ومن قصص ألف ليلة وليلة التي ترجمها. كما أنّه سيمهدّ السبيل إلى

١-١ ادوارد سعيد؛ «الاستشراق: المعرفة. السلطة. الانشاء»، تعريب كمال أبو ديب، ط ٢، ١٩٨٤ م: ٨١.

٢-٢ المرجع نفسه: ٢٠٦.



ص: ٢٢٧

مكتشف آخر هو بلغريف وتاليه داوتى. وسيضع هذان الرجلان تقليداً جديداً فى تاريخ الرحلات إلى الجزيرة العربية ذلك هو تخليهما عن اتخاذ صفة المسلم (١).

الشخصية المغامرة

وككل الشخصيات المثيرة للجدل، فإن المؤرخين- والبريطانيين تحديداً- اختلفوا فى تقييم بورتون، ولو أن الخلاف لم يتناوله كرجل غامض.. لكن البعض رأى فيه، فى تلك المرحلة التوسعية من تاريخ بريطانيا، شيئاً شبيهاً بالجنرال غوردون الذى حاول تطويع السودان بقوة المدفع..

وفى حين ينظر «روبن بيدويل» بخصه إلى بدايات بورتون واختياره اللغة العربية فى او كسفورد، فإن مؤرخين آخرين يرون فى هذا الاختيار تكريساً للغة أحبها منذ البداية.

وفى حين يرى بيدويل فى سفر (والده) جوزيف بورتون إلى فرنسا وإيطاليا شيئاً من «العجربة» فى دماء العائلة، فإن البعض الآخر يرى تفسيرات أكثر دقة فى سيرة بورتون الأخرى. والواقع أن سفر جوزيف بورتون فى العام ١٨٢١، أى بعد قليل من رؤيته للنور، هو الذى سيغير الكثير من مجرى حياته.

كان هناك محرّك واحد لريتشارد بورتون هو حب الشهرة، إنها الرغبة التى لن تشبع أبداً.. كما كان بورتون مجموعة من المتناقضات (٢) فقد كان يواجه إهمال وعدم احترام بعض الناس له بشجاعة ومرارة، حتى إنه كان يطيب له أن يظل مجهولاً، ومع ذلك فقد كان على يقين أن العالم لا يمكن أن يغفل اسمه فى النهاية.

لقد كان بورتون محبباً للظهور بشكل ربما اعتبره أبناء طبقته من الانكليز ممجوجاً ومبتذلاً، وكان طيله حياته متضيقاً، أو ربما أتلفه ضيق الالفق الذى كان رجال طبقته على النقيض يتفاخرون به. ويجب أن نضيف أيضاً- يقول بيتربرينت-: «إن القوة الدافعة والزخم الذى جعل من بورتون ذلك الرجل الاسطورى يعود الفضل فيه إلى حب زوجته له حباً يقرب من العبادة، بشكل يفوق أى مجهود آخر بذله هو

١- ١ يُراجع مقال «رجال على ظهر الرمال العربية» لعبد الرحيم حسن، مجلة العالم لندن، العدد ٢٧٦-٢٧ آيار مايو ١٩٨٩ م- ٢٢ سؤال ١٤٠٩ هـ: ٥١.

٢- ٢ قافلة الحبر؛ مرجع سابق: ٨٧-٨٨.

ص: ٢٢٨

لنفسه، لخلق تلك الشعبية الواسعة. فقد كان طيلة حياته بريطانياً غيوراً. وكان كل ما يطلبه احترام الجمهور له والمكافآت التي يستحقها من حكام البلاد والمسؤولين. ولكي يحرز هذه الامور عمل على إنجاز الواجبات التي ربّما أظهرته للعيان. ولكن الأمر المؤسف والمأساوي، من وجهة نظر مواطنه برينث، هو أن أحداً لم يفهمه، ولم ينل أي إعجاب أو استساغة من الجمهور، وهكذا فلم تتوفر له الفرصة لنيل مقاصده (١).

وتظلّ المفارقات تلازم بورتون كالظلّ، فهذا الرجل الذي طرد من أو كسفورد؛ لأنّ زميلاً له سخر من شاربيه، سوف يرى خلال تنقله في جزيرة العرب أنّ شاربيه الكئيب هما اللذان حبّباه إلى الناس، حتّى إنّ أحد مشايخ بني حرب سمّاه «أبو الشوارب»! على أنّ ذرّوة أعماله سوف تظلّ، في العرب طبعاً، ذلك الوصف الذي وضعه لمكّة المكرّمة ولحظة الانبهار أمام الكعبة (٢).

إنّ ما يثير الغرابة في حياة بورتون هو أنّ نجاحه الخالد غير المشكوك فيه، كان مؤسساً على اعتقاد جازم بأنّه أوّل رجل اوروبي دخل إلى (مكّة) وأنّ هذا الاعتقاد كان مجرد خيال محض.

ولم يكن بورتون هو الذي عزّز ورعى هذا الاعتقاد فهو عند وصفه لذلك المكان القدسي (أي مكّة) اعتمد كلياً وبصراحة وإعجاب على عمل ذلك السويسري بيركهارت. فلم يكن بورتون أوّل شخص يقوم بأداء مناسك الحجّ متخفياً بل لقد رأينا كيف أن دومينغو باديا ليليش قد وصل في العقد الأوّل من القرن التاسع عشر إلى مكّة ركباً ظهر جمل، ومنتحلاً اسم «على بك العباسي». ولربّما كان أوّل مصدّق لتلك القصة، التي تقول: إنّ بورتون هو أوّل من قد دخل مكّة، هو وزوجته الليدي بورتون، التي كانت من خلال ترمّلها، قد صمّمت على وضع زوجها ريتشارد بورتون في المكان الملائم لكفائه.. (٣).

إنّ الليدي بورتون هي التي تحاول الإيحاء بذلك، في مقدّمة النسخة التذكارية لكتاب الحجّ، والتي تتألّق

١-١ بيتربرينث؛ «بلاد العرب القاصية: رجالات المستشرقين إلى بلاد العرب»، ترجمة خالد عيسى أسعد وأحمد عثمان سبانو، دار قتيبة، بيروت، ١٤١١هـ - ١٩٩٠ م: ١٤٢.

٢-٢ قافلة الحبر؛ مرجع سابق: ٨٨.

٣-٣ بلاد العرب القاصية؛ مرجع سابق: ١٤٢-١٤٣.

ص: ٢٢٩

منظر عام للمدينة المنورة (رسم بورتون)  
ريتشارد بورتون (لوحة من رسم لويس دوزانج)

ص: ٢٣٠

منها نظرات الإعجاب الرومانسي إلى الحد الذي يقف فيه كلامها كستار أو حاجز رقيق بيننا وبين أولئك المغامرين الذين دَبَّروا أمورهم، ودخلوا مكة فعلاً منذ أيام ناريتهما.

وفي هذه المقدمة لا تدعى كاتبها أن رحلة زوجها كانت الرحلة الأولى (فهى لا تستطيع ذلك ما دام أن بورتون نفسه يذكر الشيء الكثير عن رحلات الآخرين) ولكنها تستعمل أسلوباً يشير ضمناً إلى ذلك. وهذا يقودنا إلى اعتبار عمل هذه السيِّدة نوعاً من المغامرات لا يجرؤ كثير من الناس على القيام بها، حتى إنَّ القليل من الناس ينجحون في مثل هذه الأعمال، ولكن لا بأس أن نذكر أنه حتى لو كانت لهجتها مضللة، إلَّا أنَّها لا تخلو من شيء من الصواب في آرائها (١).

ولعلَّ النجاح المتميِّز الذي حقَّقه بورتون في وصف رحلة الحجِّ، هو الذي حفَّز زوجته إلى المضى بعيداً في مضمار المباحة. وإذا كان المستر بيركهارت لم يستطع في بعض الأحيان القيام بجميع مناسك الحجِّ وتفصيله على الوجه الأكمل، فقد استطاع السير ريتشارد بورتون أن يفعل ذلك بعده بأربعين سنة من دون أن يُكتشف أمره على الإطلاق. وكان الفضل في ذلك يعود إلى إتقانه التخفي، بعد أن تعلَّم العربية والفارسية والتركية، وأتقن تعلُّم الفروض الدينية المعروفة عند المسلمين، وقد استعدَّ لذلك قبل أن يقدم على رحلته الخطرة بأشهر عديدة، واتَّخذ جميع التدابير اللازمة للقيام بمهمته خير قيام، ومن جملة ذلك أنه عمد إلى الاختتان وهو يومئذٍ في الثانية والثلاثين من عمره! وقد جرَّب علاوة على ذلك تأثيرات الصبغات المختلفة في جلده ومظهره، وتعلَّم التنعل واستعمال الرمح وما أشبه (٢).

ولذلك فإنَّ المرء ليأخذه العجب حينما يطَّلِع على مغامرات بورتون، التي جعلت منه اعجوبة من الأعاجيب، فقد كان يتقن لغات عدَّة، بالإضافة إلى كثير من اللهجات المحليَّة المعروفة في الشرق الأوسط والأقصى.. وقد جعلت منه أخبار رحلاته ومغامراته رجلاً اسطورياً، وهو فوق هذا كاتب

١- المرجع السابق: ١٤٣، بشيء يسير جداً من التصرف.

٢- جعفر الخليلي؛ «موسوعة العتبات المقدسة - ٢، قسم مكة»، مؤسسه الأعلمي، ط ٢، بيروت، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م: ٢٩٤.

ص: ٢٣١

مبرز، ترك عند وفاته أكثر من ثمانين كتاباً يصف فيها رحلاته، وما لقي من أخطار.

ومن رحلاته التي خلّدهت رحلته إلى مكّة والمدينة، وكشفه عن أسرار قلب جزيرة العرب؛ فقد فضى عنه ثيابه الأوروبية، واستبدلها بملابس مسلم أفغانى فى طريقه لأداء فريضة الحجّ، وتسمّى باسم الحاج عبد الله. وقد وصف لنا «بورتون» بدقّة رحلته هذه فى كتاب ممتع من جزأين ضخمين هو «الحجّ إلى المدينة ومكّة» [١٨٥٥-١٨٥٦ م]. وقد عدّه الباحثون من أشهر رواد قلب جزيرة العرب (١). فمن هو هذا البريطاني المتأفغن؟ وما هى حكايته؟ وماذا عن طبيعته مهمّته الخاصّة؟

سيرة حياة

يقول الزركلى: «ريتشارد فرنسيس بورتون Burton Francis Richard مستشرق انكليزى رحّاله، ولد فى «هرفورد شاير» (عام ١٨٢١)، وكان والده «جوزيف نيتفيل بورتون» ضابطاً فى الجيش البريطانى، وجدّه «ادورد بورتون» قسيساً فى آيرلنده» (٢). قيل: إنّ عائلته تنحدر من أصل عجرى، أو هكذا قال المؤرّخون والباحثون، مع أنّ أمه تدعى أنّها تنحدر بصورة غير شرعيّة من سلالة لويس السادس عشر. ومع أنّ والده كان ضابطاً فى الجيش، لكنّ الدلائل على «عجريّة» بورتون كثيرة (٣) ممّا دفع بعض الباحثين إلى التساؤل عن الغموض الذى يكتنف أصل بورتون، بل أنّ سحنته كانت مدعاةً لتعزيز التكهنات المثارة حوله، وقد ساهمت زوجته الليدى بورتون فى تعميق ذلك، إذ تميل - وهى التى تتّصف بالرومانسية دوماً - إلى التلميح إلى أنّه كانت تجرى فى عروق زوجها دماء اخرى غير الدماء الأوروبية كدماء العرب والقرباط مثلاً، وهى التى أورثته شهوة التجوال (٤).

ثمّة إثارة اخرى فى هذا الاتجاه؛ إذ ما إنّ رأى بورتون النور فى العام ١٨٢١ م، حتّى رمى والده الثياب العسكريّة خلفه، وراح يتيه فى فرنسا وإيطاليا،

١ - ١ د. محمود السمرة؛ «مراجعات حول العروبة والإسلام وأوروبا»، كتاب العربى الرابع، الكويت ١٩٨٤ م: ١٢٣. ومن المثير للاستغراب أنّ الباحثة الفرنسية جاكلين بيرين قد أهملت الإشارة إلى بورتون فى كتابها «اكتشاف جزيرة العرب». كما فعل ذلك عبد الرحمن بدوى فى «موسوعة المستشرقين!!».

٢ - ٢ خير الدين الزركلى؛ «الأعلام»، دار العلم للملايين، ط ٧، بيروت، ١٩٨٦ م، المجلد الثالث، ص: ٣٨، وكذلك نجيب العقيقى؛ «المستشرقون»، دار المعارف، ط ٤، القاهرة د. ت، الجزء الثانى: ٥٩.

٣ - ٣ قافلة الحبر؛ مرجع سابق: ٨١.

٤ - ٤ بلاد العرب القاصية؛ مرجع سابق: ١٤٤.

ص: ٢٣٢

وهكذا لم يتلق سوى القليل من التعليم الرسمي. وكان الكولونيل بورتون ينوي إدخال ابنه في سلك الكهنوت؛ ولذا أرسله إلى أوكسفورد لتعلم مبادئ اللاهوت (١)، بيد أن الشاب جُبل على التمرد فلم يتقيد بقواعد التقاليد البريطانية، فضلاً عن أنه تصرف بطريقة منافية لقواعد الرصانة والوقار، فقد سبق وأن تعلم في منزل والده المبارزة بالسيف، وصار يتحدى الجميع إلى منازلته، وخلال الدراسة الكهنوتية دعا أحد رفاقه إلى المبارزة؛ لأن هذا سخر من شاريه (٢).

ولهذا وذاك، فقد طرد من الجامعة طرداً مؤقتاً، وقد كان في نيته الرجوع إلى الجامعة، لولا سماعه نشوب الحرب في بلاد الأفغان في آسيا، فبدأت أحلام المغامرات تنتابه، فأقنع والده بشراء براءة لمرتبة عسكرية، وفي عام ١٨٤٢ م، وعندما كان في الحادية والعشرين من العمر أبحر إلى الهند، وسرعان ما أصبح ضابطاً في فرقة المشاة، وهي الفرقة الثامنة عشرة (٣).

في تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٤٢ م وصل بورتون إلى بومباي، في أولى رحلاته حول العالم، وهو ضابط برتبة ملازم ثانٍ في «شركة شرق الهند الامبراطورية». وسرعان ما أظهر مقدراته الفائقة على تعلم اللغات، حين راح يتقن لغة جديدة كل بضعة أشهر، حتى قيل: إنه في أواخر عمره كان قد صار يتقن ٢٩ لغة و ١٢ لهجة إقليمية (٤).

بخصوص تعلمه اللغة العربية، فقد بدأ دراستها في جامعة أوكسفورد، ولكنه لم يكمل دراسته هذه لانضمامه إلى الجيش البريطاني في الهند، حيث استأنف دراسة العربية عن طريق سكنه في المقاطعات الإسلامية (٥) وتعلم الفارسية على أساتذة مسلمين (٦).

لم يكتف بورتون بإتقان اللغات، بل كان يتنكر بثياب أهل البلد ويتحل هوية محلية، ففي الهند مثلاً، كان يستأجر متجراً في السوق ويجلس كباقي الباعة يفصل في الأسعار مع الزبائن الذين لم يتمكنوا من التفرقة بينه وبين باقي التجار (٧)، وفي بلاد كالهند تكثر

١-١ قافلة الحبر؛ مرجع سابق: ٨٢.

٢-٢ المرجع نفسه: ٨٢.

٣-٣ بلاد العرب القاصية؛ مرجع سابق: ١٤٥.

٤-٤ قافلة الحبر؛ مرجع سابق:

٥-٥ سورة العرب في الصحافة البريطانية؛ مرجع سابق: ٤٣.

٦-٦ المستشرقون؛ مرجع سابق: ٢: ٥٩.

٧-٧ صحيفه الحياة؛ مرجع سابق.

ص: ٢٣٣

اللغات لم يكن الناس يهتمون بالأخطاء اللغوية في اللفظ أو في نبرة الكلام التي تدلّ على إتقان المصطلحات اللغوية، ولماذا يشكّ ذلك الشعب الفقير بشخصية فقير غريب آخر يحتشد معهم في عالمهم الخاصّ يا ترى؟ (١).

غير أنّ ممارسته هوايته المفضّلة هذه لم تستمر، إذ حالت دونها العوائق؛ لأنّ تقمّص شخصيّة الباعه والنزول إلى الأسواق من دون أن يلاحظه أحد جلبا له المتاعب من قبل مرؤوسيه في الجيش، الذين لم ترق لهم هذه التصرفات، خصوصاً أنّه أرفقها ذات مرّة باختطاف راهبه، أو بملء منزله بالسعادين التي كان يجلسها معه إلى طاولة الطعام.

لكن اختلافه وتآلفه مع شريحة من الشعب، كان معظم زملائه الضباط يحتقرونها، سبب له نوعاً من الازدراء والاحتقار أكثر من الإعجاب من قبل زملائه. فقد كان هؤلاء الضباط يتخذون الخليلات أو الزوجات المؤقتات من بين أفراد الشعب حولهم، ولكنهم لم يتنازلوا بفعل أكثر من ذلك.

ولكن بورتون من جهة أخرى اتخذ شخصيّة «الميرزا عبدالله» وهو بائع متجول من أصل نصفه فارسي ونصفه عربي؛ ولهذا لا عجب أن نرى «السير تشارلز ناير» الذي أخدم الثورة في السند يعمد إلى استخدام بورتون لمساعدته، بعد أن اكتشف أنّه كان بحاجة إلى معرفة المهارات اللغوية التي تختلف عن المهارة في نشر الجنود وإدارة المعارك. وتلت ذلك خطوة أخرى وهي إرسال ذلك الشاب في مهمّات سرية تُظهر النزعات الامبراطورية التوسّعية - كما يقول الباحث البريطاني بيتربرينث - وكانت إحدى المهمّات جمع المعلومات حول الميول الجنسية للسكان المذكور في المنطقة؛ ولذلك فقد عمد بورتون إلى إصدار تقرير وافٍ شامل عن ذلك الموضوع. وفي أثناء تلك الفترة ترك «نابير» الهند، ولكن سرعان ما تسرّبت الإشاعات عن تقرير بورتون هذا، ووصلت إلى الرأى العام البريطاني، وهكذا تحطّمت سمعة بورتون على صخرة النطاق البشري.

وبعدها بدأ البريطانيون الجدد

ص: ٢٣٤

الآتون من بريطانيا، والذين لم يكن لديهم أى مواهب أو مقدره يرتقون فى وظائفهم فوق رأس بورتون. أمّا بورتون فقد بدأ بالاهتمام بالثقافه، أو الثقافات الهندية. وقيل: إنه انضم إلى البراهمة، لكن ربّما كان هذا الخبر لا يخلو من المبالغة. ونظراً لإجادته اللغه العربيه والفارسيه فمن المعقول والمقبول ظاهرياً أنه قد انغمس فى أساليب ومفاهيم أولئك الأساتذّه المسلمين من الصوفيه، فقد قيل: إنه قد أصبح من «الدرائش»، وإنّه أصبح «استاذاً» إذ ربما حدث ذلك، ولكن مدّه إقامته فى الهند كانت قصيره غير كافيه لرجل أجنبى للارتفاع إلى المراتب العليا فى المذاهب الدينيه فى نظام قاس كالنظام الذى كان سائداً هناك، على حدّ تعبير بيتر برينث (١).

أمضى بورتون حوالى سبع سنوات من الإقامة فى الهند، وقد خاض فيها تجربه خاصه لا تخلو من غرابه وثراء واستحقاقات. ولما رأى أنّ كلّ طرق التقدّم فى الهند قد سُدّت فى وجهه طلب إجازة مرضيه مطوّله وعاد إلى أوروبا، حيث أمضى أربع سنوات فى الدراسه والكتابه (٢).

ورغم أنه عاد إلى بلاده مثقلاً بأوزار الفشل وقد أنهكه المرض والحمى.. غير أنّ حادثين حاسمين صادفاه فى انكلترا وفرنسا بدلاً من مجرى حياته. ففى بولون قابل الفتاة ايزابل التى كان ينوى مؤجلاً الزواج منها (ولكن تلك التيه كانت حقيقه واقعه بالنسبه إليها) والأمر الثانى هو أنه عرض نفسه للعمل مع الجمعيه الجغرافيه الملكيه فى لندن لاكتشاف ما وصفه ب «البقعّه الشاسعه البيضاء فى خرائطنا التى تدلّ إلى المناطق الشرقيه والوسطى فى شبه الجزيره العربيه» وكانت خطته تقضى بالنزول فى مسقط وعبور الربع الخالى إلى مكّه المكرمه والمدينه المنوره.

كانت مسأله استكشاف المناطق البعيده فى منتصف القرن التاسع عشر، تثير الاهتمام بقدر ما يثير الاهتمام اليوم اكتشاف الفضاء الخارجى. ولم يكن العثور على ممول لمشروع مفصل ومدروس أمراً صعباً. وعندما تقدّم

١- المرجع نفسه: ١٤٦.

٢- ٢ قافله الحبر؛ مرجع سابق: ٨٢.



ص: ٢٣٥

بورتون بمشروع رحلته تبنته «الجمعية الملكية الجغرافية» فوراً. إلّا أنّ «شركة الهند الشرقية» التي كان ما يزال يعتبر موظفاً فيها، رفضت الرحلة على اعتبار أنّها خطيرة. وبدلاً من ذلك سُمِحَ لبورتون بإجازة إضافية لدراسة اللغة العربية في «المناطق التي تدرّس فيها اللغة بجديّة» فغيّر بورتون خطته وقرّر العبور من مكّة المكرّمة إلى مسقط ومنها بحراً إلى الهند قبل أن تنتهي إجازته. وكان يعتقد أنّ زيارة مكّة المكرّمة، واجتياز مناطق مجهولة في شبه الجزيرة العربية وحصوله على لقب حاج، قد تساعد في رحلات لاحقة في المناطق المسلمة، وكذلك في موضوع شراء الأحصنة العربية للجيش البريطاني في الهند (١).

وهكذا قرّر أن يبدأ رحلته، فتوجّه من التو صوب مصر؛ ليشعر من هناك بمغامرته الكبرى.. وليقتحم التاريخ من أبوابه الواسعة. في الطريق إلى مكّة

بعد أن أكمل الاستعدادات جميعها أبحر من انكلترا إلى الاسكندرية، في اليوم الثالث من نيسان (أبريل) ١٨٥٣ م، باسم المرزا عبدالله من بوشهر. ويقول سيتون ديردون مؤلف كتاب «الفارس العربي»: «إنّه قبل أن يتوجّه إلى مهمته علم أنّ رحالته انكليزيا يدعى «فالين Wallin» كان قد تمكّن من الدخول إلى مكّة والحجّ مع الحجاج في ١٨٤٥، لكنّه لم يستطع تدوين شيء عمّا فعل ورأى؛ لأنّه كان خائفاً على حياته، بعد أن لاحظ أنّ اثنين من اليهود قد اكتشف أمرهما في مكّة تلك السنة، فقتلها الحجاج الهائجون شنقاً. فقرّر أن يستفسر منه عن أشياء كثيرة قبل أن يقدم على الاضطلاع بمهمته، وكتب له بذلك، لكن كتابه لم يصل إلى فالين إلّا بعد أن كان قد توفّى؛ ولذلك عمد إلى دراسة ما كان قد كتبه بيركهارت قبله من تفصيلات، فدرسه دراسة مستفيضة، واستعدّ للرحلة على ضوء ما جاء فيها (٢).

وفي طريقه إلى الشرق، كان يعمل على إتقان دوره كمسلم في تفاصيل الحياة اليومية، منتحلاً شخصية نبيل فارسي، لكن بعد وصوله إلى مصر قرّر

١- ١ يُراجع: بلاد العرب القاصية: ١٤٦-١٤٧، وصحيفة الحياة، وقافلة الحبر: ٨٢ مراجع مذكورة.

٢- ٢ موسوعة العتبات المقدسة؛ مرجع سابق ٢: ٢٩٥.

ص: ٢٣٦

التخلّي عن هويّته الفارسيّة.. واتّخذ بدلاً منها هويّة درويش متجوّل (١).

وعن سبب إقدامه على هذه الخطوة، يقول بورتون: «لقد أصلحت لقبى وعدلته من ميرزا عبدالله إلى الشيخ عبدالله. إذ ليس هنالك من شخصيّة مناسبة للتخلّي في العالم الإسلامي أكثر من شخصيّة الدرويش. فهذه الشخصيّة يمكن لأيّ رجل من أيّ طبقة أن يتلبسها، من أيّ عمر أو من أيّ مذهب، فالنييل الذي أهين في بلاط أحد الملوك يمكنه تلّبس تلك الشخصيّة، وكذلك الفلاح الذي لا يرغب لكسله في حراثة الأرض، أو أولئك الفاسقون الذين تعبوا في مسالك الحياة، أو أولئك الشخّاذون الذين ينتقلون من باب إلى باب.. جميعهم يستطيعون أن يصبحوا دراويش.

وفوق ذلك فالدراويش يسمح لهم بتجاوز أو تجاهل أصول الأدب والمعاملة كأشخاص قد انسلخوا عن المجتمع، وتوقّفوا عن الظهور على مسرح الحياة. فهو يستطيع أن يصلّي أو لا يصلّي حسبما يريد. ويمكنه أن يتزوّج أو يظلّ عازباً حسب رغبته، ويمكنه أن يرتدى الملابس أو لا يرتدى شيئاً، ولا يمكن أن يُوجّه أيّ سؤال لذلك المتشرّد المعفى من المسؤوليات، لماذا أتى هذا المكان أو ذاك؟». ثمّ يضيف بورتون بشكل طريف:

«كلّما كان الدرويش متكبّراً متعجرفاً على الناس زاد احترامهم له» (٢).

على أنّ بورتون عاد وبدّل هويته وجنسيته، بعد فترة من تنكّره بزىّ درويش، منتحلاً شخصيّة أخرى، كانت هذه المرّة مواطناً بريطانياً من أصل أفغانى درس الطبّ في الهند.

وكان لون بشره بورتون (ربما بفضل أصوله العجريّة) قريباً من العرب ممّا ساعده في تنكّره.

وروى بورتون أنّه اشترى عدداً من الثياب الأنيقة لرحلته؛ ذلك أنّه اكتشف أهميّة الإناقة في منطقة «تنظر إلى الذين لا- يهتمون بمنظرهم كفقراء، وإلى الفقير كنصاب، إلّا إذا كان ينتمى إلى طريقه أو زاوية دينية» (٣)، وكان بين مشترياته أيضاً مظلة صفراء واسعة «تشبه حديقة مرتفعة الأعناق»،

١- ١ صحيفة الحياة؛ مرجع سابق.

٢- ٢ بلاد العرب القاصية؛ مرجع سابق: ١٤٧.

٣- ٣ صحيفة الحياة؛ مرجع سابق.

ص: ٢٣٧

ومشط خشبي، وظرف من جلد الماعز، وسجادة فارسيّة «التي إلى جانب كونها تكاية فهي أيضاً كرسى وطاوله ومنبر ووسادة قطنية.. كذلك اقتنى خنجراً ومحرّبة من النحاس، ومشكاك أقلام، وإبراً، وعلبة نحاسية خضراء «قادرة على تحمّل السقوط عن ظهر جمل مرّتين في النهار». وكانت موازنته للرحلة ٢٥ ليرة انكليزية ذهباً، لّفها في حزام تحت ثوبه (١).

ويبدو أن بورتون كان معجباً بطريقة الحياة في مدينة الاسكندرية وبما أسماه ب «الكيف» الذي وصفه كالتالي: «التراخي اللذيذ، والراحة الحالمية، وبناء القصور الخيالية، وكل ما يناقض الحياة المركّزة والمكثّفة والنشيطة في أوروبا..» ويمضى بورتون في وصفه هذا: «في الشرق لا يحتاج المرء إلى أكثر من الراحة والظل. إنه يرتاح سعيداً على حافة جدول يخرخر أو في ظل شجرة عاطرة، يدخن غليوناً أو يحتسى فنجاناً من القهوة، أو يتناول كوباً من الشراب، لكنّ الأهمّ من ذلك أنه لا يزعج جسده.. إلّاقليلاً، معتبراً أن حدة المحادثة ومرارة الذكريات والإغراق في التفكير امور مفسدة كثيراً للكيف!» (٢).

لم يطل الوقت به، حتّى غادر بورتون الاسكندرية متوجّهاً إلى القاهرة التي وصلها على ظهر مركب صغير، وليستقرّ به المقام في فندق صغير، وراح يمارس مهنته كطبيب، وذاعت شهرته بسرعة، حين استطاع أن يشفى عبتين حبشيتين من «الشخير»، والأهمّ من ذلك أنه التحق فيما بعد بجامعة الأزهر، لمتابعة الدراسات الدينية وإتقان اللغة العربية..

تحسّياً للوصول إلى مكة المكرمة. فقد كان عرف أنه ليس من الضروري للمسلم - أو لمدّعي الإسلام - أن يكون ضالعا في اللغة العربية، لكن من الضروري له أن يكون ملماً بشؤون دينه والفرائض.

أضاف بورتون إلى موازنه السفر ٨٠ جنيهاً أخرى، وبدأ السعى للحصول على جواز سفر. واتّجه أوّلًا إلى القنصل الفارسي الذي طلب ٤ جنيهات لقاء ذلك، فثارت ثائرة

١- ١ قافلة الحبر؛ مرجع سابق: ٨٣.

٢- ٢ صحيفة الحياة؛ مرجع سابق، وقافلة الحبر؛ مرجع سابق: ٨٣.

ص: ٢٣٨

بورتون الذى أصرّ على أن يدفع جنيهاً واحداً! وقام من بين معارفه من دلّه على رئيس «الزاوية الأفغانية» فى الأزهر، وكان هذا رجلاً طيب القلب، فأعطاه الوثيقة اللازمة لسفره لقاء شلن واحد (١).

ولنزعتة الفيكتورية وما يتّصف به الغربيون عموماً من غطرسة، راح بورتون يكيّل السخرية اللاذعة لهذا الرجل الذى قدّم إليه خدمة بلا مقابل، وفيما كان بورتون يستعدّ للرحيل تعرّف إلى نزيل فى الفندق الذى يقيم فيه، وهو ضابط ألبانى كان قادماً من الحجاز فى إجازة، ودعاه الضابط إلى غرفته، فلبّى الدعوة، وهناك وضع كلّ منهما خنجره جانباً وراحا يتعاطيان الخمر، ثم أخذوا يدعوان النزلاء الآخرين إلى مشاركتهم، إلى أن تحوّل المنزل إلى ساحة للهو والصخب، واجتمع الجيران يؤثّبون السكارى (٢).

فى صباح اليوم التالى بدأ «الحاج والى» وهو مرشده ومعلّمه الخاص بإسداء النصيح له قائلاً: «ليتك تبدأ فى رحلة الحجّ حالاً»، وقد سِرّ بورتون من هذه النصيحة وعمل بها حالاً (٣).

فترك القاهرة فى أسرع وقت ممكن، وعثر على بدوى من سيناء متّجه فى الطريق نفسها، فاستأجر جملين بقيمة جنية واحد، وتوجّه مع خادم هندى إلى السويس. وفى الطريق التقى بعض التجار المحترمين من المدينة الذين كانوا عائدين إلى بلادهم، ومعهم شاب من مكّة كان تعرّف إليه فى القاهرة ويدعى محمد البسيونى، الذى أخذ بورتون فى رعايته طوال الرحلة (٤).

عن هذا الشاب يحدثنا بورتون بأنّه من مواليد مكّة، وكان فى حوالى الثامنة عشرة من العمر، وكان حنطى البشرة، عالى الملامح، جسوراً. وقد قرّر هذا الشاب أن يبقى مع بورتون ويقوم بخدمته حتّى انتهاء الحجّ. ويقول عنه بورتون:

إنّه كان ملماً بالقراءة ولكن بصورة بسيطة، ويستطيع كتابة اسمه وهو ماهر فى المساومة، وقد تعلّم التكلم باللغّة العربية الفصحى وهو فى مكّة، كما أنّه يستطيع أن يتخلّص بسهولة وطلاقة من مواقف الشبهة، وكان يصلّى ويقوم بمناسك الحجّ بكلّ إتقان.

١-١ قافلة الحبر؛ مرجع سابق: ٨٤.

٢-٢ المرجع نفسه: ٨٤.

٣-٣ بلاد العرب القاصية؛ مرجع سابق؛ ١٤٨.

٤-٤ قافلة الحبر؛ مرجع سابق: ٨٤.

ص: ٢٣٩

وفي السويس استقل بورتون سفينة تسمى سلك الذهب، وقبل الانطلاق حصلت مشاجرة بين ركابها سرعان ما تدخّل بورتون لحسمها، كما يزعم، وفي ظهيرة يوم ٦ تموز (يوليو) عام ١٨٥٣ م انطلقت سفينة الحجاج التي هدأت الامور فيها.. ويقول بورتون: إنّه لم يسعه إلّا النظر إلى العلم البريطاني الذي كان يرفرف فوق القنصلية البريطانية في السويس. ولكن ما لبث سروره أن اختفى واختنق عندما اشتدّ وجيب قلبه وخفقانه عند التفكير بالمحنة والمغامرة القادمة (١)، إلّا أنّ السفينة تعرّضت للغرق في مرحلة لاحقة، كما تعرّض قبطانها للضرب المبرح، غير أنّ المسافرين وصلوا إلى ينبع في نهاية المطاف (٢) بعد اثني عشر يوماً. وبدأ بورتون بالاستعداد للجزء التالي من الرحلة وهو التوغّل في الداخل (٣) ولدى نزولهم إلى البرّ داس بورتون، على ما يبدو، على شيء سام جعله يتألّم من قدمه طوال الرحلة. ومن هنا استأجرت المجموعة جمالاً كلفه الواحد منها ثلاثة دولارات واتّجهت إلى المدينة في رحلة مسافتها ١٣٠ ميلاً، استغرقت ثمانية أيام (٤).

اختراق جزيرة العرب

هاهو بورتون أمام مهمته العسيرة وجهاً لوجه، ولا بدّ أن يأخذ للأمر عدّته، بمنتهى الحيطة والحذر، لاسيّما وأنّه غير مسلم يجوس خلال الديار، من جهة، فضلاً عن أنّه ينبرى لأداء مهمّة سرّية محدّدة يعوّل عليها، وكذلك الدوائر التي وراءه، الشيء الكثير. ولهذا وذاك، كان عليه أن يهيئ الاستعدادات اللازمة لخوض هذه التجربة المحفوفة بالمخاطر. وبالفعل فقد أنجز المطلوب قبل مغادرة ينبع. كان يحمل دفتر ملاحظاته، وهو عبارة عن دفتر طويل كان يحفظه في صدره، وقد صنع هذا الدفتر وهو في القاهرة. وكان يعلّق إلى جانبه محفظة تتدلّى من كتفه وتصل إلى خصره، وكانت هذه المحفظة يحمل بها نسخة من القرآن الكريم تبرّكاً، ولكنّه قسّم هذه المحفظة إلى ثلاثة جيوب، وضع ساعه وبوصله في الجيب الأوّل، وفي الجيب الثاني وضع بعض النقود كمصروف

١-١ بلاد العرب القاصية: ١٥٠.

٢-٢ قافلة الحبر: ٨٤.

٣-٣ بلاد العرب القاصية: ١٥١.

٤-٤ قافلة الحبر: ٨٤.

ص: ٢٤٠

للجيب، وفي القسم الثالث وضع سكيناً وبعض أقلام الرصاص وأوراقاً صغيرة يستطيع إخفاءها، وكان يستطيع أن يكتب أو يرسم على هذه الأوراق بسرعة تامّة. ثم ينقل نسخاً من هذه الأوراق في دفتر ملاحظاته عندما تسنح الفرصة. وفي جيب سري من جيوبه وضع مسدساً ومعه خنجرًا كباساً، وكان شديد الاعتماد عليه، ولم يجعل أحداً يعلم أنه يحمل هذه الأسلحة. وكان ينظف المسدس ويحشوه ليلاً.

وبعد استئجار الرجال لسوق الجمال والحيوانات، وبعد أن جمع أمتعته ودفاتر ملاحظاته وجيوبه السريّة والمحفظه، التي لم تكن تحوى قرآناً كريماً بل كانت كاذبه موضوعه على جانبه، استعد بورتون للرحيل وهو يقول:

«وفي صباح أحد أيام منتصف شهر تموز مررنا خلال بوابه ينبع واتجهنا إلى الشرق. وقد صاحب الحجّاج قافلته، مؤلفه من حوالي ٢٠٠ جمل، حامله القمح لأهالي المناطق الداخليه، وكان معهم حرس مؤلف من سبعة جنود من الأتراك» (١).

ويمضي بورتون في ذكر المصاعب والمخاطر التي واجهت القافله، وهي تغدّ سيرها نحو هدفها المنشود، لتصل فجر يوم ٢٥ تموز ١٨٥٣ م إلى مشارف المدينة المنوره. وعن الانطباعات التي اعترت الحجيج وما شعر به هو شخصياً، كتب يقول: «عند وصولنا إلى قمه ذلك الجبل رأينا طريقاً ضيقاً منحدرًا تتألف جوانبه من بقايا الحمم البركانيه القديمه، وبعد بضع دقائق بدت المدينة المنوره أمامنا، وعندها أدركت معنى ذلك القول المأثور الذي يتردد على ألسنه المسلمين في طقوسهم الدينيه، وهو عندما تقع عيننا الحاج على أشجار المدينة عليه أن يرفع صوته بالتسبيح والشكر والثناء على رسول الله بأبهج الصلوات والدعوات الصالحات، إذ إنه من خلال ذلك المنظر الجميل لم يكن هنالك من شيء أثر على تفكيرنا ووجداننا أكثر من منظر تلك البساتين والحدائق الواقعه تحتنا».

وحالما ارتفعت أصوات رفقاءه بالصلوات والدعوات الصالحات

ص: ٢٤١

والشكر، بدأ بورتون للحظة من الزمن وكأته قد أخذ بنفس حماسهم، ولكن سرعان ما هدأت أحواله وشرع في كتابة الملاحظات والرسوم بكل برود كعادته (١)، ومما كتبه: «عندما نظرنا شرقاً كانت الشمس تطلع من وراء تلال منقطة بأشجار صغيرة، وكانت الأرض مصبوغة بالذهبي والارجواني، أمامنا امتد سهل واسع، وإلى اليسار حاجز من الحجارة، جبل أُخِيد الشهير الذي ظهرت عند أسفله النباتات وقياب بيضاء» (٢)، وفي أسفل السهل على بعد ميلين منّا، كانت تربض المدينة المنورة، فتبدو كأنها مكان كبير متسع، لكننا ما دنونا وتبينناها عن قرب حتى تبين لنا أن انطباعنا ذلك كان شيئاً وهمياً (٣).

ويصف بورتون بعد ذلك ساعة الوصول والاستقبال فيقول خلال هذا:

إنّ العرب يبدوون في هذه المناسبات من العواطف أكثر مما تبديه سائر الأقوام الشرقية التي يعرفها، ففي طبيعتهم من الحنان والمحبّة الشيء الكثير، وهم أكثر تعبيراً عن عواطفهم بكثير من الهنود (٤).

ومع ذلك فقد شرع في القيام بالشعائر الضرورية (أو الطقوس على حدّ تعبيره) والتي يصفها بالتفصيل.

ومن المفارقات التي تعرّض لها، بسبب إصابته بالم حاد في رجليه لحظة نزوله إلى ينع، أنه بدأ زيارة المدينة ركباً على حماراً، وقد أمّن له الشيخ حامد، وهو أحد الحجاج الذين رافقوه من القاهرة، حماراً عارى الظهر به عرج في إحدى رجليه وتعوزه اذن واحدة، ولكنّ الشيخ حامداً رافقه إلى المسجد النبوي، حيث دخلوا من باب الرحمة من خلال درجات.

ورغم أنه أبدى اندهاشه، لأوّل وهلة، بيد أنه لم ينس معاييره الغربية في رؤيته للأشياء: «كنت مندهشاً من ذلك المنظر البسيط المبهرج لأقدس مكان في جميع أنحاء العالم الإسلامي»، ثمّ يضيف: أنّ المسجد كان شديد الشبه بمتحف للفنون من الدرجة الثانية! أو بمكان تعرّض فيه التحف وهو مملوء بالزينة والزخارف العادية الشعبية المألوفة!

أمّا عن رؤيته لمقام النبيّ محمّد صلى الله عليه و آله

١-١ المرجع نفسه: ١٥٣.

٢-٢ صحيفة الحياة؛ م. س.

٣-٣ موسوعة العتبات المقدّسة ٣: ٢٤١ قسم المدينة المنورة.

٤-٤ المرجع نفسه ٣: ٢٤٢.

ص: ٢٤٢

فيقول: «بعد أن حدّقت بعيني برهه من الزمن رأيت ستاره مكتوباً عليها بخطوط ذهبية أنّ قبر رسول الله والخليفين بعده يقع خلفها، وفوق قبر النبي تدلى الكوكب الدرّي وهو مجموعته من اللآلي والماس رُكبت بشكل نجم وعُلقت في الظلام، باعتقاد أنّ عيون البشر لا تستطيع تحمّل إشعاعها. وكان ذلك الكوكب رائعاً حقاً.. إنّ هذا الكوكب يشبه ماسه «كوه نور Koh-Nur» الشهيرة» (١).

ثمّ يمضى يصف المدينة المنورة بدقّه مرشد السياح. ويلاحظ من الرحلة التفصيليّة الرائعة التي طبعت بجزأين كبيرين أنّ السير ريتشارد لم يترك شارده ووارده إلّا ذكرها في نصوص الرحلة أو شروحها وهوامشها الضافية. ومع ما في هذه الرحلة من تحامل وأغلاط في فهم الإسلام وشريعته، فإنّها تعدّ شيئاً ممتازاً من ناحية البحث والتحقيق، ودراسة لها قيمتها التاريخية والجغرافية (٢).

في رحاب المدينة المنورة

في فصل خاصّ يفرد بورتون لزيارة قبر النبي صلى الله عليه وآله، يستهلّ الكتابة بالخوض في موضوع المفاضلة بين مكّة والمدينة. فيقول: إنّ المسجد النبوي هو أحد الحرمين، وثاني الأماكن المقدّسة الثلاثة المعدّة للعبادة، أمّا الاثنان الآخرا فهما؛ المسجد الحرام في مكّة، والمسجد الأقصى في القدس الشريف.

ثمّ يوضّح الفرق بين استحباب (زيارة) الرسول صلى الله عليه وآله ووجوب فريضة الحجّ إلى بيت الله الحرام.. ليستعرض الآراء حول منزلة المسجد النبوي ومكانته الروحية، خاصّة لدى المذاهب الإسلامية، وأنّ الشرف الذي حظيت به المدينة يعود إلى أنّ تراها قد ضمّت رفات الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، ثمّ يعرج إلى تبيان موقف الوهابيين قائلاً: «ولمّا كان الوهابيون من جهة أخرى لا يعترفون بشفاعه الرسول يوم القيامة، ويعتبرون قبر الرسول قبراً مثل سائر القبور وشيئاً لا يُعتدّ به، ووسيلة للعبادة (الوثنية) التي يمارسها بعض المسلمين (الحمقى)، فقد نهبوا المبنى المقدّس بعنف ينطوي على التدنيس، ومنعوا الزوّار القادمين من البلاد النائية عن الدخول

١-١ بلاد العرب القاصية: ١٥٣-١٥٤.

٢-٢ موسوعة العتبات المقدّسة ٣: ٢٦٠. يصف نجيب العقيقي كتاب «الحجّ إلى مكّة والمدينة» بأنّه من أوثق المراجع عند الغربيين المرجع المذكور ٢: ٦٠، أمّا خير الدين الزركلي فيقول عن الكتاب بأنّه يعدّ من أعظم المراجع عند الغربيين في موضعه الاعلام ٣: ٣٨.



ص: ٢٤٣

إلى المدينة (١).

بعد هذه الإطلاة، يشرع في وصف مظهر الحرم النبوي الشريف، فالمسجد متوازي الأضلاع يناهز الأربعمائه وعشرين قدماً في الطول والثلاث مائة وأربعين في العرض، وهو مثل سائر المباني الديتية الإسلامية المعتادة مبنى فيه ساحة وسطى مكشوفة تسمى الصحن، أو الحوش.. يحيط بها بهو له صفوف عديدة من الأعمدة على شاكلة الأديرة الإيطالية. والأروقة فيها سقوف منبسطة، لكنّها مقببة من فوق بقبب تشبه القبب الأسبانية نصف التاريخية..

ويمتدّ على طول الجدار الشمالي القصير من داخله الرواق المجيدى المسمى باسم السلطان الحاكم (عبد المجيد)، كما يشغل الجدار الغربي الطويل رواق باب الرحمة، والجدار الشرقي رواق باب النساء، ويستمدّ الرواق الأخير اسمه هذا من قربه من قبر السيدة فاطمة عليها السلام ويدخل النساء منه عندما يردن زيارة القبر المطهر. ويحتضن الطول الداخلي للجدار الجنوبي القصير صفّ الأعمدة الرئيس المحيط بالروضة، أي الموضع المحتوى على جميع ما هو مقدّس في الحرم.

وهذه الأروقة الأربعة المقدّسة من الخارج تحملها من الداخل أعمدة تختلف بعضها عن بعض في الشكل والمادة. وقد بُلط الرواق الجنوبي الذي يقوم فيه الضريح بقطعة جميلة من الرخام الأبيض المشغول بشغل التطعيم، المغطى هنا وهناك بالحصر الخشن التي فرّش فوقها السجاد غير النظيف المتآكل بأرجل المؤمنين (٢).

ثمّ يستعرض المنائر في الحرم الشريف، ويبلغ عددها خمسا، لكن منارة واحدة هي الشكلية التي تقوم في الزاوية الشمالية الشرقية من المبنى قد هُدمت وما تزال تُبنى بشكل جديد. أمّا المنائر الأربعة الأخرى فهي؛ منارة باب السلام، منارة باب الرحمة، المنارة السلمانية المسماة باسم بانيتها السلطان سليمان القانوني، والمنارة الرئيسية.

ويقول بورتون: إنّ هذه الأخيرة سُمّيت رئيسية؛ لأنها مخصّصة لرؤوساء المؤذنين.. وتعلّق بمنصّات المنارتين الأخيرتين مصابيح نفطية في الأعياد

١-١ يُراجع: hacceM hanidaM... .noitidE lairomeM . ١٨٦٣ nodnoL notrub lebasi efiW sih yB detidE .

nitruB ,ndrahciR -fdrahciR -LA ot egamirgliP A fo evitarraN lanosreP

٢-٢ موسوعة العتبات المقدّسة ٢: ٢٦٥.

ص: ٢٤٤

والمناسبات، مثل مناسبة وصول موكب الحجّ الشامي (١).

أما الأروقة والأعمدة المحيطة بالصحن المربع المكشوف في الوسط أيضاً، فيمضى في وصفها بإسهاب، مبدياً عدم إعجابه فيما راح يعدّها:

«ومن بين هذه الأعمدة التي لا تستحقّ الثناء، هناك ثلاثة لها شهرة في تاريخ الإسلام، ولذلك كتبت أسماؤها عليها بالدهان، وتمتّع خمسة أخرى بشرف التسميات المشهورة، فيسمى الأول «المخلق» لأنه لُطخ بالخلوق في مناسبة من المناسبات.. ويقع هذا بالقرب من المحراب النبوي إلى يمين المكان الذي يصلّي فيه الإمام، كما يدلّ على البقعة التي كان الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله قبل اختراع المنبر يتكئ فيها على «الاسطوانة الحنّانة» ويلقى خطبة الجمعة، والعمود الآخر هو ثالث عمود من المنبر وثالث من الحجر، ويسمّى «عمود عائشة» وكذلك «اسطوانة القرعة» لأنّ الرسول على ما تقول بعض الروايات صرّح قائلاً: إنّ الناس حينما يعرفون قيمة هذا المكان سوف يستعينون بالقرعة للصلاة فيه، ويذكر في بعض الكتب باسم «عمود المهاجرين»، كما أنّ آخرين يسمّونه «المخلق» كذلك.

وعلى بُعد عشرين ذراعاً من عمود عائشة، وعمودين من الحجر، وأربعة أعمدة من المنبر يقع «عمود التوبة» أو عمود أبي لبابة، وقد سمّي كذلك على إثر حادثه وقعت لأبي لبابة أحد الأنصار.. أما الأعمدة التي تقلّ في شهرتها فهي «اسطوانة السرير» التي كان من عادة النبي أن يجلس في موقعها للتأمل فوق سريره المتواضع المصنوع من جريد النخل. وتشير «اسطوانة على» إلى المكان الذي كان الإمام على يصلّي فيه إلى جنب ابن عمّه النبي. وفي موقع «اسطوانة الوفود» كان النبي صلى الله عليه وآله يستقبل الوفود والرسول والمبعوثين من البلاد الأخرى، وتدلّ «اسطوانة التهجد» على المكان الذي كان النبي يمضى ليله فيه مصلياً متهجّداً. وأخيراً «مقام جبرائيل» الذي لم يجد بورتون تفسيراً لاسمه الآخر «مربعه البعير».

وتطلّ الأروقة الأربعة في مسجد

ص: ٢٤٥

المدينة على صحن أوسط مكشوف متوازي الأضلاع في شكله. والشئ الوحيد الذي يلفت النظر فيه سياج خشبي مربع الشكل يحيط بتربة حسنة الارواء تدعى «حديقة سِتِّنا فاطمة»، وتوجد فيها اليوم (أى يوم زيارة بورتون في ١٨٥٣ م) اثنتا عشرة شجرة يهدى خصيان المسجد تمرها إلى السلطان وعظماء المسلمين. وتوجد بين النخلات بقايا لسدره قديمه يُباع ثمرها بأسعار عالية. أما البناية الصغيرة التي ذكرها بيركهارت قبل أربعين سنة، وقال: إنها توجد بالقرب من هذا الموقع، فقد هُدمت قبل ثلاث أو أربع سنوات، وكانت تسمى «قبة الزيت» أو «قبة الشمع» (١).

وينهى بورتون فصله الطويل الذي كرسه لوصف الحرم الشريف (الفصل السادس عشر من الجزء الأول) بالتشكيك في صحه المكان الذي دُفن فيه النبي الأعظم، مستنداً إلى أسباب تافهة. ومن بينها أن الشيعة ربما نقلوه إلى مكان آخر، حينما ظلَّ القبر المقدس بعهدتهم قروناً عديدة! ومعلوم أن الأسباب التي اعتمدها والرأى الذي رجحه كلها لا تستحق الرد لتهافتها، إن لم تكن ذات غرض سيء (٢).

المدينة: التاريخ.. والحاضر

وأفرد بورتون الفصل السابع عشر (من الجزء الأول) لتاريخ المسجد النبوي، تطرَّق في بدايته إلى تاريخ المدينة القديم، والأقوام التي قطنتها، وعلاقة النبي صلى الله عليه وآله بالمدينة وكيفية وقوع الهجرة المباركة.. الخ.

وعن تشكيكات الحرم النبوي يقول: إن هذه التشكيكات قد تغيَّرت كثيراً منذ أيام الرحالة بيركهارت (١٨١٤ م). وعلى هذا الأساس لم يعد «شيخ الحرم» من الخصيان، وكان على أيام بورتون رجلاً من باشوات الأتراك يدعى عثمان، ونائبه «رئيس الأغوات».. ويطلق على رئيس الخزانة «مدير الحرم»، وله مساعد يُسمى «نقيباً»، وهناك شيوخ ثلاثة للخصيان البالغ عددهم حوالي مائة وعشرين.

وهؤلاء ينقسمون إلى ثلاث طوائف:

(البوابون، الخبزيه، البطالين).

وهناك إلى جانب الخصيان عدد من

١- المرجع نفسه ٢: ٢٦٧-٢٦٩.

٢- لمزيد من الاطلاع يراجع المرجع السابق ٢: ٢٦٩.

ص: ٢٤٦

الخدم الأحرار يطلق عليهم (الفرّاشون).. وهناك طبقة دنيا من الخدم الذين يقومون بفرش الساحات وسقى الحدائق وتقديم الماء للزوّار.

أمّا التشكيلات الدينيّة فهي على نطاق أوسع من التشكيلات الإداريّة، فهناك القاضي الذي يُبعث كلّ سنه من استانبول، ويشغل في معيته ثلاثة مفتين: (شافعي، حنفي، مالكي). أمّا المؤذّنون، ويسمّون الرؤساء، فهم كثير العدد، ٤٨ - ٤٩ مؤذّنًا، يترأسهم ستّة من المؤذّنين الكبار، وهؤلاء يرأسهم شيخ الرؤساء الذي يحقّ له فقط أن يؤذّن من فوق «المنارة الرئيسيّة». وهناك في الحرم خمسة وأربعون خطيبًا، وهم تبع لرئيس الخطباء. وتصرف الأموال الشرعيّة على مستحقّيها من: (العلماء والمدرّسين الذين يعظون، الأئمّة والخطباء، السادة من نسل النبيّ، الفقهاء والملاي، العوام بمن فيهم أهالي المدينة والمجاورون).

ثمّ يتطرّق بورتون إلى سكّان المدينة وأهمّ الأسر القاطنة فيها، ليعرج إلى ذكر النخالة الشيعيّة فيورد نقاطاً وتهمًا ما أنزل الله بها من سلطان عنهم، ولعلّ ذلك من خيال المتعصّبين الذين نقلوا له هذه الأخبار عن مثل هذه الطبقة من الناس، التي كانت تشتغل في صدر الإسلام في الفلاحة عند الإمام الحسن عليه السلام..

ويحلّل بعد ذلك أوضاع سكّان المدينة من جميع الوجوه بفصل يستغرق ثمانٍ وعشرين صفحة كاملة. وقد زار بورتون مقبرة البقيع زيارة خاصّة، وهو يقول: إنّ هناك خبراً يقول: إنّ سبعين ألف قديس، وفي رواية مائة ألف، سوف يبعثون يوم القيامة من البقيع، وإنّ عشرة آلاف صحابي وعدداً لا يُحصى من السادة، قد دُفّنوا في هذه المقبرة على مرّ السنين فاندurst قبورهم. ويشير إلى ما تعرّضت له هذه المقبرة من عبث وتخريب أيام الأمير سعود؛ لاعتقاد الوهابيين بأنّ خير القبور الدوارس! «ويرجع الفضل لما بُني منها بعد ذلك إلى السلطان عبد الحميد ومحمود..».

ويقول بورتون كذلك: «.. وقد

ص: ٢٤٧

دخلت المقبرة المقدسة مقدماً رجلى اليمنى كما لو كنت أدخل إلى المسجد، وحافى القدمين لأنحاشى اعتبارى من الرفض، ثم بدأنا بقراءة الزيارة العامة المألوفة... وبانتهائها رفعنا أيدينا وقرأنا الفاتحة قراءة خافته، ومسحنا أيدينا على وجوهنا وتحركنا». وبشيء من التفصيل يستعرض أهم المراقدهناك، وعلى التوالى: [قبر الخليفة عثمان، أبى سعيد الخدرى، حليمه السعديه، قبور شهداء البقيع الذين قتلهم مسلم قائد كبير الفاسقين يزيد (١)(٢)، إبراهيم بن النبى صلى الله عليه وآله، نافع بن عمر، مالك بن أنس، عقيل بن أبى طالب، أزواج النبى جميعهن عدا خديجه، بنات النبى]. وبعد أن يصف بورتون الشحاذين وأنواعهم وكيف يستقبلون الزوار يقول:

«... وقبل أن نترك البقيع وقفنا وفتنا الحادية عشرة فى القبة العباسية، أو قبة العباس عم النبى.. هذه القبة التى بناها الخلفاء العباسيون من قبل فى ٥١٩ للهجرة أكبر وأجمل جميع القبب الأخرى، وتقع على يمين الداخل من باب المقبرة. ويدل على أهميتها تجمع الشحاذين بقربها، فقد جاءوا إليها وتكأوا عليها حينما وجدوا الأيرانيين متجمعين فيها بكثرة وهم يكون ويصلون.. وتوجد فى القسم الشرقى قبور الحسن بن على سبط النبى، والإمام زين العابدين بن الحسين، وابنه محمد الباقر (الإمام الخامس)، ثم ابنه الإمام جعفر الصادق، وهؤلاء جميعاً من نسل النبى وقد دفنوا فى نفس المرقد الذى دفن فيه العباس بن عبد المطلب عم النبى.. وبعد أن خرجنا وتخلصنا من أيدي الشحاذين الصغار وجهنا ونحو الجدار الجنوبي الذى يوجد بقربه قبر ينسب إلى السيدة فاطمة وقرأنا الدعاء المعروف» (٣).

وفى حاشية مستفيضة استعرض بورتون الغموض الذى يكتنف مدفن السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام والروايات المتداولة حول مكان دفنها.. لينتقل مباشرة إلى الحديث عن مساجد المدينة التى يوجد فيها، على ما يذكر بورتون، ما بين الخمسين وخمسة وخمسين مسجداً وبقعة مقدسة، لا يعرف معظمها

١-١ يقول بورتون فى حاشية له ص: ٣٧ من الجزء الثانى من كتابه: إن الإمام الشافعى يسمح لأتباعه بسبب يزيد ابن معاوية الذى جعلته قساوته مع آل البيت، وجرائمه وموبقاته، يهودا الأسخربوطى المسلم، وقد سمع بورتون مسلمين أحنافاً يسبون يزيداً كذلك موسوعة العتبات المقدسة ٣: ٢٨٢.

٢-١ يقول بورتون فى حاشية له ص: ٣٧ من الجزء الثانى من كتابه: إن الإمام الشافعى يسمح لأتباعه بسبب يزيد ابن معاوية الذى جعلته قساوته مع آل البيت، وجرائمه وموبقاته، يهودا الأسخربوطى المسلم، وقد سمع بورتون مسلمين أحنافاً يسبون يزيداً كذلك موسوعة العتبات المقدسة ٣: ٢٨٢.

٣-٢ موسوعة العتبات المقدسة ٣: ٢٨٣-٢٨٤.

ص: ٢٤٨

اليوم حتى أهالي المدينة أنفسهم، وذكر أهمها نقلًا عن أفواه الناس، بشيء من التفصيل، وفيما عدا هذه احصيت أسماء، أسماء فقط، أربعين مسجدًا آخر.. (١).

على أن بورتون الذي استغرق في وصف أدقّ التفصيلات عن خصوصيات المدينة المنورة، لا يفوته تذكير القارئ أو الدوائر المعنيّة بمهمته على السواء، بأنّ حجم المدينة أكبر بمرةً وثلاث من حجم مدينة السويس، أو بقدر نصف حجم مكّة، وهي عبارة عن مكان مسور يؤلّف شكلًا بيضويًا غير منتظم ولها أربع بوابات.. وهناك بنايات ضخمة وأبراج مزدوجة متقاربة.. وفي داخل المدينة الظليل ترى الجنود يحرسون المدينة، وأصحاب الجمال يتشاجرون، وكثيراً من الرجال الذين لا عمل لهم يتسكعون.

ثمّ يصف البنايات العامّة فيقول: إنّ هناك أربعةً خانات كبيرة وبضع مقاهٍ صغيرة وحمّاماً ممتازاً، ويقدر عدد السكّان ب (١٦) ألف نسمة... ويقول:

إنّ المدينة تشبه جبل طارق بالنسبة للبدو الوهابيين (٢).

وبعد أن اطلع على ما في المدينة وأماكنها المقدّسة، وانتهاء فترة الاستجمام والاسترخاء، تلك الأيام التي اعتبرها أيام راحةٍ حقيقيّة، بالنسبة للأخطار القادمة التي كانت ماثلةً أمام عينيه كلّ يوم، كان عليه أن يتوجّه مع موكب الحجّ الشامي إلى مكّة في يوم ٣١ آب ١٨٥٣ م (٣)، وهكذا بدأ يستعدّ للرحلة على عجل، وجمع مؤونة ١٥ يوماً له ولمرافقه محمّداً، واستأجر من بدوى ناقتين ب (٢٠) دولاراً. وكان أصدقائه نصحوه بأن يأكل مرّة كلّ ٢٤ ساعة مع مرافقيه لكي «يبقى في معدتهم ملح من عنده، فذلك قد يمنعهم من خيانتهم أو الغدر به!» كانوا يسافرون في الليل، وفي إحدى المراحل ساروا من الساعة الثالثة بعد منتصف الليل وحتى الحادية عشرة من صباح اليوم التالي (٤).

بورتون في مكّة

في ١١ أيلول (سبتمبر) ١٨٥٣ م، وصل بورتون إلى مكّة المكرّمة بعد رحلة متعبة حافلة بالمخاطر، ليستقرّ به

١-١ للمزيد يراجع المرجع السابق ٣: ٢٨٥-٢٨٩.

٢-٢ بلاد العرب القاصية: ١٥٤.

٣-٣ موسوعة العتبات المقدّسة ٣: ٢٩٦. ولا بدّ من الإشارة هنا إلى اضطراب رواية «بيتر برينث» حول موعد انطلاقه بورتون التي حدّدها بتاريخ كانون الأوّل ديسمبر ١٨٥٣، ليعود إلى تحديد وصوله إلى مكّة بتاريخ ١١ أيلول من العام نفسه.. ولعلّ الاشتباه كان في الترجمة!

٤-٤ قافلة الحبر: ٨٥، وكذلك صحيفة الحياة: ٤/ ١٩٩٢/٥.

ص: ٢٤٩

المقام في بيت مرافقه الشاب محمد البسيوني الذي كان خير دليل له، خاصّة وأنّ أهل مكّة أدرى بشعابها. يقول بورتون عن مكّة حينما وصلها لأوّل مرّة: إنّهُ لم يجد فيها ذلك الجمال الرشيّق المتناسق الذي يتجلّى في آثار اليونان وإيطاليا، ولا الفخامة البربرية المتجليّة في أبنية الهند، ومع هذا فقد كان المنظر غريباً فريداً في بابه بالنسبة إليه (١)، وكتب: «شاهدت احتفالات دينية في مناطق مختلفة، لكنني لم أر مثل هذه المشاهد المهيبة والرائعة في أي مكان آخر» (٢). ويقول كذلك: «.. ويمكنني أن أقول حقاً: إنّهُ من بين جميع الحجاج الذين كانوا يتعلّقون بأستار الكعبة وهم يبكون، أو يضغطون بقلوبهم النابضة على الحجر، لم يكن هناك أحد في تلك اللحظة أشدّ شعوراً وأطغى عاطفةً من (الحاج) القادم من بلاد الشمال، فقد بدا لي كأنّ أساطير العرب الشعريّة جميعها كانت تنطق الصدق، وكأنّ أجنحة الملائكة الخفّافة، وليس نسيم الصباح العذب، كانت هي التي تحرّك الكسوة السوداء التي تجلّل الكعبة المقدّسة. لكنني لا بدّ لي من أن أعترف اعترافاً متواضعاً بأنّ عاطفة أولئك الحجاج المتدفّقة كان مبعثها الحماسة الدينيّة، أمّا عاطفتي فقد كان مبعثها نشوة الكبرياء المطمئن» (٣).

لقد كتب بورتون عن زيارته إلى المدينة ومكّة بتفصيل مسهب استغرق مجلّدين كبيرين، لكنّ الملاحظ أنّ المومى إليه كتب عن جميع ما دوّنه سلفه بيركهارت، ولكن بطريقة مختلفة وتعليقات لا تشبه تعليقات بيركهارت في كثير من المناسبات. غير أنّ الوصف العام لا يختلف عند الاثنين اختلافاً جوهرياً (٤)؛ ولذلك نجد بورتون يشير إلى أنّه قد وصف ما رآه قدر الاستطاعة، ولكنّه اعترف أنّه لا يستطيع أن يصل إلى دقّة بيركهارت الذي يعترف بورتون أنّه مدين له ليس بالشكر والامتنان فحسب، بل بالاقتراس عنه بصورة جليّة واسعة واضحة!، ولكن تعليقات بورتون على العموم كانت عمليّة واقعيّة (٥). فهو يقول: «وكان جمهور من الناس

١- ١ موسوعة العتبات المقدّسة ٢: ٢٩٦.

٢- ٢ صحيفه الحياة: ٤ / ٥ / ١٩٩٢.

٣- ٣ نقلًا عن موسوعة العتبات المقدّسة ٢: ٢٩٦.

٤- ٤ المرجع نفسه.

٥- ٥ بلاد العرب القاصية: ١٦١.

ص: ٢٥٠

قد احتشد حول الكعبة، ولم أكن راغباً في أن أقف حاسر الرأس حافي القدمين في شمس أيلول. فصاح أحدهم يقول: افتحوا الطريق للحاج الذي يريد أن يدخل البيت، وعند ذاك أفسح المتجمعون الطريق.. وتقدم رجلان قويان من أهالي مكة كانا يقفان تحت الباب المرتفع، فرفعاني بأذرعهما بينما سحبني رجل ثالث من أعلى إلى داخل المبنى، فحيتاني في المدخل عدد من خدام الكعبة وهم من المكيين سمر البشرة الذين كان أشدهم سمره وبساطه شاب من اسره بنى شبيه سدنه الكعبة.. وسرعان ما جلس على مسطبة خشبية في ركن الكعبة الأيسر، وابتدرني بالسؤال رسمياً عن اسمي وقوميتي وتفصيلات اخرى. ولما كانت أجوبتي وافية بالمرام أمر الفتى محمداً الذي كان يصحبنى بأن يقودني حول المبنى ويرتل أمامي الصلاة، ولا أنكر أنني حينما نظرت إلى الجدران الخالية من الشبايك، ولاحظت وجود السدنة بالباب، وجمهور (المتعصين) الهائجين في أسفل الكعبة، شعرت وكأنني فأرة في المصيده، على أن ذلك لم يمنعني عن ملاحظه ما كان يحيط بي بدقه خلال صلاتنا الطويله، ورسم مخطط تقريبي بقلم الرصاص فوق قماش إحرامي الأبيض» (١).

ثم يتحدث بورتون عن الكعبة وأركانها الأربعة، وعن باب التوبه، ليستعرض بشيء من التفصيل كسوه الكعبة المشرفه، ومن أي قماش تصنع، وعمّن بدأ بتجهيز الكعبة، وكيف تطوّر الأمر على مرّ العصور التاريخية.. وآخرها العهد العثماني.

ويقول بورتون في الأخير: إن الكسوة في عهده (١٨٥٣ م) كانت تصنع في مصنع النسيج القطني المسّمى «الخرنفش» في باب الشعريه في القاهره، ثم يذكر أن الكسوة تتألف عادةً من ثمانى قطع، اثنتان منها لكل وجه من أوجه الكعبة، ويغطي محلّ اتصال القطعتين بحزام ذهبي المظهر، ثم تُبطن بخام أبيض وتجهز بحبال قطنية. ويُقال: إن الكسوة كانت تنسج خلال حياكتها الآيات القرآنية كلها فيها.. وحينما تتم حياكة الكسوة في الخرنفش



ص: ٢٥١

تنقل إلى مسجد سيدنا الحسين في القاهرة بموكب خاص، وهناك تبطن وتخط فتكون جاهزة للرحلة إلى البيت الحرام (١).  
مشاهدات.. وانطباعات

وفي رحلة بورتون فصل قيم كثير الفائدة عن الحياة في مكة، يصف فيها مكة نفسها وأحوال سكانها بشيء غير يسير من التفصيل، فهو يقول عنها: إنها تعد مدينة حديثه نسبياً، رغم أن منشأ بيت الله الحرام تضيع جذوره العميقة بين طبقات الماضي السحيق.. وهي تحتوى على ثلاثين إلى خمسة وأربعين ألف نسمة من السكان. مع وجود أماكن فيها لسكنى ثلاثة أضعاف هذا العدد من الناس على الأقل. وتبنى بيوتها بالطابوق وحجر الغرانيت والحجر الرملى المستمد من الجبال المجاورة. ومنظر مكة أشبه بوادٍ متموج متعرج يمتد فوق هضبة صغيرة من الهضاب. ويبلغ أقصى عرضها ما بين أبى قبيس في الشرق (الذى تمتد على سفوحه الغربية البلدة معظمها) وجبل هندی في الغرب. وتقوم الكعبة في مركز هذا الخط (٢).

ويخبرنا بورتون، خلال تحدّثه عن سكان مكة، أن بشرة أهالي مكة كانت أكثر اسمراراً من بشرة أهالي المدينة، وأنهم يفسرون هذه الظاهرة هناك بتأثير حرارة الشمس اللافتحة على مناخ مكة. ولكنه يعلّق على ذلك فيقول: «إنني أفضل أن أعزو السبب في سمرتهم الشديدة إلى كثرة الإماء السوداوات اللواتي كنّ يأتين إلى (سوق النخاسة)!!».

ويمكن للقارئ أن يتصوّر لهجته التهكمية عند الإدلاء بهذا الرأي! فبورتون، كما يقول «بيتربرينث» شأنه شأن معظم الغرباء الذين اخترقوا الحواجز، وتسوّبوا ودخلوا إلى مكة، لا تخلو أفكارهم من الازدراء والاحتقار للسكان وذلك حين يقول:

«إن أهالي مكة طماعون ومبذرون» ولكنه يعود فيقول: «من جهة أخرى أن المكّيين يتمتّعون بصفات الصراحة، وهم مستعدون لتحكيم العقل والاعتراف بالخطأ، وليس لديهم أي نوع من العناد لدى اقرار الذنب،

١-١ للمزيد يراجع المرجع السابق ٢: ٢٩٨-٣٠١.

٢-٢ المرجع نفسه ٢: ٣٠١.

ص: ٢٥٢

الأمر الذي يميّز الآثمين منهم عن آثمي الشعوب الأخرى» (١).

والخلاصة التي يتوصّل إليها بيتربرينث هي: أن بورتون يتصرّف في حكمه كقاضٍ غير متحيّز، وليس هناك من يحاسبه على استنتاجاته فيقول: «إن الصفات التي تعوّض عن هذه النقائص هي شجاعته المكي، وحبّه للإحسان، ورجولته وإحساسه المتّقد بالشرف، وارتباطاته العائليّة القويّة، واقترابه من صفه حبّ الوطن وثقافته العامّة». أمّا القسم المظلم من الصورة فينحصر في الكبرياء والتعصّب الأعمى، وقلّة الدين، والجشع وحبّ الربح، وانعدام المثل الأخلاقيّة، والإسراف الذي يقصد منه التظاهر والفخفخة، ويبدو عند فحص الصورة أن القسم المظلم يتفوّق على القسم المضىء، مع أن بورتون قد وصف المكّيين في مناسبات سابقة بالذكاء والفكاهة، شأن بقيّة الساميين (٢).

بيد أن أخطر الانطباعات التي ذكرها بورتون عن أهل مكّة هو ما سمعه منهم عن مستقبل الإسلام، إذ ذكر أن الكثيرين ممّن عرفهم يذكرون أن الإسلام مكتوب له أن يصادف كثيراً من الإحن والنكبات في مقبل الأيام.

ويخلص من هذا إلى القول: إنّ المسيحيّين المتحمّسين لنشر عقيدتهم وديانتهم في العالم يمكن أن يجدوا في وضع المسلمين الفكري هذا فرصةً للانتشار والتغلغل بينهم في الأجيال المقبلة. ثمّ يذكر في حاشية له أن الوضع لا يحتاج إلى كثير من التنبؤ قبل الأوان؛ ليستنتج منه المرء بأنّ الانكليز لابدّ أن تضطرّهم الأحوال السياسيّة لأن يحتلوا بالقوّة الإسلام هذا وقبلته المقدّسة (٣). من جهة أخرى، يذكر بورتون أن المشروبات الكحولية التي يذكر بيركهارت وجود أمكنة خاصّة لبيعها في مكّة لم يعد لها وجود مطلقاً في أيامه، وقد أكّد له بعض الضباط الأرنأؤوط أنّهم وجدوا صعوبةً فائقةً في تهريب بعض القناني من هذه المشروبات من جدّة إلى مكّة. ثمّ يشرح في الحاشية أن زيارة بيركهارت كانت في عهد استيلاء محمد علي باشا عليها، ويعزو السبب

١-١ بلاد العرب القاصية: ١٦١.

٢-٢ المرجع نفسه: ١٦١-١٦٢.

٣-٣ موسوعة العتبات المقدّسة ٢: ٣٠٢.

ص: ٢٥٣

إلى هذا الوضع بطبيعة الحال.

ومن طريف ما يذكره بورتون في هذا الفصل (٣٢ من ج ٢) أنّ أحد المطوفين كان يصحبه في ذهابه وإيابه إلى العمرة، فأصرّ عليه أن ينييه للحجّ بالنيابة عن أبيه وأمه، فألقى نفسه مجبراً على الإذعان للطلب، وأخبره أن أباه يسمّى يوسف بن أحمد، وأمه فاطمة بنت يونس، ففعل المطوف ذلك وأخذ أجرته المقتننه عن عمله هذا (١).

وقد زار بورتون مقبرة مكة المقدسة كما يسميها، التي كان يُطلق عليها «جنّة المعلى».

وهو يقول: إنّه شاهد فيها المكان الذي علقت فيه جنّة عبدالله بن الزبير بأمر من الحجاج بن يوسف الثقفي، وقبر عبد الرحمن بن أبي بكر، يذكر أنّه موضع تقديس السنّة والشيعة معاً، وقبر السيّدة خديجة الكبرى الذي كان مغطى بقماش أخضر، وقبر آمنه والدة النبي صلى الله عليه وآله الذي أُعيد بناؤه بعد أن خرّبه الوهابيون، وبعد هذا يذكر بورتون قيامه بزيارة الأماكن الأخرى التي ذكرها بيركهارت من قبل. ويشير في الحاشية إلى أنّ الكتب التي رجع إليها تذكر اثني عشر مكاناً آخر للزيارة في مكة، لا يعرف عن أكثرها غير اسمها.

وأخيراً؛ يشير بورتون إلى دعوة عشاء دعاه إليها رجل يُقال له علي بن ياسين الزمزمي. وقد أكل فيها أكالات كثيرة.. وقد أكل بعض ذلك بملعقة خشبية، وهو يقول، في هذه الأثناء: إنّ العرب يتجاهلون فنّ الأكل الفرنسي..

ويذكر بالمناسبة أنّ مكة تتجهّز من الطائف ووادي فاطمة بكميات كثيرة من الخضر والفواكه التي يبلغ مقدارها في موسم الحجّ وحده مئة حمل بعير في اليوم على الأقل، ومما يؤتى به إلى مكة الرقي والتمر والليمون والعنب والخيار وما أشبه (٢).

وهكذا انتهت حدّة مغامرات بورتون، ولم يبقَ لديه من عمل سوى مغادرة مكة والرجوع إلى جدّه، حيث سارع إلى إنجاز قضيتين؛ الأولى أنّه كشف للمستر كول القنصل البريطاني في جدّه عن هويّته (٣)، والثانية هي صرف الحوالة الماليّة التي كانت الجمعيّة الجغرافيّة الملكيّة قد أرسلتها إليه؛

١-١ المرجع نفسه ٢: ٣٠٢.

٢-٢ المرجع نفسه ٢: ٣٠٢-٣٠٣.

٣-٣ المرجع نفسه ٢: ٣٠٣.

ص: ٢٥٤

ليطرد الفقر ويسدّ بعض الديون (١)، دون أن ننسى أنّ هذه الحوالة هي جزء من المبلغ المرصود لبورتون قبالة قيامه بمهمته السريّة تلك.

بعد مغادرته مكّة، سمح بورتون لنفسه بنيل قسط من الراحة، في أعقاب تجربة مثيرة: «وعندما وصلت إلى السهل الفسيح شعرت بهزّة من الفرح تتابني، ذلك الشعور الذي لا يحسّ به إلّا السجين الذي خرج من غياهب السجن» (٢).

ولكن؛ ماذا عن مرافقه محمّد البسيوني؟

لقد كان محمّد البسيوني بصحبة بورتون حتّى نهاية المطاف، حيث رافقه إلى جدّة. ولكنّ ثمة تغييراً طرأ على الموقف، لحظه بورتون على مرافقه الشاب، الذي ودّعه ببرود لم يستطع بورتون تفسيره، بيد أنّ البسيوني كان قد أسرّ للشيخ نور (خادم بورتون الهندي) بأنّ هناك شكّاً يخامر عقله حول حقيقة بورتون، وقد قال لخادمه:

«إنّني قد فهمت الآن أنّ سيّدك ليس مسلماً.. بل هو بريطاني من الهند، ضحكك على ذقوننا» (٣).

ولكن هل فهم الآخرون سرّ بورتون كما فهمه محمّد؟ فلقد انتشرت بعض الإشاعات التي تدلّ على أنّ الكثيرين قد فهموه، وأنّ تنكّر بورتون لم يكن ناجحاً تماماً كما يبدو من نظرتهم.

إذ قيل: إنّهُ اضطرّ لقتل رجل رآه يتغوّط بغير الشكل المألوف، وقد تحدّى هذا الرجل مصداقته نتيجة لذلك، ممّا جعل بورتون يقوم بقتله.

ومع ذلك فهاهو بورتون قد أتمّ رحلته ولا يكاد أيّ إنسان أن يصدّق أن يصل بورتون إلى نهاية رحلته سالماً دون أيّ ضرر في تلك الظروف الصعبة، وبين جمهور متديّن متحمّس مقاتل، وسلطات شديدة المراقبة والحذر.. لو أنّ الشكّ تطرّق إلى البعض.. أمّا بورتون نفسه فقد أنكر أنّ شخصاً ما قد شكّ في أمره، أو فكّر أنّه لم يكن ذلك الشخص الذي يعرفه الجميع أنّه من الحجاج السائرين في طريق الحجّ (٤)، وبهذا يكون بورتون قد أجاد لعب دوره المرسوم بمهارة فائقة، وإنّ كان قد اكتشف أمره في

١-١ بلاد العرب القاصية: ١٦٢.

٢-٢ المرجع نفسه: ١٦٢.

٣-٣ المرجع السابق: ١٦٢، وكذلك صحيفة الحياة: ١٩٩٢ / ٥ / ٤.

٤-٤ بلاد العرب القاصية: ١٦٢-١٦٣.

ص: ٢٥٥

اللحظة الأخيرة، وبعد فوات الأوان، من قبل مرافقه البسيوني، خلافاً لبعض أسلافه الرخالة الغربيين الذين كانت تحوم حولهم الشبهات منذ الخطوة الأولى.. اللهم ما عدا هذه الحادثة العابرة التي تمكّن بورتون أن يتلافها على وجه السرعة، رغم أنّه حاول إنكارها! مهمّات اخرى

عاد بورتون إلى القاهرة، حيث أمضى ما تبقى من إجازته محافظاً على تنكّره.. خادعاً أصدقاءه البريطانيين الذين كانوا يمرون في المدينة (١) بعدها غادر القاهرة إلى إنجلترا، ومنها قصد إلى أفريقيا الشرقية والحبشة متنكراً بزى تاجر عربى (٢). وكان أول أوروبى يدخل مدينة هرار في أثيوبيا عام ١٨٥٥ م، واصيب بحربة في فكّه الأسفل، ووضع كتاب «خطوات في أفريقيا الشرقية». وأقام سنتين في تركيا. وفي عام ١٨٥٨ م أرسلته الحكومة البريطانية في بعثة لكشف منابع النيل، فكتب عن مناطق البحيرات في أفريقيا الاستوائية، واكتشف بحيرة تنجانيقا (٣).

بعد ذلك غيّر بورتون مسار رحلاته، وتوجّه إلى شمال أمريكا لدراسة «المورمون» (طائفة دينية نشأت في القرن التاسع عشر اعتبر مؤسسها أنّ تعاليمه مكّملة للإنجيل) في سولت ليل سيتي (ولاية يوتا). وفي عام ١٨٦١ تزوّج من «ايزابيل ارونديل» التي لعبت دوراً كبيراً في تعيينه في المراكز القنصلية في أفريقيا الغربية والبرازيل ودمشق، ثم تريستا في شمال ايطاليا (٤). في العام ١٨٦٦ م منحه الملكة فيكتوريا رتبة فارس، جزاء خدماته التي قدّمها إلى بريطانيا العظمى، وفي العام ١٨٦٩ م نُقل من البرازيل إلى دمشق التي قصدها مع زوجته بصحبة «ادوارد بالمر» (أحد كبار العملاء السريين البريطانيين في الشرق)، ومنذ اللحظات الأولى انخرط بورتون وزوجته في حياة دمشق بكلّ ما أوتيا من وقت ومن قوّة، وقد كان بورتون المثال الوحيد، كما تقول زوجته، للرجل غير المسلم الذي ما إن أدّى

١-١ صحيفة الحياة: ٤ / ٥ / ١٩٩٢.

٢-٢ المستشرقون للعقبي؛ مرجع سابق ٢: ٥٩.

٣-٣ الاعلام للزركلي؛ مرجع سابق ٣: ٣٨، والمستشرقون ٢: ٥٩، وصحيفة الحياة.

٤-٤ صحيفة الحياة: ٤ / ٥ / ١٩٩٢.

ص: ٢٥٦

الحجّ، حتّى صار مثل المسلمين يعتبرونه واحداً منهم، ويسمّونه الحجّي عبدالله، ويعاملونه كأنّه واحد منهم.. وفيما تنغمس الزوجة ايزابيل في أعماق المجتمع الدمشقي.. كان زوجها يمارس هواية غير مألوفة في السلك الدبلوماسي، وهي العودة إلى حياة التقنّع والتخفى التي طالما أجادها، وكان يجوب أسواق دمشق القديمة متزيّياً كلّ مرّة بشخصية مختلفة من الشخصيات المحليّة.. كذلك كانت ايزابيل بورتون ترتدي أحياناً الزي العربي (من دون أن تتخفى) وتنزل إلى دمشق لكي تتذوّق شيئاً من حياة الشرق، حسب زعمها.

وحين كانت تسافر في الصحراء بمعيتها زوجها كانت ترتدي ثياب الرجال مدّعية أنّها ابنة ريتشارد! قبل مضيّ وقت غير طويل، بدأت علامات الاستفهام تُثار حول تحرّكات السفير وزوجته التي بدأ مسلمو دمشق يتهمونها بالتعصّب للكثلكة والتبشير بها كلّما سنحت لها الفرصة، وحينما بلغت تدخّلات بورتون في سياسات دمشق المحليّة ذروتها اضطرت وزارة الخارجية البريطانية نقل قنصلها بورتون إلى تريستا الإيطالية، وذلك في ١٦ آب (اغسطس) ١٨٧١ م (١).

وفي إيطاليا، حيث كان الضجر يطغى على حياته، تذكّر بورتون أنّ أحد معارفه في القاهرة كان أخبره بأنّه خلال عودته من الحجّ اكتشف مغارة مليئة بالذهب في مقطع تقع شمال الجزيرة العربية، يفصلها عن سيناء خليج العقبة.. وهكذا نجد بورتون على رأس بعثة ضمّت مهندساً فرنسياً وبعض الجنود المصريين، بعدما تمّ إقناع الخديوي إسماعيل، وغادرت المجموعة السويس في آذار (مارس) ١٨٧٧ م، وأمضت ثلاثة أسابيع في المنطقة وجدت خلالها النقوش القديمة والحشرات والنباتات الجديدة، إلّا أنّها لم تكتشف أيّ ذهب، ولكن هذا لم يمنع بورتون من إرسال بريقة إلى الخديوي مليئة بالآمال والاحتمالات بوجود الذهب، فوافق إسماعيل على توسيع البعثة، فعاد بورتون من جديد مع مجموعة مؤلّفة من أربعة أوروبيين وستّة ضباط مصريين و ٣٢ جندياً

ص: ٢٥٧

و ٣٠ عاملاً في مقالع الأحجار، وطبخ يوناني ونجار.

وعلى امتداد أربعة أشهر، أخفق بورتون في الحصول على مبتغاه، بيد أنه تمكن من مسح مساحة ٢٥٠٠ ميل، وعادوا ب ٢٥ طنّاً من النماذج المختلفة، ودرسوا ١٨ موقعاً قديماً، في مقدّماتها مدينة مدين.. ويعتبر علماء الجغرافيا أنّ مسح بورتون الجيولوجي لهذه المنطقة كان أهمّ إسهام قدّمه لدراسة شبه الجزيرة العربية.

وبعد هذه الرحلة، خفّف بورتون تنقلاته، وتفرّغ لنشاطات أدبية عدّة، فأكمل عام ١٨٨٦ م أكبر مهمّة نذر نفسه لها وهي ترجمته الانكليزية لكتاب «ألف ليلة وليلة» التي وصلت إلى ١٦ مجلداً، بما فيها الملاحظات والهوامش المطوّلة (١)، وقد صدرت في العام نفسه الذي حصل فيه على لقب سير. كما اهتمّ بنشر كتبه وإعادة طبع بعضها. وإضافة إلى ما تمّت الإشارة إليه في ثنايا البحث من كتبه، هناك عدّة مؤلّفات له كتبها كلّها بالانكليزية ونشرت وهو حيّ؛ وأهمّها: سوريا غير المكتشفة، زنجبار، مناطق البحيرات في أواسط أفريقيا، وكان قد حاول مع غيره ترجمة القرآن بالسجع الشعري (٢).

وفي تشرين الأوّل (أكتوبر) ١٨٩٠ م، توفي السير ريتشارد بورتون في تريستا، وهو في التاسعة والسّتين من عمره، ودفن في لندن، وقد شيّدت له زوجته ضريحاً فريداً اتخذ شكل خيمة عربية (٣)، كما وضعت كتاباً عن حياته.

العدد القادم

الهوامش:

١ - ١ صحيفة الحياة: ٤ / ٥ / ١٩٩٢، وللمزيد حول ترجمة كتاب ألف ليلة وليلة تراجع «دائرة المعارف الإسلامية» بقلم نخبة من المستشرقين، ترجمة أحمد الشنتاوي وآخرين، دار المعرفة، بيروت د. ت، المجلد الثاني، ص: ٥٣٤، حيث يذهب كاتب المادّة مكدونالد إلى أنّ بورتون اعتمد كثيراً على ترجمة «باين» بل نقل منها نقلًا حرفياً في كثير من الأحيان.

٢ - ٢ يراجع الاعلام للزركلي ٣: ٣٨، والمستشرقون للعقيقي ٢: ٦٠.

٣ - ٣ صحيفة الحياة؛ مرجع سابق، وقد وقع د. حلمي خضر ساري في اشتباه، حين ذكر وفاته في القاهرة. رغم اعتماده منهجاً علمياً صارماً. وجلّ مَنْ لا يُخطئ!











ص: ٢٤٢

شخصيات من الحرمين الشريفين (١١)

**ابو أيوب الأنصاري**

أبو أيوب الأنصاري

رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه

حسن الحاج

تلك هي مدرسة مباركة، أصلها ثابت وفرعها في السماء لا يضربها من كبا، ولا يعكر صفوها من ولي وجهه بعيداً عنها.. وكيف يكدر مسيرتها من شطط، ويضعف كيانها من جفا، وها هو رسول الله صلى الله عليه وآله قائم عليها، يؤسس بنيانها على تقوى من الله ورضوان، يمدّها بعطائه الذي لا ينضب، وبخلقه الذي لا يحد ولا يتوقف، ويعلمه الذي لا يبور..!؟

فكان منهم الصادقون حقاً، وكان منهم الصالحون، وكان منهم الشهداء...

وهكذا ظلّت شجرتها خضراء مورقة معطاء بفضل دمائهم وجهودهم ومواقفهم ...

رغم ما تعرّضت له من كيد وتآمر، وما توغّل في صفوفها من نفاق، وما حيك حولها من اتهامات وأثير عليها من شبهات..

فالصحابة والصحبة مدرسة قلّ نظريها وفقد شبيها في التاريخ، إنهم طليعة آمنوا برّبهم فزادهم الله هدًى؛ لهذا لا تجد مثيلاً لهم في حياتنا قديماً وحديثاً إلا من رحم ربّي، نخبة صالحة تفردت بصفاتٍ وخصائص.. راحت تتمناها الأجيال المؤمنة وتحلّي بها وهي تكدح متمنية رضوان الله وجنانه..

ص: ٢٤٣

إنّ من يقرأ حياتهم مهاجرين وأنصاراً يضع يده على مزايا عالية وأخلاق رفيعة ومناقب راقية وبسالة وجهاد، تحلى بكلّ هذا وبغيره من قيم السماء جمع كثير منهم، حتّى إنك تجد وكأنّ بعضاً منهم اصطفته السماء واصطنعته يد الغيب لمهام رساليته، وليبقى نموذجاً فذاً، ومثالاً يتحدّى، وحجّة على غيره ممّن عاصروه والذي جاؤوا من بعدهم،.. والسابقون الأوّلون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضی الله عنهم ورضوا عنه وأعدّ لهم جنّات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم.

لقد حظيت هذه الشريحة من الصحابة بنصيبٍ وافٍ من رعاية الرسول الكريم صلى الله عليه وآله واهتمامه وهدية وتربيته وتعليمه، فراحت تستوعب كلّ ذلك بوعى ورغبة، وتمثّلت ما اكتسبته من رسول الله صلى الله عليه وآله أسلوباً عملياً ومواقف صلبة - لم تهن ولم تنكل ولم تنقلب ولم تغير ولم تبدّل ولم تحد عن منهجه ولم تتجاوز خطاه، ظلّت مستقيمة على مبادئها وفيه لقيمها، حتّى غدت أمّة رساليته فحملت أعباءً عظيمة ومخاطر جسيمة..

والأنصار هؤلاء الذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً يحبّون من هاجر إليهم.

وروى عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «لولا الهجرة لكنّتُ امرأة من الأنصار». وهذا الصحابي الجليل واحد منهم.

فهو خالد بن زيد بن كليب بن ثعلبة بن عبد بن عمرو بن عوف بن غنم بن مالك بن النجار بن ثعلبة بن الخزرج، المعروف ب «أبو أيوب الأنصاري الخزرجي المالكي» من أشرف الأنصار وساداتهم. صحابي جليل آخى رسول الله صلى الله عليه وآله بينه وبين مصعب بن عمير.

مضيف رسول الله صلى الله عليه وآله، بهذا عرف هذا الصحابي الجليل، فقد أكرمه الله تعالى بكرامة أعلنت في الدنيا قدره حين اختار بيته من دون البيوت؛ ليحلّ فيه

ص: ٢٦٤

رسول الله صلى الله عليه وآله حين هاجر من مكة، ورحل صلى الله عليه وآله من قباء إلى المدينة، فبعد أن اقتربت قافلته صلى الله عليه وآله من تخوم هذه البلدة الطيبة، وطأت قدماه الشريفتان أرض المدينة مهاجراً، وراحت تحييه بدءاً بسعيفات نخلهما التي استقبلته بظلالها الوارفة، ومروراً بقلوب أهلها التي راحت هي الأخرى تستقبله بأفضل ما يتلقى به مقبل، وتطلعت عيونهم إليه، وفتحت له أفئدتهم... وانتهاءً ببيوتها التي أشرعت أبوابها..

وحسب هذا الأنصاري بذلك فخراً وشرفاً وكرامة...

دعوها إنها مأمورة!

فقد راح رسول الله صلى الله عليه وآله يصوب ناظريه إلى حيث المكان الذي عيّنته السماء لتبليغ دعوتها وحمل رسالتها إلى الناس كافة... فشدّ صلى الله عليه وآله رحاله عبر صحراء محرقة ملتهبة ورياح مغبرة تلفح وجهه الشريف... وعبر هضاب صعبة وصخور صماء ووديان جافة... حتى اقتربت قافلته صلى الله عليه وآله من تخوم يثرب... إنها معاناة شاقة وتعب مرير..

علت وجهه المبارك ابتساماً وهو يلمح معالم هذه البلدة الطيبة.. وسرعان ما ينظر خلفه - حيث مدينته التي ولد ونشأ بين هضابها وجبالها ولصق بها، وتعلق قلبه بحبها، يودّعها بدموع منهمرة وفوادٍ حزين...

هاهي يثرب، وها هو النور قد قدم، وها هي الجموع عند ثنيات الوداع، وقد أحاطت برسول الله صلى الله عليه وآله من كل جانب، يتسابقون للترحيب به، ولخدمته وضيافته. كم هي امنية عظيمة عاشت في نفوسهم جميعاً صغيراً وكبيراً أن يحلّ هذا المهاجر الكريم بين ظهرانيهم؟! ومن هو صاحب الحظ الأوفر الذي ادّخرته السماء ليضع رسول الرحمة رحله عنده؟!

راحت أصواتهم تعلو وأهازيجهم تملأ ذلك المكان، وقد فتحت له قلوبهم وتطلعت له عيونهم... وراح كل واحد منهم يهلك نفسه امنية وحسرة ليتشرف بضيافة رسول الله صلى الله عليه وآله، وهم يعترضون ناقته، آخذين بزمامها..

ص: ٢٦٥

نحن بنو سالم،... أقم عندنا في العدد والعدّة والمنعّة.. نحن بنو بياضة،...  
هلمّ إلينا، إلى العدد والعدّة والمنعّة،... نحن بنو ساعدة... نحن بنو الحارث...  
نحن بنو النجار....

اغمرنا بالسعادة يا رسول الله، انزل فدورنا لك عامرة، حتى راحت دموعهم تنهمر توسّلاً به صلى الله عليه وآله، وخوفاً من أن لا يلبي طلبهم.

لم تفارق محيّا صلى الله عليه وآله ابتساماً الشكر لهم والثناء عليهم، ولم يزد على قوله لهم:  
خلّوا سبيلها، فإنّها مأمورة.. أى الأمر ليس بيدي إنّه بيد السماء، فقد امرت هذه الناقّة بشيء وهى منقادة إليه، وها هو زمامها مرسلًا..  
فخلّوا سبيلها، وما زالت عيونهم تلاحقها وقلوبهم تحفّ بها..

رمق صلى الله عليه وآله السماء بطرفه «اللهم خر لى، واخر لى».

كان أبو أيوب الأنصاري أحدهم وقد ابتلت لحيته بدموع الأمل والفرح..

وراحت نفسه تتوق إلى أن تكون صاحبة تلك الضيافة وتلك الحظوة، حقاً لا ينالها إلا ذو حظّ عظيم.

لقد بركت الناقّة فى أرضه.. لكنّها نهضت ثمّ عادت ورسول الله صلى الله عليه وآله يرخى لها زمامها، لا يثنيها به.. وبركت بجوار بيته  
واستقرّت... فنزل رسول الله صلى الله عليه وآله عنها وقد ملئت أسارير وجهه بشراً وسروراً..

وخطى نحوه صاحب الحظّ الأوفر والسعادة العظمى، أبو أيوب وقد علا وجهه الفرح والغبطة.. إنّه الرحل إذن أحمله وراح يحمل رحله  
وكأنّه يحمل كنوز الدنيا وما فيها، واتجه به إلى بيته، وسمع رسول الله يقول للناس وهم يدعونه إلى منزله... «المرء مع رحله» فراحت  
العيون تغبط أبا أيوب على هذا النصيب الوافر والحظّ الوافى..

مع رواية الطبرى:

إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله ركب ناقته وأرخى لها الزمام، فجعلت لا تمرّ بدار من دور

ص: ٢٦٦

الأنصار إلدعاه أهلها إلى النزول عندهم، وقالوا له: هلم يا رسول الله إلى العدد والعدّة والمنعّة، فيقول لهم صلى الله عليه وآله: «خلوا زمامها فإنها مأمورة» حتّى انتهى إلى موضع مسجده اليوم، فبركت على باب مسجده، وهو يؤمئذ مربدٌ لغلامين يتيمين من بنى النجار فى حجر معاذ بن عفراء، يقال لأحدهما سهل وللآخر سهيل ابنا عمرو ابن عباد بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار، فلما بركت لم ينزل عنها رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم وثبت فسارت غير بعيد، ورسول الله صلى الله عليه وآله واضع لها زمامها لا- يثنيها به، ثم التفتت خلفها، ثم رجعت إلى مبركها أول مرة، فبركت فيه ووضعت جرائنها، ونزل عنها رسول الله صلى الله عليه وآله، فاحتمل أبوأيوب رحله، فوضعه فى بيته، فدعته الأنصار إلى النزول عليهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: المرء مع رحله. فنزل على أبى أيوب خالد بن زيد بن كليب فى بنى غنم بن النجار... وسأل رسول الله صلى الله عليه وآله عن المربرد لمن هو؟ فأخبره معاذ بن عفراء، وقال: هو ليتين لى، سأرضيهما.

فأمر به رسول الله أن يبنى مسجداً، ونزل على أبى أيوب، حتّى بنى مسجده ومساكنه. وقيل: إن رسول الله صلى الله عليه وآله اشترى موضع مسجده ثم بناه.

وقد أعقب هذه الرواية بما قاله أنس بن مالك: كان موضع مسجد النبى صلى الله عليه وآله لبنى النجار، وكان فيه نخل وحرث وقبور من قبور الجاهليّة، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله: ثامنوني به، فقالوا: لا نبتغى به ثمناً إلّا ما عند الله.

فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله بالنخل فقطع، وبالحرث فأفسد، وبالقبور فنبتت...

وتولّى بناء مسجده صلى الله عليه وآله هو بنفسه وأصحابه من المهاجرين والأنصار (١).

فقد شاءت السماء أن يكون جوار مبرك هذه الناقّة مسجداً عظيماً، ثانى الحرمين الآمنين بعد مكّة المباركة، ومدرسة للقرآن وعلومه، وموضعاً يحكم فيه بين العباد وترسم فيه مناهج السياسة وخطط الحرب.. إنه بقعة مباركة طالما كانت مكاناً آمناً وملتقى عظيماً تهفو إليه قلوب المؤمنين، يتحلّقون حول رسول الله صلى الله عليه وآله يبلغهم ما توحى السماء من آيات مباركة وأحكام تنظيم حياتهم، ويملاً قلوبهم إيماناً



ص: ٢٤٧

ويثبت أقدامهم... ويلبى حوائجهم ويجيب عن أسئلتهم ويقضى بينهم حتى غدا هذا المكان من المقدسات الكبرى يؤمه الملايين من المسلمين والمؤمنين، يأتونه من كل بقاع الدنيا ترفع فيه الدعوات ويبتهل فيه إلى العلى القدير.. وتذكرهم أجواؤه بتلك الوجوه الطاهرة أنصاراً ومهاجرين وهم يضعون أسسه ويرفعون بناءه.

وأن يكون ضريحاً يضم الجسد الطاهر لخاتم النبيين، وأن ترد في فضله الروايات والأحاديث لتبين فضله وعلو مكانه.. لقد كان بيت الصحابي الجليل أبي أيوب الأنصاري الذي مكث فيه رسول الله صلى الله عليه وآله شهراً قبل ابتناؤه المسجد مؤلفاً من طبقتين؛ طبقة سفلى فوقه علية، آثر رسول الله صلى الله عليه وآله أن ينزل الطبقة السفلى منه ليقبى الآخر لأبي أيوب وأهله. لَمَّا حلَّ الليل، وقد آوى نبي الرحمة إلى فراشه، صعد أبو أيوب وزوجته إلى حيث فراشهما في الطبقة الثانية، فانتبه أبو أيوب إلى عمله واستنكر فعلته قائلاً لزوجته:

ويحك، ماذا صنعنا؟!

أَيكون رسول الله صلى الله عليه وآله أسفل، ونحن أعلى منه؟!

أنحشى فوق رسول الله صلى الله عليه وآله؟!

أنصير بين النبي والوحي؟! إننا إذن لهالكون، ولم تسكن نفساهما بعض السكون إلّا حين انحازا إلى جانب العلية الذي لا يقع فوق رسول الله صلى الله عليه وآله! والتزماه لا يبرحانه ماشيين على الأطراف متباعدين عن الوسط.

فلَمَّا أصبح أبو أيوب قال للنبي صلى الله عليه وآله: واللّه ما أغمض لنا جفنٌ في هذه الليلة لا أنا ولا أمّ أيوب.

فقال عليه الصلاة والسلام:

وممّ ذاك يا أبا أيوب؟!

ص: ٢٤٨

قال: ذكرتُ أنّي على ظهر بيت أنت تحته، وأنّي إذا تحرّكت تناثر عليك الغبار فأذاك، ثمّ إنّي غدوت بينك وبين الوحي. فقال له الرسول صلى الله عليه وآله:

هوّن عليك يا أبا أيوب، إنّه أرفق بنا أن نكون في السُّفل، لكثرة من يغشانا من الناس.

قال أبو أيوب:

فامتثلت لأمر رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أن كانت ليلة باردة فانكسرت لنا جِرّةٌ وأريق ماؤها في العُلّية، فقمّت إلى الماء أنا وأمّ أيوب، وليس لدينا إلّا قِطيفه كُنّا نتخذها لحافاً، وجعلنا نشف بها الماء خوفاً من أن يصل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله.

فلما كان الصباح غدوت على الرسول صلوات الله عليه وقلت: بأبي أنت وأمي، إنّي أكره أن أكون فوقك، وأن تكون أسفل منّي، ثم قصصت عليه خبر الجِرّة، فاستجاب لي، وصعد إلى العُلّية، ونزلت أنا وأمّ أيوب إلى السُّفل.

إنّه لقاء عظيم مبارك لأبي أيوب برسول الرحمة وهو اللقاء الثاني، بعد أن كان واحداً من ثلاثة وسبعين رجلاً وكانت معهم امرأتان وهم الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وآله ببيعة العقبة الثانية فقد قويت بهم شوكة الإسلام والمسلمين، وكانوا بها للمهاجرين إخواناً، وداراً يأوون إليها ويؤمنون بها، وكانت هذه المصافحة الثانية ليد رسول الله صلى الله عليه وآله، الأولى كان فيها مبايعاً مؤمناً، والثانية مبايعاً مضيفاً.

من رواياته

قال: قلتُ يارسول الله، ما هذه الأربع ركعات التي تصلّيها عند الزوال؟

قال: «هذه الساعة تفتح فيها أبواب السماء فلا ترتج حتى تصلّي الظهر، فأحبّ أن أقدم خيراً» (١).

وعنه أيضاً أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن (٢).

وله أيضاً أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «لا تهاجروا ولا تدابروا وكونوا عباد الله

١-١ حلية الأولياء ١٠: ٢١٨.

٢-٢ حلية الأولياء ٧: ٧٣٤.

ص: ٢٦٩

إخواناً، هجرة المؤمن ثلاث، فإن تكلمنا وإلا أعرض الله عنهما حتى يتكلمنا» (١).  
وعنه أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «أيعجز أحدكم أن يقرأ ليلته بثلاث القرآن؟». فأشفقنا أن يأمرنا بأمر نعجز عنه، قال: فسكتنا. فقال ثلاث مرّات: «أن يقرأ بثلاث القرآن فإنه من قرأ الله الواحد الصمد، فقد قرأ ليلته ثلاث القرآن» (٢).

ومما رواه أن رجلاً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: دلني على عمل أعمله يدني من الجنة ويباعدني من النار، قال صلى الله عليه وآله: «تعبد الله لا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصل ذا رحمك». قال: فأدبر الرجل.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن تمسك بما أمر به دخل الجنة» (٣).  
وله أيضاً: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من أخلص لله تعالى أربعين يوماً ظهرت ينابيع الحكمة على لسانه» (٤).  
ومن حكمه:

من أراد أن يكثر علمه وأن يعظم حلمه، فليجالس غير عشيرته.

مكانته

كان أبو أيوب من الواعين للحالة التي انتابت المجتمع الإسلامي أيام الخلافة الثالثة، وما دبّ في هذه الأمة من فساد وانحراف فبادر هو وجمع من الصحابة لعلي عليه السلام قائلين له: إن هذا الأمر قد فسد، وقد رأيت ما صنع عثمان، وما أتاه من خلاف الكتاب والسنة، فأبسط يدك نبايعك، تصلح من أمر الأمة ما قد فسد.

ولمّا وقع حصار بيت عثمان من قبل الثوّار الذين راحوا يحيطون ببيته من كلّ جانب، بعد أن يسوا من تلبية الخليفة لمطالبهم التي وعدهم بها مراراً ولم يف، فلم يقصد غيره لإمامة صلاة الجماعة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله، فجاء مؤذن المسجد يومذاك سعد القرظ إلى الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في ذلك اليوم، فقال: من

١-١ حلية الأولياء ٧: ٩٥.

٢-٢ حلية الأولياء ١: ١١٧.

٣-٣ حلية الأولياء ٤: ٣٧٤.

٤-٤ حلية الأولياء ٥: ١٨٩.

ص: ٢٧٠

يصلّي بالناس؟

فقال عليّ عليه السلام: نادِ خالد بن زيد.

فنادى خالد بن زيد، فصلّي بالناس.

وهنا يقول الطبري في تاريخه: فإنه لأوّل يوم عرف أنّ أبا أيوب خالد بن زيد.

فكان يصلّي بهم أيّاماً، ثمّ صلّي عليّ عليه السلام بعد ذلك بالناس (١).

وشبيه بهذا ما حدّث به عبدالله بن نافع عن أبيه عن ابن عمر، قال: لما حُصر عثمان صلّي بالناس أبو أيوب أيّاماً، ثمّ صلّي بهم عليّ

الجمعة والعيد (٢).

وهذا الأمر يدلّنا على أنّ لأبي أيوب مكانةً مرموقةً في قلوب الناس، وله منزلة رفيعة عند الإمام عليّ عليه السلام فاختره دون الآخرين

ليؤمّ المسلمين.

وكان ابن عباس يجلّه كثيراً ويحفظ له موقفه من رسول الله صلى الله عليه وآله فقد قدّم أبو أيوب البصرة فنزل على ابن عباس وكان

الأخير والياً عليها، ففرغ له بيته، وقال له: لأصنعن بك كما صنعت برسول الله صلى الله عليه وآله. ثمّ قال له: كم عليك من الدين؟

قال: عشرون ألفاً.

فأعطاه أربعين ألفاً وعشرين مملوكاً، ثمّ قال له:

لك ما في البيت كلّه.

موقفه من معاوية

بعد معارك الإسلام الكبرى شارك أبو أيوب الأنصاري في معارك أخرى خاضها الإمام عليّ عليه السلام ومنها معركة صفين، فقد

كان إلى جوار الإمام عليّ عليه السلام ضدّ معاوية وجنده.

سُئل أبو أيوب يوماً: يا أبا أيوب قد أكرمك الله بصحبة نبيّه صلى الله عليه وآله ونزوله عليك، فما لي أراك تستقبل الناس تقاتلهم،

تستقبل هؤلاء مرّةً وهؤلاء مرّةً؟

١-١ تاريخ الطبري ٢: ٦٩٤.

٢-٢ تاريخ الطبري ٢: ٦٩٤.

ص: ٢٧١

فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله عهد إلينا أن نقاتل مع عليّ الناكثين، فقد قاتلناهم، وعهد إلينا أن نقاتل مع عليّ القاسطين، فهذا وجهنا إليهم، يعنى معاوية وأصحابه، وعهد إلينا أن نقاتل مع عليّ المارقين، فلم أرهم بعد (١).

وحيثما أراد الإمام عليه السلام الرجعة إلى صفين لحرب معاوية ثانية، كان أبو أيوب قائداً من قيادات الجيش، فقد عقد الإمام عليه السلام لابنه الحسين عليه السلام في عشرة آلاف، ولقيس بن سعد في عشرة آلاف، ولأبي أيوب في عشرة آلاف، ولغيرهم على أعداد أخرى، وهو ينادى بأعلى صوته:

الجهاد الجهاد عباد الله! ألا وإني معسكر في يومي هذا، فمن أراد الرواح إلى الله فليخرج!

إلا أن الغدر المتمثل بضربة ابن ملجم قد حال بينه وبين مراده، وكما يقول أحد أصحابه بعد استشهاده عليه السلام: ... فكنا كأغنام فقدت راعيها، تختطفها الذئاب من كل مكان (٢).

ولما وجد معاوية أن أبا أيوب الأنصاري أشد الأنصار عليه وأن له دوراً مهماً ومكانة رفيعة عند عليّ عليه السلام، راح يرأسه فلعله يستميله بعض الشيء، ولا أقل يزرع الشك في موالاته للإمام عليّ عليه السلام وفي تشويه مواقفه، فكتب إليه كتاباً وكان سطرًا واحدًا: عن الأعمش وهو أحد أعلام كتاب صفين أنه قال:

كتب معاوية إلى أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري، صاحب منزل رسول الله صلى الله عليه وآله وكان سعيداً معظماً من سادات الأنصار، وكان من شيعته على عليه السلام، كتاباً، ... قال فيه: لا تنسى شياً أبا عذرتها، ولا قاتل بكرها، أو أمّا بعد، فإني ناسيتك ما لا تنسى الشياء.

فلما قرأ أبو أيوب كتابه المختصر هذا، لم يدر ما هو، فأتى به علياً عليه السلام، وقال:

يا أمير المؤمنين، إن معاوية ابن آكلة الأكباد، وكهف المنافقين، كتب إليّ بكتابٍ

١- ١ مختصر تاريخ دمشق ٧: ٣٤٠.

٢- ٢ انظر نهج البلاغة لصبحي الصالح: ٢٦٤.

ص: ٢٧٢

لا أدري ما هو، فقال له عليّ: وأين الكتاب؟ فدفعه إليه فقرأه وقال: نعم، هذا مثلٌ ضربته لك، يقول: ما أنس الذي لا تنسى الشياء، لا تنسى أبا عذرتها، والشياء:

المرأة البكر ليلة افتضاضها، ولا تنسى بعلمها الذي افتزعها أبداً، ولا تنسى قاتل بكرها وهو أول ولدها أو لا تنسى ثكل ابنها، وكذلك لا أنسى أنا قاتل عثمان (١).

فكتب إليه أبو أيوب: إنّه لا تنسى الشياء ثكل ولدها، وضربتها مثلاً لقتل عثمان، فما نحن وقتله عثمان؟ إنّ الذي تربص بعثمان، وثبط أهل الشام عن نصرته لأنت، وإنّ الذين قتلوه غير الأنصار، والسلام.

دوره في فتنة الخوارج

وكان لأبي أيوب الأنصاري دوره المتميّز في الحوار مع الخوارج وإقناع شريحة واسعة منهم بأن يعتزلوا الحرب قبل وقوعها أو تحييد جمع منهم وإبعادهم عن قتال مرير أطاح بمن لم يزد نداء الخير والحق إلا عناداً ونفوراً، فقد خرج إليهم الإمام عليّ عليه السلام وقد عبأ الناس لقتالهم بعد أن سفكوا الدم الحرام، فجعل عليّ يمينه جيشه حُجر بن عدى وعليّ ميسرته شيب بن ربعي، وعليّ رواية معقل بن قيس الرياحي، وعليّ الرجال أبا قتادة الأنصاري، وعليّ أهل المدينة وهم سبعمائة أو ثمانمائة رجل، قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري. فيما راح الصحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري يقف على الخيالة... (٢).

وعبأت الخوارج مقاتليها، فجعلوا على ميمتهم زيد بن حصين الطائي، وعليّ الميسرة شريح بن أوفى العبسي، وعليّ خيلهم حمزة بن سنان الأسدي، وعليّ الرجال حرقوص بن زهير السعدي.

بعد هذا الحشد الكبير للفريقين، واستعدادهم للقتال، وبعد نداءات ومواعظ الإمام عليّ عليه السلام المتكررة، رفع الإمام عليه السلام أخيراً راية أمانٍ وكان إلى جواره أبو أيوب الأنصاري، الذي راح يناديهم بأعلى صوته- بعد أن أذن له الإمام عليه السلام- قائلاً: مَنْ جاء هذه الراية منكم ممّن لم يقتل ولم يستعرض فهو آمن، ومن انصرف

١- ١ وقعة صفين: ٣٦٦، والإمامة والسياسة: ١٦٩- ١٧٠.

٢- ٢ الطبري، وانظر الإمامة والسياسة ١: ١٦٩.

ص: ٢٧٣

منكم إلى الكوفة أو إلى المدائن، وخرج من هذه الجماعة فهو آمن؛ إنه لا حاجة لنا بعد أن نصيب قتلنا إخواننا منكم في سفك دمائكم.

وعلى إثر خطابه رضوان الله عليه، قال فروة بن نوفل الأشجعي وهو من كبار الخوارج: والله ما أدري على أي شيء نقاتل علياً! لا أرى إلّا أن أنصرف حتى تنفذ لي بصيرتي في قتاله أو أتباعه. وانصرف في خمسمائة فارس حتى نزل البندنجين والدسكرة.

وخرجت طائفة أخرى متفرقين فنزلت الكوفة، وخرج إلى عليّ منهم نحو من مائة. وبقي منهم ألفان وثمانمائة خرجوا زاحفين على جيش الإمام علي عليه السلام بقيادة صاحبهم عبدالله بن وهب.. فاستقبلت المرامية وجوههم بالنبل وعطفت عليهم الخيالة بقيادة أبي أيوب الأنصاري من اليمين والميسرة، ونهض إليهم الرجال بالرمح والسيوف، فوالله ما لبثهم أن أناموهم.. (١).

ولما أراد الإمام علي عليه السلام الانصراف من معركة النهروان والتي انتهت بانتصار عظيم له وهزيمة ساحقة للخوارج، وقف خطيباً مرتين، ومما قاله في خطبته الأولى، بعد أن حمد الله تعالى:

أما بعد، فإن الله قد أحسن بلاءكم، وأعز نصركم، فتوجهوا من فوركم هذا إلى معاوية وأشياعه القاسطين، الذين نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم، واشتروا به ثمناً قليلاً، فبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون.

فكان جوابهم أن قالوا: يا أمير المؤمنين نفدت نبالنا، وكلت أذرعنا، وتقطعت سيوفنا، ونصلت أسنة رماحنا، فارجع بنا نحسن عدتنا...

إلّا أنهم ما إن أقبل بهم الإمام ونزل بهم معسكر النخيلة حتى راحوا يتسللون ويدخلون الكوفة حتى تركوا علياً وما معه إلّا نفر يسير..

ثم ارتقى المنبر ثانيةً واستحثهم واستنهضهم مرة أخرى لقتال عدوهم معاوية، فقال بعد حمد الله تعالى والثناء عليه:

ص: ٢٧٤

أيها الناس، استعدّوا للمسير إلى عدوّ في جهاده القربة إلى الله، ودرك الوسيلة عنده، فأعدّوا ما استطعتم من قوّة ومن رباط الخيل، وتوكلوا على الله وكفى به وكيلًا.

ولم يجد فيهم العزم على ذلك، فقال لهم: عباد الله، ما لكم إذا أمرتكم أن تنفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة (١).

، وبعدهما انتهى الإمام من خطبته، قام أبو أيوب الأنصاري خطيباً فقال:

إنّ أمير المؤمنين أكرمه الله قد أسمع من كانت له أذن واعية، وقلب حفيظ، إنّ الله قد أكرمكم به كرامه ما قبلتموها حقّ قبولها، حيث نزل بين أظهركم ابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وآله، وخير المسلمين وأفضلهم وسيدهم بعده، يفقهكم في الدين، ويدعوكم إلى جهاد المحلّين، فوالله لكأنكم صمّ لا تسمعون، وقلوبكم غلف مطبوع عليها فلا تستجيبون.

عباد الله، أليس إنّما عهدكم بالجور والعدوان أمس، وقد شمل العباد، وشاع في الإسلام، فذو حقّ محروم، ومشتوم عرضه، ومضروب ظهره، وملطوم وجهه، وموطوء بطنه، وملقى بالعراء، فلمّا جاءكم أمير المؤمنين صدع بالحقّ، ونشر بالعدل، وعمل بالكتاب، فاشكروا نعمة الله عليكم، ولا تتولّوا مجرمين، ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون، اشحذوا السيوف، وجدّدوا آلة الحرب، واستعدّوا للجهاد، فإذا دُعيتم فأجيبوا، وإذا امرتم فأطيعوا، تكونوا بذلك من الصادقين (٢).

مواقف اخرى

كان هذا الصحابي مؤمناً تقياً مجاهداً واعياً يبحث عن الحقّ ويتحرّاه في كلّ نواحي حياته، في قوله وفعله، ويقف بقوّة مدافعاً عن الحقّ والعدل، فتراه واحداً من شيعة عليّ حينما رأى أنّ عليّاً مع الحقّ والحقّ مع عليّ، مبتغياً رضا الله تعالى الذي نذر له حياته، وفي عبادته تراه ذلك الرجل الذي إن صلّى كانت صلاته صلاة

١- ١ التوبة: ٣٨.

٢- ٢ الإمامة والسياسة ١: ١٦٩-١٧٣.



ص: ٢٧٥

مودّع، وإن تكلم فلا يتكلم بما يضطره للاعتذار، وإن تعامل مع إخوانه كان اليأس شعاره ممّا في أيديهم، فقد كانت القناعة ديدنه وسلوكه المتميّز، فهو بين عابد مودّع قتله الشوق لمولاه، وبين عازف إلّامن رحمته اللّهُ تعالى، وبين مقاتل ملأت قلبه الرحمة حتّى على أعدائه الذين هم أعداء الدين والحقّ، فتراه يوعظهم ويناديهم بلسان عطوف قبل أن يهزّ رمحه وينتشل سيفه ليجد له موقعه في أعداء اللّهُ.

ولا ريب في ذلك وقد راح ينتهل من معين النبوة الصافي، ومن صحبة رسول اللّهُ صلى الله عليه و آله، كان يستمع لنبى الرحمة صلى الله عليه و آله ويعى ما يسمع، قال له: «إذا صلّيت فصلّ صلاة مودّع، ولا تكلمنّ بكلام، تعتذر منه.. والزم اليأس ممّا في أيدي الناس». هذا في عبادته، وأما في شجاعته فقد كان شعاره- رضوان اللّهُ عليه- انفروا خفافاً وثقالاً فلم يتخلّف عنه، في بدر وأحد والخندق، وفي كلّ المعارك والمشاهد التي خاضها، والتي كان لها دور واضح في معالم حياته، فقد ملأت عليه كلّ وجوده ولم تترك له وقتاً يبعد به عن الأسنّة والرماح، أو يأخذ قسطاً من الراحة بين أحبّته ولمشاغله الخاصّة.

كانت حياته رضوان اللّهُ عليه همّاً متواصلاً للإسلام ولدعوته المباركة، يترفع عن الفتن الصغيرة والمطامع الزائفة، محلّقاً بناظره إلى حيث الهدف الأعلى الذي يرضى اللّهُ ورسوله.

لقد وهب أبو أيوب الأنصاري حياته وماله وحشاشة قلبه للجهاد في سبيل إعلاء كلمة الإسلام، ولا يهّمه من يكون على رأس قيادة الجيش، وشعاره (ما علّى من استعمل علّى)، ما دام الهدف هو الإسلام ودعوته، فكان مع مكانته العالية لا يريد أن يعيش إلّاجندياً تحت راية لا إله إلّاللّهُ، وأن يعيش مأموماً لا إماماً؛ لهذا تراه لا يبغى عنواناً بقدر ما يأمل أن ينال الشهادة في سبيله تعالى، وأن يرزقه اللّهُ خير الدنيا وخير الآخرة، فراحت بطولاته تتجلّى في كلّ معارك الإسلام

ص: ٢٧٦

الكبرى التي خاضها جندياً مخلصاً وفدائياً متفانياً، وحسبه فخراً أنه مع شدة تواضعه نال حظوةً تلو اخرى منذ أن آمن وحتى اتخن بالجراح وهو مقاتل عنيد تحت راية الإسلام، وصدق من قال: ما زال أبو أيوب شاخصاً في سبيل الله حتى دفن بأرض الروم. نعم، كان أبو أيوب في كل معاركه يُلقى بنفسه في لهواتها لا يأبه بعدة ولا عدد، ويدافع عن كل من يسير بسيرته هذه، ويتهاكك في الفداء واقتحام حشود أعدائه.

تقول الرواية: كنا بمدينة الروم، فأخرجوا إلينا جمعاً عظيماً من الروم، وخرج إليهم مثله أو أكثر، وعلى أهل مصر عقبه بن عامر صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله، فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم، فصاح به الناس وقالوا: سبحان الله، يُلقى بيده إلى التهلكة.

وهنا خشى أبو أيوب من أن يسرى هذا التأويل للآية فيثبط عزائم قومه وجند الإسلام، فقام وسط الجند وقال: أيها الناس إنكم تتأولون هذه الآية على هذا التأويل، وإنما نزلت هذه الآية فينا معاشر الأنصار، إنا لما أعز الله الإسلام وكثر ناصريه، قلنا بعضنا لبعض سراً من رسول الله صلى الله عليه وآله: إن أموالنا قد ضاعت، وإن الله قد أعز الإسلام وكثر ناصريه، فلو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله عز وجل على نبيّه صلى الله عليه وآله يرد علينا ما قلنا أو ما هممنا به وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين (١)

فكانت التهلكة الإقامة في أموالنا وإصلاحها وتركنا الغزو.

ثم تقول الرواية:

وما زال أبو أيوب شاخصاً في سبيل الله حتى دفن بأرض الروم (٢).

في وصية له وهو جندي مقاتل في أرض الروم:

اذهبوا بجثمانى بعيداً بعيداً في أرض الروم، ثم ادفنوني هناك. (ما على من

١- ١ سورة البقرة: ١٩٥.

٢- ٢ مختصر تاريخ دمشق ٧: ٣٤١، أسباب النزول للواحدى: ٦٠.

ص: ٢٧٧

استعمل عليّ) شعاره هذا.

كان هذا وهو يرى جموع المسلمين يصوبون أنظارهم إلى حيث القسطنطينية، وراح يحدث نفسه: إنها الشهادة التي طالما حدثت بها نفسى ولم أوفق لها.. امتطى جواده، وامتشق سيفه.. وعلاه رمحه.. وراح يصول ويجول مقاتلماً عنيداً يرّد كلمة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» حتى اثنى بالجراح.

تقدّم أحدهم نحوه وقد وجده يصارع سكرات الموت فى ساحة الوغى، لا بد أن تكون له حاجة...

هل لك يا أبا أيوب من حاجة؟

(اذهبوا بجثمانى بعيداً بعيداً فى أرض الروم ثم ادفنوني هناك).

إنه اليقين بالفتح والنصر، وكأنه يريد أن يقول: إني أريد مواصلة القتال بروحى، وأريد أن أواكب أعلام النصر الخفاقة وصهيل خيولكم ووقع أقدامكم وصلصلة سيوفكم.. لا أريد أن أكون بعيداً عن أجواء المعركة وغبارها. ولا أريد أن تتثنى الجراح عن خوض غمارها حتى النصر...

فى وسط تلك المدينة (القسطنطينية) استنبل فى تركيا اليوم، مدينة الألف مسجد المليئة بالأذان الذى يشق أذنى أبى أيوب فى كل حين.. وهو يرّد:

هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله.

رقد جثمان ذلك الفارس العنيد الذى كانت الشهادة امنيته منذ أول لحظة التقى بها برسول الرحمة، فكان مضيئه فى الدنيا؛ لينزل عند رسول الله فى الدار الآخرة ضيفاً عزيزاً كريماً، كما نزل عنده رسول الله ضيفاً عظيماً..

وظل هذا الجثمان وهذا المرقد مزاراً حتى للروم أنفسهم، الذين راحوا يتعاهدون قبره ويرمونه ويزورونه ويستسقون به إذا قحطوا.. كانت وفاته رضوان الله عليه بالقسطنطينية سنة خمس وخمسين، وقيل: فى سنة اثنتين وخمسين، وقيل: سنة خمسين، تقول الرواية: لم يزل أبو أيوب مجاهداً فى

ص: ٢٧٨

سبيل الله حتى دُفن بالقسطنطينية.

ولما توفي دفن مع سور المدينة وبنى عليه، فلما أصبحوا أشرف عليهم الروم فقالوا: يا معشر العرب، قد كان لكم الليلة شأن. فقالوا: مات رجل من أكابر أصحاب نبينا صلى الله عليه وآله... وقد أوصى بهذا؛ لئلا يكون أحد من المجاهدين ومن مات في سبيل الله أقرب إليكم منه.

ولما عرف الروم مكانة هذا المجاهد تعهدوا قبره وبنوا عليه قبة بيضاء، وأسرجوا عليه قنديلاً، وإذا أمحلوا كشفوا عن قبره فأمطروا (١). وكانت وصيته الأخيرة رضوان الله عليه:

إذا مت فاحملوني، فإذا صافتم العدو، فادفوني عند أقدامكم...

وسأحدثكم حديثاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وآله لولا حالي هذه ما حدثتكموه، سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول:

«من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة».

الهوامش:

١-١ انظر مختصر تاريخ دمشق ٧: ٣٤٢-٣٤٣.



ص: ٢٨٠

معجم ما كتب في الحجّ و الزيارة (١٠)

**معجم ما كتب في الحجّ و الزيارة (١٠)**

معجم ما كتب في الحجّ و الزيارة (١٠)

١٦١٧- فائدة عن جبال الحجاز ومنبسط أراضيه

محمد نصيف

المنهل (جدة) مج ٦: ج ٩ (٩/١٣٦٥ هـ / ٨/١٩٤٦ م) ص ٤٢٧

١٦١٨- فتاوى الحجّ والعمرة

محمد بن صالح بن عثيمين

مكة المكرمة: دار ابن القيم، ط ٢، ١٩٩٠ م، ٨٣ ص، ٢٤ سم

١٦١٩- الفتح المبين في جواز الدعاء وإهداء ثواب الأعمال لسيد المرسلين

محمد بن حسن بن همام الدمشقي الحنفي ت ١١٧٥ هـ

ظ

إيضاح المكنون ١٧١ / ٢

١٦٢٠- فتح المسالك في إيضاح المناسك

محمد أمين بن فتح الله الكردي الأربلي

القاهرة: د ت.

١٦٢١- فتح مكة

خ: الجامع الكبير بصنعاء برقم ٢١٦٧ في ٢٩١ ورقة

١٦٢٢- فتح مكة

أحمد بن عبد الله بن محمد البكري

ص: ٢٨١

القاهرة: ١٢٧٨ هـ / ١٨٦١ م.

ظ:

مصادر التراث العسكري عند العرب

١٦٧ / ٣

١٦٢٣- فتح مكّة

حسين أمين

البلاغ (بغداد): ع (١٢ / ١٩٦٧ م)

ص ٩٢-٩٤

١٦٢٤- فتح مكّة (بالفارسية)

خليل بن أبو طالب صميرى كمره‌اى

طهران: محمّد رضا تناوش،

ص ٧٤، ١٢ \* ١٨ سم

قم: ٧٢ ص

١٦٢٥- فتح مكّة

سمير عبد الرزاق قطب

بيروت: دار التوفيق (السلسلة الإسلامية)

١٦٢٦- فتح مكّة

(مسرحة)

عبد الجبّار شوكة البخار

بغداد: المطبعة العربية، ١٩٥٤ م

١٦٢٧- فتح مكّة

عبد الحميد جودة السّحار

منبر الإسلام. س ٢٤: ع ٣ (١٩٦٦ م)

ص ٢٧٩-٢٧٤

١٦٢٨- فتح مكّة

عبد السلام محمود الشافعى

بيروت: المكتبة العصرية، د. ت، ٩٤ ص

١٦٢٩- فتح مكّة

(قصيدة)

عبد الغنى أحمد ناجى

منبر الإسلام س ٤٩: ع ٩ (رمضان ١٤١١ هـ مارس ١٩٩١ م)

ص ٤٤

١٦٣٠- فتح مكّة

عبد المنعم شمس

القاهرة: الدار القومية، ١٩٦٢ م،

٦٢ ص، ٢٠ سم

١٦٣١- فتح مكّة

عبد الوهاب آشى

المنهل (جدة) مج ١٥: ج ٩ (١١/ ١٣٧٤ هـ)



ص: ٢٨٢

٦- ١٩٥٥/٧ م) ص ٣٦٠-٣٦١

١٦٣٢- فتح مكّة

على شعيب

المعارج (بيروت) مج ١: ع ٣، ٤ (٨، ٩ / ١٤١١ هـ - ٣، ٤ / ١٩٩١ م)

ص ١٩٩-٢٠٣

١٦٣٣- فتح مكّة

محمد أحمد باشميل

بيروت: دار الفكر، ١٩٧٢ م،

٣٩٨ ص (من معارك الإسلام الكبرى، ٨)

١٦٣٤- فتح مكّة

محمد محمد حسين.

١٦٣٥- فتح مكّة: دراسة حديثة

محسن أحمد الدوم

المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية،

١٤٠٠ هـ (رسالة ماجستير).

عالم الكتب (الرياض) مج ٢: ع ٢

(٨ / ١٩٨١ م)، ص ٢٤٠

١٦٣٦- فتح مكّة

شوقي أبو خليل

دمشق: دار الفكر، ط ١، ١٩٨٣ م، ١٦٨ ص.

١٦٣٧- فتح مكّة: نبردهاى بزرگ مسلمانان

(بالفارسية)

حسن باهنرى

پیام انقلاب س ١٤: ع ٣١٥ (١٥ دى ١٣٧٢ ش)

ص ٢٨-٣١

١٦٣٨- فتح مكّة وأثره فى حياة الرسول صلى الله عليه و آله

صفاء الدين محمد محمد

الفیصل س ١٤: ع ١٥٩ (١٩٩٠ / ٤) ص ٤٧-٥٠

١٦٣٩- فتح مكّة والعوامل التى ساعدت عليه

أحمد شلبى

القاهرة: مكتبة النهضة المصرية،

١٩٨١ م، ٤٤ ص.

١٦٤٠- فتح مَكَّة ومكارم الأخلاق

رؤوف شلبي

الأزهر س ٦١: ع ٩ (١٩٨٩ / ٤)

ص ٩٩٢-٩٩٧، ع ١٠ (١٩٨٩ / ٥)

ص ١١٠٤-١١٠٩

ص: ٢٨٣

١٦٤١- فقرة مجهولة في تاريخ طيبة الطيبة

حمد الجاسر

مجموعه مقالات متسلسله في المجله العربيه ١٤١٥-١٤١٦ هـ

١٦٤٢- فتنه قرامطه در مکه

(بالفارسيه)

يعقوب جعفرى

ميقات حج س ٢: ع ٥ (بائيز ١٣٧٢ ش)

ص ٧١-٨٧.

١٦٤٣- فتوح الحرمين

عبدالله بن الحسين الأزرنجاني الرومى.

خ:

خزانه آياصوفيه بجزاين

ظ:

المنهل (جلد٥) س ٥٦: ع ٤٧٥ (٣-٤ / ١٤١٠ هـ / ١٠ / ١١ / ١٩٨٩ م) ص ٢٠٦

١٦٤٤- فتوح الحرمين

(منظوم، موضوع، بالفارسيه)

محمد يوسف حسيني بلگرامى

ظ:

مرآت العلوم ٩٣ / ٣،

فهرستواره فنروى ١٤٥ / ١

١٦٤٥- فتوح الحرمين

(رحله منظومه)

محيى لارى (ق ١٠ هـ)

قم: ١٣٧٣

١٦٤٦- فتوى بجواز الإحرام من جدّه لمن يحجّ بطريق الجوّ

عبدالله كنون

الرساله الإسلاميه (بغداد) ع ١١٩-١٢٠

١٣٩٨ هـ) ص ٨٨-٩١

١٦٤٧- الفتوحات الكوازيه فى السياحه إلى الأراضى الحجازيه

عبدالله باش أعيان

العراق: ١٨٠٩ م.

١٦٤٨- فذلكه المناسك

(بالفارسية)

كريم خان الكرمانى

خ: ميرزا محمود كلباسى.

١٦٤٩- فرحة الزائر وبهجة الخواطر

أحمد بن أبى القاسم على بن طاووس

ص: ٢٨٤

ظ:

الذريعة ١٦/١٥٨، معجم ما كتب عن الرسول وأهل البيت صلوات الله عليهم ١٠/٢٣

١٦٥٠- فرحة العيد وسنة الأضحى

محمد صابر البريسى

الأزهر (القاهرة) س ٦٠: ع ١٢ (٧/١٩٨٨ م)

ص ١٥٦٥-١٥٨٨.

١٦٥١- فرهنگ آثار تاريخي مکه

(بالفارسيه)

عائق بن غيث بلادي، وحسن إسلامي

ميقات حج: ع ١٣ (بائيز ١٣٧٤ ش)

ص ١٥٠-١٦٠.

ع ١٥ (بهار ١٣٧٥ ش، ص ٩١-١١٠).

١٦٥٢- فرهنگ دانستنی های پیش از سفرخانه خدا

(بالفارسيه)

مهدی ملتجی

طهران: أشرفی، ١٣٦٣ ش، ٣٢٧ ص.

١٦٥٣- فرهنگ نامه حج وعمره

(بالفارسيه)

طهران: کوب.

١٦٥٤- فرهنگ نامه حج وعمره واماکن مربوطه

(بالفارسيه)

مهريزي

قم: در راه حق، ط ٢،

١٣٦٧ ش، ٤٦٤ ص، ٢١ سم.

١٦٥٥- فريد عقد اللال في التوسل بالنبي والآل

محمود قبادو التونسي ت ١٢٨٨ هـ

تونس: ١٢٨٨ هـ، ١٧ ص.

١٦٥٦- فريضة الحج

عبد الرزاق نوفل

بيروت: دار الكتاب العربي.

١٦٥٧- فريضة حج: نسخه الهی

(بالفارسيه)

إبراهيم وحيدى

طهران: انتشارات حرفه اول، ١٣٧١ ش، ٦٠ ص

١٦٥٨- فصل من الرحلة الحجازية

محمد السنوسى

ص: ٢٨٥

حوليات الجامعة التونسية: ع ٧ (١٩٧٠ م)  
ص ٧٩-١١١ (على الشنوفى).

١٦٥٩- فصول من تاريخ المدينة المنورة

على عبد القادر حافظ

ت ١٤٠٨ هـ

المدينة المنورة: ١٣٨٨ هـ.

جدّة: شركة المدينة للطباعة والنشر، ط ٢، ١٤٠٥ هـ، ٤٠٨ ص، ٢٤ سم.

١٦٦٠- الفصول المهمة في مشروعية زيارة النبي صلى الله عليه وآله والأئمة

مهدي صحين بن على الساعدي،

فرغ منه سنة ١٣٥٦ هـ

ظ:

الذريعة ١٦ / ٢٤٦.

١٦٦١- فضائل الأنصار

أبو البختری بن وهب ت ٢٠٠ هـ

ظ:

فهرست النديم ١١٣، العرب.

س ٣١: ج ٧، ٨ (١)، ٢ / ١٤١٧ هـ / ٦، ٧ / ١٩٩٦ م) ص ٤٥٣.

١٦٦٢- فضائل بني هاشم

على بن معروف البزاز

٣ أجزاء

ظ: صلة الخلف بموصول السلف

٣١٥.

١٦٦٣- فضائل تمر المدينة و ترابها

جمال الدين بن حمزة العمري

ظ: المدينة المنورة في التاريخ ٢٠٩،

العرب. س ٣١: ج ٨٢٧ (١)، ٢ / ١٤١٧ هـ

٦، ٧ / ١٩٩٦ م) ص ٤٥٤.

١٦٦٤- كتاب فضائل الحج

عبيدالله بن أحمد بن نهيك النخعي

رجال النجاشي ظ: ٢٣٢، الذريعة ١٦ / ٢٥٧.

١٦٦٥- كتاب فضائل الحجّ

محمد بن أبي عمير الأزدي ت ٢١٧ هـ

ظ: رجال النجاشي ٣٢٧.

١٦٦٦- كتاب فضائل الحجّ

معاوية بن وهب البجلي

ظ: رجال النجاشي ٤١٢،

الذريعة ١٦ / ٢٥٧.



ص: ٢٨٦

١٦٦٧- فضائل الحرمين الشريفين

محمد بن عبد السلام بناني ت ١١٦٣ هـ

ظ: فهرس الفهارس والإثبات ٢٢٥.

١٦٦٨- فضائل قريش

قاسم بن أصبغ الأندلسي ت ٤٣٠ هـ

ظ: معجم ما أُلّف عن رسول الله صلى الله عليه وآله ٤٧.

١٦٦٩- فضائل قريش والأنصار

محمد بن إدريس الشافعي

ظ: معجم الادباء ١٧/٣٢٦.

١٦٧٠- فضائل المدينة

ابن الجوزي ت ٥٩٧ هـ

ظ: العرب، س ٣١: ج ٨٢٧ (١، ٢/١٤١٧ هـ، ٦، ٧/١٩٩٦ م) ص ٤٥٤.

١٦٧١- فضائل المدينة

أحمد بن محمد القشاشي

خ: الخزانة الملكية بالرباط برقم ١٢٢٤.

ظ: معجم ما أُلّف عن رسول الله صلى الله عليه وآله ٩٦.

١٦٧٢- فضائل المدينة

القاسم بن علي بن عساكر ت ٦٠٠ هـ

ظ: طبقات الشافعية للسبكي ٨/٣٥٢،

معجم ما أُلّف عن رسول الله صلى الله عليه وآله ٩٦.

١٦٧٣- فضائل المدينة

المفضل بن محمد بن إبراهيم الجندي اليمني المكي ت ٣٠٨ هـ.

تحقيق: محمد مطيع الحافظ، وغزوة بدر

دمشق: دار الفكر، ١٩٨٥ م،

ص ٧٢.

دمشق: دار الفكر، ١٩٨٧ م، ص ٧٢.

مقات حج. س ٢: ع ٥ (پائيز ١٣٧٢ ش) ص ١٤٩-١٦٨

(أصغر قائدان).

١٦٧٤- فضائل المدينة المنورة

خليل إبراهيم

جدّة: دار القبلة للثقافة

الإسلامية- بيروت:



ص: ٢٨٧

مؤسسة علوم القرآن، ١٤١٣ هـ، ٣ مج.

١٦٧٥- فضائل المدينة المنورة

محمد بن يوسف الصالحى الشامى

حققه: محيى الدين مستو

دمشق: دار الكلم الطيب، ١٩٩٠، ١٦٠ ص.

١٦٧٦- فضائل مكّة

(ترجمة فارسية لرسالة الحسن البصرى)

خ: سپهسالار برقم ٧٥٢٢.

ظ: الذريعة ١٦/٢٦٤،

فهرس مشترك باكستان ١٠/٤٣.

١٦٧٧- فضائل مكّة

أبو بكر عبدالله بن الزبير القرشى الحميدى، صاحب الشافعى ت ٢١٩ هـ

ظ: المنهل (جدة) مج ٥١: ع ٤٧٥ (٣-٤ / ١٤١٠ هـ)

ص ١٩٤.

١٦٧٨- فضائل مكّة

عبد الغنى عبد الواحد المقدسى (ابن سرور)

ظ: المنهل (جدة) س ٥٦: ع ٤٧٥ (٣-٤ / ١٤١٠ هـ / ١٠ / ١١ / ١٩٨٩ م) ص ٢٠٦

١٦٧٩- فضائل مكّة

محمد بن على بن علان المكى

الصديقى (ت ١٠٥٧)

ظ: المنهل (جدة) س ٥٦: ع ٤٧٥ (٣-٤ / ١٤١٠ هـ / ١٠ / ١١ / ١٩٨٩ م) ص ٢٠٦.

١٦٨٠- فضائل مكّة

ابن اللباد محمد بن محمد بن وشاح اللخمى ولاء

(٢٥٠-٣٣٣ هـ)

ظ: تراجم المؤلفين التونسيين ٤ / ٢٠٠.

١٦٨١- فضائل مكّة

المفضل بن محمد بن إبراهيم الجندى الشعبى ت ٣٠٨ هـ

ظ: صلة الخلف بموصول السلف ٣٢٠،

تاريخ التراث العربى لسزكين مج ١:

ج ٢ / ٢٠٨،

معجم ماألف عن رسول الله صلى الله عليه و آله ١٩.

١٦٨٢- فضائل مكّة على سائر البقاع



ص: ٢٨٨

أحمد بن سهل البلخي

ظ: معجم الادباء ٣/ ٦٧.

١٦٨٣- فضائل مكّه معظمه

(ترجمة فارسيه لرساله فضائل مكّه المعظمه لحسن البصري)

باهتمام:

علي صدرابي خويي

ميفات حج. س ٤: ع ١٢

(تابستان ١٣٧٤ ش)

ص ٢٧- ٤١.

١٦٨٤- فضل مكّه وحرمة البيت الحرام

عاقق بن غيث البلادي

مكّه المكرمه: دار مكّه، ١٩٨٩ م،

ص ٢٥٤.

مكّه المكرمه: دار مكّه، ١٩٩٣ م،

ص ٢٥٤، ٢١ سم.

١٦٨٥- فضائل مكّه والسكن فيها

الحسين البصري ت ١٠٠ هـ

الكويت: ١٩٨٠ م، (بعنايه: سامي مكّي العاني).

١٦٨٦- فضائل مكّه والمدينه

مجهول المؤلف

خ: أياصوفيا برقم ٣٠٩٠، ٤٠٤ ص، ٨٣٦ هـ.

ظ: رحلات لحمد الجاسر ١٤٨،

العرب. س ٣١: ج ٨٢٧ (١، ٢/ ١٤١٧ هـ) ص ٤٥٥.

١٦٨٧- فضائل مكّه والمدينه

أحمد بن محمّد المكّي الهاشمي

الحضراوي (١٢٥٢-١٣٢٧ هـ)

ظ: فهرس الفهارس والاثبات ٣٤٨.

١٦٨٨- فضائل مكّه والمدينه

بلدر زاده محمّد بن مصطفى القاضي

(ت ١٠٦٠ هـ)

ظ: المنهل (جده) س ٥٦: ع ٤٧٥ (٣- ٤/ ١٤١٠ هـ / ١٠- ١١/ ١٩٨٩ م) ص ٢٠٦.

١٦٨٩- فضائل الحرمين

(بالفارسية)

مجهول المؤلف

ظ: ازبکستان، طاشقند ٦/ ٧٧،

فهرستواره منزوی ١/ ٢٤٠.

١٦٩٠- فضل الصلاة على النبي

أبو الحسين أحمد بن فارس الزاهد

ص: ٢٨٩

ظ: صلة الخلف بموصول السلف

.٣١٧

١٦٩١- فضل الصلاة على النبي

إسماعيل بن إسحاق

ظ: صلة الخلف بموصول السلف

.٣١٧

١٦٩٢- فضل الصلاة على النبي وبيان معناها وكيفيتها وشيء مما أُلّف فيها، وعقيدة أهل السنّة والجماعة في الصحابة الكرام

عبد المحسن بن حمد العباد

المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية، ط ٤، ١٤١٠ هـ، ٣٧ ص.

١٦٩٣- فضل الليالي العشر

(لماذا استحققت الليالي العشر من ذى الحجة الفضل والتشريف؟)

أحمد عبد التّوّاب

منار الإسلام (أبوظبي) س ٢٠: ع ١٢

(١٢/١٤١٥ هـ - ٥/١٩٩٥ م)

ص ١٦-١٩.

١٦٩٤- فضل المدينة على مكّة

محمد بن عبد الله بن محمد بن صالح الأبهري

(٢٨٧-٣٧٥ هـ).

ظ: الفهرست لابن النديم ٢٥٣.

١٦٩٥- فضل مكّة

علي بن الحسن بن عساكر الدمشقي (٤٩٩-٥٧١ هـ)

ظ: مقدّمه المجلد الأوّل من تاريخ ابن عساكر ١/٢٨،

معجم الأدباء ١٣/٨٢.

١٦٩٦- فضل مكّة المكرّمه

عبد الله دهيش

المنهل (جده) مج ٢٠: ج ١٠ (١٢/١٣٧٩ هـ)

٥-٦ (٢١٩٦٠) ص ٦٩٢-٦٩٥.

١٦٩٧- فقه الحج الاستدلالي المقارن

محسن الأراكي

ميقات الحج ع ١ (١٤١٥ هـ) ص ١٠٨-١٣٤.

١٦٩٨- فقه الحجّ وحكمه مشروعيته

سيد فاضل

المجاهد (القاهرة) س ٩: ع ٩١ (٧/ ١٩٨٨ م)

ص ٧-١٢.



ص: ٢٩٠

١٦٩٩- فقه السنّة (في فقه الحجّ وأدعيته)

سيّد سابق

القاهرة: دار الكتاب العربي،

ط ١، ١٣٧٤ هـ.

١٧٠٠- فقه الصلوات والمدائح النبوية:

بحث جديد في فقه الصلوات على الرسول

محمد زكي إبراهيم

القاهرة: العشيرة المحمّدية، ط ٢،

١٩٨٥، ٦٦ ص.

١٧٠١- فقه العبادات: الحجّ

حسن أيوب

بيروت: دار الندوة الجديدة،

١٩٨٦ م، ٢٦٣ ص.

١٧٠٢- فقه النساء في الحجّ

محمد عطية خميس

بيروت: دار القلم، ١٩٦٠ م، ١٦٠ ص.

بيروت: دار القلم، ١٩٨٠، ١٦٠ ص.

١٧٠٣- فلسفه برائت از مشرکین

(بالفارسيه)

محمد محمّدي ري شهري

مقيقات حج س ٢: ع ٤ (تابستان ١٣٧٢ ش) ص ٣٩-٤٤.

١٧٠٤- فلسفه الحجّ وأسرار مناسكه

عباس على عميد الزنجاني

مقيقات الحج. س ٤: ع ٧

١٤١٨ هـ) ص ١١-٤٨.

١٧٠٥- فلسفه الحجّ وأسراره

أحمد عبد القادر المعبي

المنهل (جده) مج ٥٣: ع ٤٩٦

١٤١٢/١٢ هـ) ص ١٤-١٦.

١٧٠٦- فلسفه الحجّ ومصالحه في الإسلام

محمد الصدر

النجف: مط الآداب، ١٩٧٠ م، ٨٧ ص.

١٧٠٧- فلسفه حج

(بالفارسية)

محمد جواد الموسوي الغروي

مكتبة اقبال، ط ٢، ١٣٦١ ش، ٤٤٨ ص، ٢٤ سم.

١٧٠٨- فلسفه حج در اسلام

(بالفارسية)

ص: ٢٩١

محمد علي العاملي الدزفولي

طهران: ١٣٥١ ش، ٢٣٢ ص.

١٧٠٩- فلسفه واسرار حج

(بالفارسيه)

محمد إمامي خوانساري

طهران: ١٣٩٣ ه، ١٩٨ ص.

١٧١٠- فلسفه حج واسرار مناسك آن

(بالفارسيه)

عباس علي عميد زنجاني

طهران: وزارة الإرشاد الإسلامي، ط ١، ١٣٦٣ ش.

١٧١١- فلسفه واسرار حج به ضميمه مختصرى از مناسك حج

(بالفارسيه)

محمد تقى الحكيم

طهران: نشر فرهنگ اسلامى، ط ٥، ١٣٦١ ش.

١٧١٢- فلسفه واسرار حج همراه با مناسك حج علامه حلى

(بالفارسيه)

ترجمة: أبو القاسم سحاب

كتاب سحاب، ط ٤، ١٣٦٦ ش، ٢١٦ ص، رحلى.

١٧١٣- فلسفه واسرار حج يا ارمغان مكه

(بالفارسيه)

عبد الغفور ذوقى

طهران: ١٣٥٠ ش، ٣٥٥ ص،

٢١ سم.

١٧١٤- فن العمارة الإسلامية فى الحرمين الشريفين

محمد مصطفى صبرة

الدارة س ٧: ع ٤ (مايو ١٩٨٢ م)

ص ٨٩-٩٦.

١٧١٥- الفوائج المسكية والفتوح المكية

عبد الرحمن بن محمد البسطامى

ت ٨٥٨ ه

خ: مكتبة الحرم المكي،

برقم ١٢٢.

١٧١٦- فوائذ الحج و حكمه

ياسين تركى

الرسالة الإسلامية (بغداد) ع ١١٩ - ١٢٠

(١٣٩٨ هـ) ص ٣٦ - ٣٩.

ص: ٢٩٢

١٧١٧- في التذوق الجمالي لهزيمة حسان بن ثابت حول فتح مكة

محمد علي أبو حمدة

عمان (الأردن): مكتبة الرسالة، ١٩٨٨ م، ٦٩ ص، ١٧ سم.

١٧١٨- في الحج: دلالات الألفاظ وحكمة التشريع

معوض عوض إبراهيم

الهداية (البحرين) س ١٢: ع ١٤٢ (٧/ ١٩٨٩ م)

ص ٨٩-٩١.

١٧١٩- في الحج رياضة سامية للروح والجسد

عبد القدوس الأنصاري

المنهل (جدة) مج ٣١: ج ١١ (١٢/ ١٣٩٠ هـ)

١٩٧٠ م) ص ١٣٨٥-١٣٨٦

١٧٢٠- في خدمة ضيوف الرحمن

وزارة الاعلام، الشؤون الإعلامية، الاعلام الداخلي

مكة المكرمة: دار الموسوعة

العربية للنشر والتوزيع، ١٤١١ هـ،

١٧٦ ص، ٢٤ سم.

١٧٢١- في الذكرى الثانية لانتهاك حرمة البيت الآمن

علي الخامنئي

التوحيد (طهران) س ٧: ع ٤٢ (٩/ ١٩٨٩)

ص ١٠٨-١٢٨.

١٧٢٢- في رحاب بيت الله

(قصيدة)

عمر بن الفارض

المنهل (جدة) مج ٥١: ع ٤٧٥ (٣-٤/ ١٤١٠ هـ)

ص ٢٢-٢٤.

١٧٢٣- في رحاب البيت الحرام

محمد بن علوي بن عباس المالكي

[السعودية]: دار القبلة، ١٤٠٥ هـ، ٢٧٥ ص.

١٧٢٤- في رحاب البيت العتيق

الراية (مكة المكرمة)

س ٢٦: ع ٢٨١

(٧/ ١٩٨٨ م) ص ٢٩-٣٠

١٧٢٥- في رحاب الحرمين

إدريس بن عبد الهادي

العلوي الشاكري ت ١٣٣١ هـ

ص: ٢٩٣

العرب. س ١٤: ع ٧-٨

(١، ٢ / ١٤٠٠ هـ / ١٢، ١ / ١٩٨٠ م)

ص ٥٢١-٥٢٣ (حمد الجاسر)

١٧٢٦- في رحاب الحرمين

محمد بن محمد التامرأوى ت ١٢٨٥ هـ

العرب. س ١٣: ع ٩-١٠ (٣، ٤ / ١٣٩٩ هـ / ٣، ٤ / ١٩٧٩ م)

ص ٦٦٥-٦٧٠ (حمد الجاسر).

١٧٢٧- في رحاب الحرمين: رحلات القطبي من مكّة إلى المدينة

محمد بن أحمد النهروالي

ت ٩٩٠ هـ.

العرب. س ١٦: ع ٧-٨

(١، ٢ / ١٤٠٢ هـ / ١١، ١٢ / ١٩٨١ م)

ص ٥٠٢-٥٥٢ (حمد الجاسر).

١٧٢٨- في رحاب الحرمين من خلال كتب الرحلات

إلى الحجّ

أحمد بن محمد الدرعي

تلخيص وتحقيق: حمد الجاسر

العرب س ١٢: ج ٥، ٦ (١١-١٢ / ١٩٧٧ م)

ص ٤١٩-٤٧٢.

١٧٢٩- في رحاب الحرمين من خلال كتب الرحلات إلى الحجّ

أحمد بن محمد الهشتوكي

ت ١١٢٧ هـ

العرب. س ١٣: ع ١-٢ (٧، ٨

/ ١٣٩٨ هـ / ٧، ٨ / ١٩٧٨ م)

ص ٤٨-٦١ (حمد الجاسر).

١٧٣٠- في رحاب الحرمين من خلال كتب الرحلات إلى الحجّ

إسماعيل بن موسى الحامدي ت ١٣١٦ هـ

العرب س ١٣: ج ٥، ٦ (١١-١٢ / ١٩٧٨ م)

ص ٣٥٢-٣٦٨

(تحقيق وتلخيص: حمد الجاسر).

١٧٣١- في رحاب الحرمين من خلال كتب الرحلات إلى الحجّ

بدر الدين تابع آل الصديق

العرب. س ١٢: ع ١١-١٢  
(٥، ١٣٩٨ / ٦ / ٥ / ١٩٧٨ م)  
ص ٨٣٧ - ٨٥٠  
(حمد الجاسر).



ص: ٢٩٤

١٧٣٢- في رحاب الحرمين من خلال كتب الرحلات إلى الحج  
حمد الجاسر

العرب. س ٩: ع ٥-٦ (١١، ١٢ / ١٣٩٤ هـ / ١٢، ١٣ / ١٩٧٤ م)  
ص ٣٢١-٣٣٦.

١٧٣٣- في رحاب الحرمين من خلال كتب الرحلات إلى الحج  
خالد بن عيسى البلوى

ت نحو ٧٦٥ هـ

العرب. س ١١، ع ٩-١٠ (٣، ٤ / ١٣٩٧ هـ / ٣، ٤ / ١٩٧٧ م)  
ص ٧٢٨-٧٥٣ (حمد الجاسر).

١٧٣٤- في رحاب الحرمين من خلال كتب الرحلات إلى الحج  
عبدالله بن محمد العياشي

ت ١٠٩٠ هـ.

العرب. س ١٢: ع ١-٢ (٧، ٨ / ١٣٩٧ هـ / ٦، ٨ / ١٩٧٧ م)  
ص ٦٥-١١٥

ع ٣-٤ (٩، ١٠ / ١٣٩٧ هـ / ٩، ١٠ / ١٩٧٧ م)

ع ٩، ١٠ / ١٩٧٧ م) ص ٢١٠-٢٨١

(حمد الجاسر).

١٧٣٥- في رحاب الحرمين من خلال كتب الرحلات إلى الحج  
عبد المجيد بن علي الزبادي المنالي ت ١١٦٣ هـ.

العرب س ١٢: ج ٧، ٨ (١-٢ / ١٩٧٨ م)  
ص ٥٢٦-٥٦٠ (تلخيص وتحقيق:

حمد الجاسر).

١٧٣٦- في رحاب الحرمين من خلال كتب الرحلات إلى الحج  
محمد بن الطيب بن كيران المغربي ت ١٣١٤ هـ

العرب س ١٣: ج ٧، ٨ (١-٢ / ١٩٧٩ م)  
ص ٥٠٤-٥١٥ (حمد الجاسر).

١٧٣٧- في رحاب الحرمين من خلال كتب الرحلات إلى الحج  
محمد بن عبد السلام ت ١٢٣٩ هـ

العرب. س ٩: ع ٧-٨ (١، ٢ / ١٣٩٥ هـ / ٢، ٣ / ١٩٧٥ م)

ص ٤٨٦-٤٩٦

ع ٩-١٠ (٣، ٤ / ١٣٩٥ هـ / ٤، ٥ / ١٩٧٥ م)

ص ٦٥٢-٦٦٣



ص: ٢٩٥

- ع ١١-١١ (٥، ٦/١٣٩٥ هـ، ٦، ٧/١٩٧٥ م) ص ٨٣٦-٨٤٧.  
 س ١٠: ع ١-٢ (٧، ٨/١٣٩٥ هـ.  
 /٨، ٩/١٩٧٥ م) ص ٤٤-٧٠.  
 ع ٣، ٤ (٩، ١٠/١٣٩٥ هـ، ١٠-١١/١٩٧٥ م) ص ١٧٣-١٩٥.  
 س ١١: ع ١-٢ (٧-٨/١٩٧٦ م) ص ٤٠-٥٣.  
 ع ٣-٤ (٩-١٠/١٩٧٦ م) ص ١٦٨-١٨٦.  
 ع ٥-٦ (١١، ١٢/١٩٧٦ م) ص ٤١٣-٢٢٤ (حمد الجاسر).  
 ١٧٣٨- في رحاب الحرمين من خلال كتب الرحلات إلى الحج  
 محمّد بن عثمان السنوسى ت ١٣١٨ هـ  
 العرب. س ١٣: ع ٣-٤ (٩، ١٠/  
 ١٣٩٨ هـ، ٩، ١٠/١٩٧٨ م)  
 ص ٢٥٠-٣٠٦ (حمد الجاسر).  
 ١٧٣٩- في رحاب الحرمين من خلال كتب الرحلات إلى الحج  
 محمّد بن محمّد العبدري ت نحو ٧٠٠ هـ  
 العرب س ١٠: ج ٩، ١٠ (٣-٤/١٩٧٧ م)  
 ص ٧١٥-٧٤٥ (حمد الجاسر)  
 ١٧٤٠- في رحاب الصلوات على خير الأنام  
 إعداد وشرح: محمّد محيى الدين الحسينى  
 القاهرة: ١٩٨٦ م، ٦٢ ص.  
 ١٧٤١- في زحمة الحج  
 إبراهيم هاشم فالالى  
 المنهل (جدة) مج ٤: ج ٦ (٥/١٣٥٩ هـ/  
 /٦، ١٩٤٠ م)  
 ص ٥-٩.  
 ١٧٤٢- في ضيافة رب البيت والحرم  
 عبد الله الشيخلى  
 الرسالة الإسلامية (بغداد)  
 ع ٤٥ (١٣٩١ هـ) ص ٣-٤.  
 ١٧٤٣- في غار حراء  
 إبراهيم أمين فودة  
 المنهل (جدة) مج ١٥: ج ٧-٨ (٧-٨/١٣٧٤ هـ، ٣-٤/١٩٥٥ م)  
 ص ٣٤٠-٣٤١.



ص: ٢٩٦

١٧٤٤- في قلب نجد والحجاز

محمد شفيق مصطفى

٦٧ ص.

١٧٤٥- في كتابه الإعلام بأعلام البيت الحرام

القطبي

المنهل (جدة) مج ١٢: ج ٦-٧ (٦-٧ / ١٣٧١ هـ)

٣-٤ / ١٩٥٢ م) ص ٢١٢-٢١٦.

١٧٤٦- في الكعبة

سيد محمود الأبو

القاهرة: ط ١، ١٩٨٥ م،

٦٨ ص.

١٧٤٧- الفيض العام والنعيم التام من فوائد زيارة بيت الله الحرام وأداء حجة الإسلام

محمد بن علي بن أشرف الطالقاني

ظ: الذريعة ١٦ / ٤٠٧.

١٧٤٨- في المملكة الروحية للعالم

الإسلامي (رحلة إلى الحجاز

سنة ١٩٣٠-١٩٣١ م)

مصطفى محمد

المدينة المنورة: ٢٣٠ ص.

١٧٤٩- في منزل الوحي:

حج در آينه سفرنامه ها نوشته محمد حسين هيكل (بالفارسيه)

ترجمة: حسن إسلامي

ميقات حج س ٣: ع ٩ (پاييز ١٣٧٣ ش)،

٢١٢-٢٢٤ ص

## تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

جاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/٤١).

قال الإمام علي بن موسى الرضا - عليه السلام: رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا أَحْيَا أَمْرًا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَيُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بناذر البحار - في تلخيص بحار الأنوار، للعلامة فيض الاسلام، ص ١٥٩؛ عيون أخبار الرضا(ع)، الشيخ الصدوق، الباب ٢٨، ج ١/ ص ٣٠٧).

مؤسس مجتمع "القائمية" الثقافي بأصفهان - إيران: الشهيد آية الله "الشمس آبادي" - رَحِمَهُ اللَّهُ - كان أحدًا من جهابذة هذه المدينة، الذي قد اشتهر بشعفه بأهل بيت النبي (صلواتُ الله عليهم) ولاسيما بحضرة الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) و بساحة صاحب الزمان (عجلَ الله تعالى فرجه الشريف)؛ ولهذا أسس مع نظره و درايته، في سنة ١٣٤٠ الهجرية الشمسية (= ١٣٨٠ الهجرية القمرية)، مؤسسه و طريقة لم ينطفيء مصباحها، بل تتبّع بأقوى و أحسن موقف كل يوم.

مركز "القائمية" للتحري الحاسوبى - بأصفهان، إيران - قد ابتدأ أنشيطه من سنة ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية) تحت عناية سماحة آية الله الحاج السيد حسن الإمامي - دام عزه - و مع مساعيدته جمع من خريجي الحوزات العلمية و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، في مجالات شتى: ديتيه، ثقافته و علميه...

الأهداف: الدفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثقافته الثقلين (كتاب الله و اهل البيت عليهم السلام) و معارفهما، تعزيز دوافع الشباب و عموم الناس إلى التحرر الأذق للمساائل الديتية، تخليف المطالب النافعة - مكان البلايتي المتبدله أو الرديئة - في المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوترية)، تمهيد أرضية واسعة جامع ثقافته على أساس معارف القرآن و اهل البيت عليهم السلام - بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطلاب، توسعه ثقافته القراءة و إغناء أوقات فراغه هواه برامج العلوم الإسلامية، إناله المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشبهات المنتشرة في الجامعة، و...

- منها العدالة الاجتماعية: التي يمكن نشرها و بثها بالأجهزة الحديثة متصاعده، على أنه يمكن تسريع إبراز المرافق و التسهيلات - في آكناف البلد - و نشر الثقافة الإسلامية و الإيرانية - في أنحاء العالم - من جهة أخرى.

- من الأنشطة الواسعة للمركز:

(الف) طبع و نشر عشرات عنوان كتب، كتيبه، نشره شهريه، مع إقامة مسابقات القراءة

(ب) إنتاج مئات أجهزة تحقيقيه و مكتبيه، قابله للتشغيل في الحاسوب و المحمول

(ج) إنتاج المعارض ثلاثية الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرسوم المتحركة و... الأماكن الديتية، السياحية و...

(د) إبداع الموقع الانترنتي "القائمية" www.Ghaemiyeh.com و عدده مواقع أخرى

(ه) إنتاج المنتجات العرضيه، الخطابات و... للعرض في القنوات القمرية

(و) الإطلاق و الدعم العلمي لنظام إجابة الأسئلة الشرعية، الاخلاقية و الاعتقادية (الهاتف: ٠٠٩٨٣١١٢٣٥٠٥٢٤)

(ز) ترسيم النظام التلقائي و اليدوي للبلوتوث، ويب كشك، و الرسائل القصيرة SMS

(ح) التعاون الفخرى مع عشرات مراكز طبيعه و اعتباريه، منها بيوت الآيات العظام، الحوزات العلمية، الجوامع، الأماكن الديتية كمسجد جمكران و...

(ط) إقامة المؤتمرات، و تنفيذ مشروع "ما قبل المدرسة" الخاص بالأطفال و الأحداث المشاركين في الجلسة

(ي) إقامة دورات تعليمية عمومية و دورات تربية المربى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السنة

المكتب الرئيسي: إيران/أصفهان/ شارع "مسجد سيد" / ما بين شارع "بنج رمضان" ومفترق "وفائي" / بناية "القائمة"

تاريخ التأسيس: ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية)

رقم التسجيل: ٢٣٧٣

الهوية الوطنية: ١٠٨٦٠١٥٢٠٢٦

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الإلكتروني: Info@ghaemiyeh.com

المتجر الإلكتروني: www.eslamshop.com

الهاتف: ٢٥-٢٣-٢٣٥٧٠ (٠٠٩٨٣١١)

الفاكس: ٢٢-٢٣٥٧٠ (٠٣١١)

مكتب طهران ٨٨٣١٨٧٢٢ (٠٢١)

التجارية والمبيعات ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩

امور المستخدمين ٢٣٣٣٠٤٥ (٠٣١١)

ملاحظة هامة:

الميزاتية الحالية لهذا المركز، شعبيته، تبرعته، غير حكومية، و غير ربحية، اقتنيت باهتمام جمع من الخيرين؛ لكنها لا توافي الحجم المتزايد والمتسع للامور الدينية والعلمية الحالية و مشاريع التوسعة الثقافية؛ لهذا فقد ترجى هذا المركز صاحب هذا البيت (المسمى بالقائمة) و مع ذلك، يرجو من جانب سماحة بقيه الله الأعظم (عجل الله تعالى فرجه الشريف) أن يوفق الكل توفيقاً متزائداً لإعانتهم - في حد التمكن لكل احد منهم - إيانا في هذا الأمر العظيم؛ إن شاء الله تعالى؛ و الله ولي التوفيق.

مركز  
للبحوث والتحريات الكمبيوترية  
الغمامة اصحمان

WWW



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى  
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم

[www.Ghaemiyeh.com](http://www.Ghaemiyeh.com)

[www.Ghaemiyeh.net](http://www.Ghaemiyeh.net)

[www.Ghaemiyeh.org](http://www.Ghaemiyeh.org)

[www.Ghaemiyeh.ir](http://www.Ghaemiyeh.ir)

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

